الإمام الدكتور
عبد الحليم محمود

العبادة

أحكام وأسرار

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

العِبَــادَة

أحكام وأسرار

العارف بالله الإمام

عبد الحليم محمود

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة

الكتـــــاب : العبادة أحكام وأسرار
المـــؤلـــف : د / عبد الحليم محمود
تاريخ النشـــر : ١٩٩٨
رقـم الإيـــداع : ٧٩٥٢ / ٩٨
الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-215-344-0

النـاشـــــر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطـابـع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

التـوزيــــــع : دار غريب ٢٠١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التســويق
والعـرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحـاس مدينة نصـر - الدور الأول

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير المرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيئ لنا من أمرنا رشدا .

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. وبعد :

فإن الفقه الإسلامى : هو مواد السلوك للمسلم : إنه يتناول حياته فى الصغير منها والكبير ، وينظم سلوكه الأخلاقى بأوسع ما تتضمنه كلمة : أخلاق ، منذ أن يصبح إلى أن يمسى ، ومنذ ميلاده إلى أن تنتهى به الحياة .

ثم ينظم شئون ميراثه - إن كان له ميراث - بعد حياته .

إنه ينظم سلوكه مع نفسه ، ويشرح له من ذلك ما خفى وما ظهر ،

وينظم سلوكه مع الله ، فيبين له ما ينبغى أن يتحلى به حتى يصير ربانيا .

وينظم سلوكه مع إخوانه فى المجتمع ، سلبا وإيجابا ، قولا وفعلا .

إنه قانون الحياة بالنسبة للمسلم .

إنه القانون الذى يبين أنواع السلوك ، من حيث كونه جائزا ، أو واجبا ، أو مستحبا ، ومن حيث كونه حراما ، أو مكروها : وذلك فى ميادين الحياة .

لقد تتبع آيات القرآن الكريم وتتبع الأحاديث النبوية تتبعا دقيقا ونسقها ، فأصبح بذلك صورة واضحة لحياة المسلم ، وتغلغل بذلك فى جميع الميادين ، حتى تلك التى ما كان الإنسان يظن أنه ينتبه إليها أو يتجه نحوها .

خذ مثلا مسألة الروائح الزكية ، أو العطرية ، نجده يذكر : عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : «من عرض عليه طيب فلا يرده ، فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة» وعن أبى سعيد أن النبى ﷺ ، قال فى المسك هو : «أطيب طيبكم» .

ويذكر فى الفرق بين التزين والكبر :

عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنة ، قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمص الناس » .

ومن هذا الوادى - وادِى التزين والروائح الطيبة - عن جابر ، أن النبى ، ﷺ قال :

« من أكل الثوم ، والبصل ، والكراث : فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » [1] .

ويتحدث الفقه عن : الذهب، والحرير ، والأقمشة المحلاة بالتصاليب فيذكر:

عن أبى موسى ، أن النبى ﷺ ، قال : « أحل الذهب والحرير للإناث من أمتى ، وحرم على ذكورها » [2] .

وعن حذيفة ، قال : « نهانا النبى ﷺ أن نشرب فى آنية الذهب والفضة ، وأن نأكل فيها ، وعن لبس الحرير والديباج ، وأن نجلس عليه » [3] .

وعن أنس : « أن النبى ، ﷺ ، رخص لعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، فى لبس الحرير لحكة كانت بهما » .

وعن عائشة أن النبى ، ﷺ « لم يكن يترك فى بيته شيئًا فيه تصاليب إلا

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أحمد والنسائى ، والترمذى وصححه .

(٣) رواه البخارى .

نقضه » رواه البخارى وأبو داود وأحمد ولفظه : « لم يكن يدع فى بيته ثوبا فيه تصليب إلا نقضه » .

ويتحدث الفقه عن نواح من التحفظ الصحى فيذكر : عن جابر عن النبى ، ﷺ « أنه نهى أن يبال فى الماء الراكد » [1] .

وعن جابر بن عبد الله ، فى حديث له ، أن النبى - ﷺ - قال : «أوك سقاءك ، واذكر اسم الله ، وخمر إناءك واذكر اسم الله ، ولو أن تعرض عليه عودا» متفق عليه .

ولمسلم : أن رسول الله ﷺ ، قال : « غطوا الإناء وأوكوا السقاء ، فإن فى السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء ، أو سقاء ليس عليه وكاء ، إلا نزل فيه من ذلك الوباء » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال : « اتقوا اللاعنين، قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله ؟ قال : الذى يتخلى فى طريق الناس أو فى ظلهم » أى الذى يقضى حاجته فى الطريق الذى يسير فيه الناس ، أو تحت الأشجار التى يستظلون بها [2] .

أما عن التبرج والتخنث فإنه يشرح :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، على رءوسهن أمثال أسنمة البخت المائلة ، لا يرين الجنة ، ولا يجدن ريحها ، ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس » [3] .

وعن أبى هريرة : أن النبى ﷺ ، « لعن الرجل يلبس لبس المرأة ، والمرأة تلبس لبس الرجل » [4] .

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم .

(٤) رواه أحمد وأبو داود .

والحديث عن التبرج والتخنث ، يجر إلى الحديث عن سفر المرأة وحدها .

فعن أبى هريرة فيما رواه الشيخان : أن رسول الله ﷺ قال :

« لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذى محرم عليها » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما - فيما رواه الشيخان أيضا - أنه سمع النبى ﷺ يقول :

« لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم . ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم. فقال له : يا رسول الله إن امرأتى خرجت حاجة ، وإنى كتبت فى غزوة كذا وكذا ، قال : انطلق فحج مع امرأتك » .

والحديث عن التبرج أيضا يجر إلى الحديث عن كشف العورة .

عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قلت : يا رسول الله ، عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : «احفظ عورتك إلا من زوجتك ، أو ما ملكت يمينك».

قلت : فإذا كان القوم بعضهم فى بعض ؟ قال : إن استطعت ألا يراها أحد فلا يرينها ، قلت: فإذا كان أحدنا خاليا ؟ قال: فالله تبارك وتعالى أحق أن يستحيا منه».

وعن على رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تبرز فخذك ، ولا تنظر إلى فخذ حى ولا ميت » [1] .

وعن محمد بن جحش ، قال : مر رسول الله ﷺ على معمر . وفخذاه مكشوفتان ، فقال : « يا معمر : غط فخذيك فإن الفخذين عورة » [2] .

وعن ابن عباس ، عن النبى ، ﷺ ، قال : « الفخذ عورة » رواه الترمذى وأحمد ولفظه :

---

(١) رواه أبو داود ، وابن ماجه .

(٢) رواه أحمد والبخارى فى تاريخه .

« مر رسول الله ﷺ ، على رجل وفخذه خارجة ، فقال : غط فخذيك ، فإن فخذ الرجل من عورته » .

وعن يعلى بن أمية : « أن رسول الله ﷺ ، رأى رجلا يغتسل فى فضاء مكشوف ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله عز وجل حيى ستير يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر » (١) .

ويأخذ الجانب الأخلاقى شأنا كبيرا فى الفقه نذكر منه على سبيل المثال :

عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، أن النبى ، ﷺ : « مر بقبرين ، فقال : إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما ، فكان لا يستترمن بوله ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » رواه أصحاب الصحاح، وفى رواية البخارى والنسائى: « وما يعذبان فى كبير » ثم قال: « بلى كان أحدهما ... » وذكر الحديث.

ويروى الفقه فى هذا الجانب قوله ﷺ : « بعثت لأتمم حسن الأخلاق (٢) ».

ويصل الأمر بسعيد بن المسيب أن يقول :

ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى قال : إصلاح ذات البين . وإياكم والبغضة فإنها الحالقة .

ويروى الفقه قول رسول الله ، ﷺ ، لكل دين خلق ، وخلق الإسلام الحياء . وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ، ﷺ ، ما خير فى أمرين قط إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله لها (٣) .

ويصل الأمر فى الفقه إلى تنظيم كيفية الأكل ، والشرب ، وما يقوله الإنسان عند خروجه من البيت ، وعند دخوله ، وعند ركوبه وعند نزوله .

وفى الملابس ، مثلا :

---

(١) رواه أبو داود ، والنسائى .

(٢) الموطأ .

(٣) الأحاديث من المصدر السابق .

عن أبى هريرة، قال: «كان رسول الله ، ﷺ ، إذا لبس قميصا بدأ بميامنه».

وعن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ : إذا استجد ثوبا : سماه باسمه : عمامة أو قميصا أو رداء ، ثم يقول :

« اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » (١) .

وما كان الفقه فى يوم من الأيام خاصا بجانب من الحياة الاجتماعية دون جانب .

لقد كان يتضمن الأخلاق ، ويتضمن التشريع ، كان يشتمل على العبادات ، والمعاملات : بيعا وشراء ، وجهادا وقتالا ، وسلاما ، نكاحا وميراثا ، لقد كان الفقه يشرع للإنسان فى جميع أقطاره وزواياه .

وكانت الطريقة المثلى للتأليف فى الفقه : هى الطريقة التى اتبعها السلف الصالح ، رضى الله عنهم : لقد اعتقدوا اعتقادا موفقا ، هو أن مهمتهم إنما هى : جمع الأحاديث فى كل مجال ، وتنسيقها ، وتبويبها ، وتقسيمها إلى فصول ، وإلى فقرات تنتظم جميعها تحت وحدة متحدة : هى الحياة الإسلامية .

والحياة الإسلامية : لا تنقسم إلى ميادين تنفصل وتتعدد ، إنها وحدة متماسكة ، ومن هنا كانت هذه الكتب الأولى فى « الحياة الإسلامية » تبدأ بالحديث عن الوحى ، وعن الإيمان ، وعن العلم .

وإذا تصفحت كتابا مثل الموطأ للإمام مالك ، رضى الله عنه - وهو كتاب فقه رغم كل ما يمكن أن يقال ، بل هو فى نظرنا كتاب الفقه المثالى : فإنك تجد فيه فصلا عن حسن الخلق ، وفصلا يطول عن صفة الرسول ، ﷺ ، للتأسى به ، ومتابعته فى أخلاقه وسلوكه ، وفصلا عن الرؤيا ، وتجد فصلا عن العلم ، وفصلا عن أسمائه ، ﷺ .

---

(١) رواهما الترمذى .

كان الفقه الإسلامى صورة كاملة لحياة المسلم على صورتها الصحيحة ، وفى ترابطها الذى لا انفصام له ولا انفكاك .

لقد كان شرحا للإسلام ، وتفصيلا للإيمان ، والإسلام هو تصوير للحياة التى أحبها الله لمن كانوا خير أمة أخرجت للناس ، والإيمان الإسلامى : تعبير عن الحياة الإسلامية الخالصة المخلصة .

والإيمان فى وحدته التامة : شعب كثيرة :

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان » .

وحينما بيَّن سادتنا العلماء المحققون ، الذين أخلصوا لله ورسوله ، تلك الشعب ، عن طريق الأحاديث الشريفة التى وضحت الإيمان ، وعن طريق الآيات القرآنية الكريمة ، التى تحدثت عن الإيمان : قسموا تلك الشعب إلى ما يختص منها بالقلب ، وما يختص باللسان ، وما يختص بالبدن ، أى أن الإيمان يغمر الكيان الإنسانى كله : اعتقادا وقولا ، وفعلا .

ومن الأحاديث الشريفة : نتبين أن الحب فى الله والبغض فى الله : من الإيمان ، وأنه : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

وأن الذى يؤذى جاره : ليس بمؤمن .

وليس بمؤمن : من شبع وجاره جائع .

وأن الجهاد من الإيمان : يقول ، صلوات الله عليه وسلامه :

« انتدب الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بى ، وتصديق برسلى: أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة ، أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل » .

ومنها نتبين أيضا أن :

قيام ليلة القدر : من الإيمان .

والإنصاف من النفس : من الإيمان .

وبذل السلام للعالم : من الإيمان .

والإنفاق من الإقتار : من الإيمان .

وتطوع قيام رمضان : من الإيمان .

وصوم رمضان إيمانا واحتسابا : من الإيمان .

والصلاة : من الإيمان . بل لقد عبر الله تعالى ، عنها بالإيمان فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ (١) .

ويتغلغل الإيمان فى الحياة الاجتماعية حتى يصل إلى السهل من أمرها والميسور : فتكون إماطة الأذى عن الطريق : من الإيمان ، ويكون إفشاء السلام - تعارفا وتوددا - : من الإيمان .

وإذا ما تغلغل الإيمان فى النفس : وجد المؤمن حلاوة الإيمان ، وهو لا ينعم بحلاوة الإيمان إلا أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله .

وأن يكره أن يعود فى الكفر ، كما يكره أن يقذف فى النار (٢) .

● ● ●

لقد كان الفقه : بيانا للحياة الإسلامية حسبما رسمها الرسول ، ﷺ ، وكان يلبى حاجات المجتمعات فيما يتعلق بالأحكام الإسلامية كلما أحدثت المجتمعات جديدا من الأمر ، أو ابتدعت شأنا من الشئون .

لقد كان الصحابة يلجأون إلى الآيات القرآنية يستلهمونها الصواب ، وإلى الأحاديث النبوية يستمدون منها الرشد .

وما كان الفقه فى يوم من الأيام ، وما كانت هذه المواد التى تنظم الحياة ، آراء بشرية ، إنها ليست نتيجة منطق بشرى ، أو تفكير إنسانى ، يصدر عن الذات الإنسانية : فيختلف فيه الناس من فرد إلى فرد ، ومن بيئة إلى بيئة ، ومن زمن إلى آخر ، كما يختلفون ، بحسب ذلك ، فى كل ما هو نتاج بشرى .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) هذه كلها درر منثورة اقتبسناها من أحاديث الرسول ﷺ فى شعب الإيمان .

كـلا ، إن الفقـه الإسـلامى ، إنما هو مـيـراث النبـوة ، إنه شـرح للوحى ، أو بتعبيـر أدق : إنه ترجمـة للوحى ، واستنتاج من قواعده العامـة ، واتباع لسلوك الرسول ﷺ، باعتباره المسلم الأول : « وأنا أول المسلمين » .

أو باعتباره المطبق الدقيق لما أوحاه الله تعالى على قلبه رسالة إلى الإنسانية لهدايتها إلى الصراط المستقيم .

إن الفقـه الإسـلامى : اتبـاع ، وليس ابتـداعـا ، وإنه مـحـاولة جاهدة لكشف الآثار النبوية والتزامها ، وليس اختراعا يؤلفه بشر .

ولقد كان أئمتنا ، رضى الله عنهم : ينبهون بأقـوالهم ونزعـاتهم وسلوكهم ، إلى هذا الامر البدهى عند ذوى الشعور الدينى .

لقد كان شعار أئمتنا جميعا ، رضى الله عنهم :

إذا صح الحديث فهو مذهبى .

إنما أنا متبع لا مبتدع .

كل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذه الروضة الشريفة .

وصاحب هذه الروضة الشريفة : هو وحده الإمام . وكان الإمام لأنه الكائن الوحيد الذى اجتباه الله رسولا خاتما للرسل ، ونبيا خاتما للأنبياء .

وكل ما أتى به قرآنا كان ، أو حديثا قدسيا . أو حديثا نبويا شريفا ، إنما هو مقدس ، لأنه : ما ينطق عن الهوى ، ولأنه يدعو إلى الله على بصيرة ، ولأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن اتبعه فقد أحبه الله .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾(١)

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ (١٠٨) ﴾ (٢)

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ (٣١) ﴾ (٣)

كـان سلفنا الصالح ينزعـون هذه النزعة : نزعـة الخضوع المطلق لما جاء به الرسـول ، ﷺ ، لقـد كـانوا يسـجـدون للنص ، يسـجـدون له بجـوارحـهم وقلوبهم ،

---

(١) سورة النجم آية : ٣ - ٤ .

(٢) سورة يوسف آية : ١٠٨ .

(٣) سورة آل عمران : ٣١ .

وأرواحهم ، وعقولهم ، لقد كانوا يخضعون عقولهم للنص ، ويجعلونه القائد الحكم ، المهيمن .

وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيتهم فى النص ، إنما هو انحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخل البشرى فى النص ، وكانوا يعرفون أن الوحى جاء هاديا للعقل ، قائدا له فى الأمور التى لا يتأتى للعقل أن يلج ميادينها ، أو يقتحم حماها ، أو يدلى فيها برأى يتفق عليه الناس .

وهذه الميادين هى الدين . وما دام الدين ليس رأيا بشريا لأنه تنزيل من حكيم حميد :

فإن كل موقف من الشخصية البشرية ، تجاه النص الإلهى - سوى موقف السجود له - إنما هو موقف لتبديل الدين من أن يكون إلهيا إلى أن يكون بشريا .

ولو كان يستقيم الأمر على ذلك - أى على التبديل - لما كان هناك من حاجة إلى الدين .

يروى أبو داود والدارقطنى عن سيدنا على رضى الله عنه قال :

« لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخُف أولى بالمسح من أعلاه ، لقد رأيت رسول الله ﷺ ، يمسح على ظاهر خفيه » .

إن الدين ليس رأيا ، وليس بالرأى ، وانظر إلى الحديث التالى : إنه معبر أقوى ما يكون التعبير ، ودقيق فى مغزاه ، دقة بالغة :

عن البراء بن عازب ، رضى الله عنه ، قال : قال النبى ﷺ : « إذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت . فإن مت فى ليلتك : فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به » .

يقول البراء بن عازب :

فرددتها على النبى ﷺ ، (أى أخذت فى إعادتها عليه ﷺ) فلما بلغت : آمنت بكتابك الذى أنزلت ، قلت ، ورسولك . قال : لا ، ونبيك الذى أرسلت . رواه الستة .

وزاد البخارى والترمذى « فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة ، وإن أصبحت أصبت خيرا ».

إن الصحابى الجليل البراء بن عازب ، رضى الله عنه ، أبدل كلمة بكلمة نسيانا منه ، لقد قال « رسولك » بدل أن يقول « نبيك » . وكلمة « رسول » تتضمن معنى النبوة فهى إذن فيها المعنى وزيادة ، وبحسب منطقنا ، وبحسب عقلنا تكون صالحة ... ولكنها فى منطق الحق لم تكن صالحة .

إننا لا نرى بعقلنا ومنطقنا ، إلا الشكل والظاهر ، أما بواطن الأمور ، أما أسرار الكلمات ، أما حكمة الأوضاع المحددة ، أما اكتناه خفايا التقديرات الإلهية... إن كل ذلك إذا لم يكشف الله عنه أو عن بعضه فإننا لا نصل إليه بمنطق البشر .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (1) بمقدار محدد وتقدير معين .

واكتناه سر هذا القدر ، أو هذا التقدير اكتناها تاما ، لا يصل إليه الإنسان ، بل لا تصل إليه الملائكة .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) ﴾ (2) .

إن العلم الصحيح الصادق فى عالم الهداية الإلهية ، والتربية الربانية ، إنما هو من الله سبحانه ، وكل ابتعاد عنه ، أو خروج عليه ، أو تغيير فيه ، إنما هو ضلال .

● ● ●

---

(1) القمر : 49 .　　　(2) البقرة : 31 ، 32 .

وما من شك فى أن الإنسان منذ أن وجد على ظهر الأرض : يحاول أن ينزع نزعة بشرية بحتة ، ويتصرف فى الوحى الإلهى نقصا وزيادة ، وبترا وإضافة ، وتغييرا وتبديلا ، يحاول أن يقيم كل ذلك على قواعد يزعمها صحيحة .

فيقول مثلا : إن الحكمة فى تحريم شرب الخمر إنما هى المفاسد التى تنشأ من الشخص الشارب ، فإذا ما انتفت تلك المفاسد ، فلا مانع من شرب الخمر .

ويقول : إن التكاليف الدينية إنما جاءت لإصلاح الضمير فإذا كان الضمير صالحا فلا لزوم للتكاليف الدينية .

ويقول : إن أعمال العبادة ، إنما هدفها التقرب إلى الله ، فإذا حصل القرب فلا حاجة إليها .

وهكذا يخرج الإنسان بأهوائه - ولا نقول بعقله : لأن كل ذلك أهواء يصورها الشيطان كأنها منطق معقول - عن الدين ، كما خرج إبليس قديما بأهوائه - التى تمثلت لذهنه منطقا - عن الدين .

والإمام الغزالى ، رضى الله عنه ، يمثل لنا ذلك بمثال معبر ، فيذكر قصة رجل بنى له أبوه قصرا على رأس جبل ، ووضع فيه شجرا من حشيش طيب الرائحة ، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، أن لا يخلى هذا القصر من هذا الحشيش طول عمره ، وقال :

إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار ، إلا وهذا الحشيش فيه .

فزرع الولد حول القصر أنواعا من الرياحين ، وطلب من البر والبحر أوتادا من العود والعنبر والمسك ، وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

فقال : لا شك أن والدى ما أوصانى بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته، والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيّق على المكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ، ظهر من بعض ثقوب القصر حية هائلة ، وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك ، فتنبه حيث لم ينفعه التنبه ، إلى أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان : أحدهما : انتفاع الولد برائحته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثانى : اندفاع الحيات المهلكات برائحته ، وذلك مما قصرت عن دركه بصيرة الولد ، فاغتر الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لا سر وراء معلومه ، ومعقوله ، كما قال تعالى :

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [1] .

وكما قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ... ﴾ [2] .

والمغرور من اغتر بعقله ، فظن أن ما هو منتف عن علمه ، فهو منتف فى نفسه .

وما من شك - كما يروى [3] كتاب : إحصاء العلوم - فى أن آراء الملل وكل ما فيها من الأوضاع : ليس سبيلها أن يمتحن بالآراء والروية والعقول الإنسية ، لأنها أرفع رتبة منها ، إذ كانت مأخوذة عن وحى إلهى ، لأن فيها أسرارا إلهية تضعف عن إدراكها العقول الإنسية ولا تبلغها .

وأيضا : فإن الإنسان إنما سبيله : أن تفيده الملل بالوحى ما شأنه ألا يدركه بعقله ، وما يخور عقله عنه ، وإلا فلا معنى للوحى ولا فائدة إذا كان إنما يفيد الإنسان ما يعلمه وما يمكن - إذا تأمله - أن يدركه بعقله .

ولو كان كذلك لوُكِل الناس إلى عقولهم ، ولما كانت بهم حاجة إلى نبوة ولا إلى وحى ، لكن لم يفعل بهم ذلك ، فلذلك ينبغى أن يكون ما تفيده الملل من العلوم، ما ليس فى طاقة عقولنا إدراكه ، ثم ليس هذا فقط ، بل وما تستنكره عقولنا [4] أيضا .

---

(1) النجم : ٣٠ . (٢) غافر : ٨٢ .

(٣) مبينا وجهة نظر بعض المتأملين فى مسائل الدين .

(٤) أى ما يخيل إلىَ بعض العقول أنه غير صادق .

وذلك أن التى يأتى بها الملك - مما تستنكره العقول وتستبشعه الأوهام - ليست هى بالحقيقة منكرة ولا محالة .

« إن كثيرا من الصبيان والأغمار ، يستنكرون بعقولهم أشياء كثيرة مما ليست فى الحقيقة منكرة ولا غير ممكنة ، ويقع لهؤلاء : أنها غير ممكنة ، وهى ليست كذلك .

وكما أن الإنسان - من قبل أن يتأدب ويتحنك - يستنكر أشياء كثيرة ويستبشعها . ويخيل إليه فيها : أنها محالة ، فإذا تأدب بالعلوم واحتنك بالتجارب: زالت عنه تلك الظنون فيها ، وانقلبت الأشياء التى كانت عنده محالة : فصارت هى الواجبة، وصار عنده ما كان يتعجب منه قديما : فى حد ما يتعجب من ضده.

كذلك الإنسان الكامل الإنسانية : لا يمتنع من أن يكون يستنكر أشياء . ويخيل إليه : أنها غير ممكنة ، من غير أن تكون فى الحقيقة كذلك [١] .

ويشرح الشيخ الجليل أبو سليمان المنطقى ، كل ذلك فى دقة دقيقة ، وفى أسلوب جميل ، فيقول :

إن الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل ، بوساطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحى ، وباب المناجاة ، وشهادة الآيات ، وظهور المعجزات ، وفى أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه ، والغوص فيه ، ولابد من التسليم المدعو إليه والمنبه عليه وهناك تسقط (لِمَ) ؟ .

ويبطل : « كيف ؟ » .

ويزول « هلا ؟ » .

وتذهب : « لو ، وليت » فى الريح .

ولو كان العقل يكتفى به : لم يكن للوحى فائدة ولا غناء .

على أن منازل الناس : متفاوتة فى العقل ، وأنصباءهم مختلفة فيه ، فلو كنا نستغنى عن الوحى بالعقل : كيف كنا نصنع ، وليس العقل بأسره لواحد منا ؟ فإنما هو لجميع الناس ...

---

(١) انظر كتاب إحصاء العلوم للفارابى الذى نقلنا عنه ذلك باختصار وتصرف .

ولو استقل إنسان واحد بعقله فى جميع حالاته ، فى دينه ودنياه ، لاستقل أيضا بقوته فى جميع حاجاته : فى دينه ودنياه ، ولكان وحده يفى بجميع الصناعات والمعارف ، وكان لا يحتاج إلى أحد من نوعه وجنسه ، وهذا قول مرذول، ورأى مخذول » .

يقول هذا الشيخ الجليل : إن منازل الناس متفاوتة فى العقل ، وأنصباءهم مختلفة فيه ، ومعنى ذلك أن هذا الذى يروق لشخص عقليا ، ربما لا يروق لغيره عقليا ، ويجب من أجل ذلك ألا يتدخل العقل فى الدين وإلا لاختلف الناس فيه باختلاف عقولهم ، وادعى كل ، أن ما عليه إنما هو الحق ، وما على غيره هو الباطل ، ونتج عن ذلك اتباع كل أهواءه :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاه ﴾ (١) .

فتتفرق الأمة وتخرج على ما أحبه الله وأمر به :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (٢) .

● ● ●

وإذا تساءلت الآن ، ما هو إذن موقف العقل من الدين ، وموقف الدين من العقل ؟

فإننا نجمل الموضوع فى النقط الآتية :

أنزل الدين هاديا للعقل فى جميع الأمور التى لو ترك العقل وشأنه فيها ضل السبيل ، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة ، وهذه الأمور هى :

(أ) العقائد فى ما وراء الطبيعة .

(ب) المبادئ الأخلاقية إجمالا وتفصيلا .

(ج) التشريع : فى قواعده العامة ، وفى بعض تفصيلاته . وقواعده العامة ، تتضمن الجزئيات على مر الزمن ، وعلى اختلاف البيئات .

---

(١) الفرقان : ٤٣ . (٢) آل عمران : ١٠٣ .

ونزل الدين ليقود الإنسان نحو الكمال الروحى ، والإنسان إنسان بالجانب الروحى منه ، وكلما سما الإنسان روحيا كان أسمى فى معنى الإنسانية :

والمعنى الروحى ، ووسيلة المعنى الروحى ، لا سبيل إلى تحديدهما من الإنسان نفسه ، وإنما تحديدهما مرده إلى الله سبحانه والقرب من الله ، أو بتعبير أدق ، تقريب الله للإنسان ، إنما مرجعه - هدفا ووسيلة - : هو الله نفسه ، وكل من حاول أن يتخذ طريقا آخر فإنما يجرى وراء سراب .

والغاية والوسيلة حددهما الله فى كتابه الكريم ، إنه حددهما ، بالأسلوب الإلهى نفسه ، أى أن التعبير عنهما - التعبير نفسه - إنما كان من الله ، سبحانه ، ومن فضل الله على المسلمين ، وعلى اللغة العربية ، أن كانت وسيلة فهم الإسلام ، هى التعبير الإلهى ، التعبير الإلهى بما فيه من دقة كاملة ، وجمال معجز ، وكمال غير منقوص .

وما دام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع ، أو بتعبير أدق : السجود .

وهو ليس سجودا تعسفيا أو تحكميا ، وإنما هو سجود مصدره الإيمان اليقينى بأن هذا من عند الله، وما دام من عند الله ، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، ولأنه أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

من ذلك نتبين أن الدين هاد للعقل ، وأن العقل يجب أن يخضع ويسجد للوحى الإلهى .

● ● ●

بيد أن ذلك يسلمنا إلى سؤال آخر أو مشكلة أخرى : هى أن القرآن يطالب دائما بالتفكير والتدبر .

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (١) .

---

(١) الحشر : ٢ .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

وينعى على المشركين التقليد ، ويتهكم بهم فى اتباعهم آباءهم فيتساءل :

﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

وكثيرا ما تجد الآيات تختم بـ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ ﴿ أفلا تبصرون ﴾ . وكل ذلك يدل على أن القرآن ، يدفع الناس إلى استعمال العقل .

والواقع الذى لا شك فيه ، هو أن القرآن لا يستشير الملائكة ، ولا بنى الإنسان فى أية قضية من القضايا التى جاء بها الوحى ، ولا يحتكم إلى الإنسان باعتباره حكما ، فى أى مبدأ من مبادئه ، ولا يطلب منه مشورة فى أية قاعدة من القواعد التى شرعها ، بل هذه الأوهام لا تدور بخلد المتدين قط . ذلك أن الوحى : نزل على أنه رسالة السماء النهائية إلى العالم ، ونزل يبلغ أن هذه الرسالة صدق كلها ، حق جميعها ، ليس فيها جملة زائدة ، ولا كلمة ليست فى موضعها ، ولا حرف كان يحسن ألا يوجد ، كلا إنها الحق الخالص ، من اتبعها ، فقد اهتدى ، ومن حاد عنها انحرف ، ومن ابتغى الهدى فى غيرها أضله الله ، ومن تركها من جبار قصمه الله ؛ لأنها صراط الله المستقيم ، ونوره اللألاء .

وكل ما ذكره تعالى من التفكير والنظر والتدبر : إنما أراد به الاعتبار ، وأراد أن يقول : تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق ، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير ، أما اذا رأيتم غير ذلك ، فإنما العيب فى بصركم ، أو فى بصيرتكم ،أو فيهما معا ، إذا رأيتم غير ذلك ، فاعلموا أن فطرتكم فسدت، وأن قلوبكم ران عليها الإثم : فضلت، وأن عقولكم قد صدأت ، فأصبحت لا ترى الحق حقا ، ولا الخير خيرا ، وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شرا ، والشر خيرا ، وأصبح أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم ، صراط الله .

إن الله ، فى عظمته وجلاله ، سبحانه : لا يلقى برسالته ليبحثها الإنسان ، ويبدى فيها رأيه ، نفيا وإثباتا ، سلبا وإيجابا ، كلا ، بل كل من توهم ذلك فإنه لا

---

(١) ق : ٣٧ .　　(٢) البقرة : ١٧٠ .

يقدر الله حق قدره ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وإنما ألقاها سبحانه لتتبع ، ولتتبع فى خضوع وسجود، ولتتبع دون حرج يحيك فى الصدر ، أو شك يجول فى النفس :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (1) .

وكل من وجد فى نفسه حرجا من قضايا الدين ، وكل من لم يسلم تسليما كاملا مطلقا تاما ، كل من كان كذلك : فإنه يحسن به أن يرجع إلى إيمانه ليصححه ، وليتوب إلى الله توبة نصوحا ، وباب الله مفتوح للتائبين آناء الليل وأطراف النهار ، وفى كل نفَس ، وفى كل لحظة . يقول أبو عمرو محمد بن ابراهيم الزجاجى النيسابورى :

« كان الناس فى الجاهلية يتبعون ما تستحسنه عقولهم وطبائعهم فجاء النبى ﷺ فردهم إلى الشريعة والاتباع ، فالعقل الصحيح ، هو الذى يستحسن محاسن الشريعة ، ويستقبح ما تستقبحه » .

● ● ●

ومسألة أخرى : هى مسألة تعليل الأحكام ، وأن الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما . وهى مسألة ترتبط بما قدمنا ارتباطا وثيقا ، ذلك أن التعليل ذو صلة وثيقة – عادة – بالمنهج العقلى فى فهم الدين ، وهذه المسألة لابد فيها من شىء من التفصيل.

أولاً : إذا كان الشارع سبحانه ، قد حدد العلة وحصرها ، فإن لنا أن نقول : إنها الحكمة من القاعدة التى شرعت ، وما دام الشارع هو الذى حددها وحصرها فإن الحكم يدور معها وجودا وعدما .

ثانيا : إذا كان الشارع قد ذكر علة دون أن يذكر حصرا ، فإنه ليس لنا أن نقوم نحن بالتحديد والحصر . وإنما موقف المسلم هو أن يؤمن بالحكمة التى ذكرها الشارع ، مع إيمانه بأنه يجوز أن تكون هناك حكمة أخرى .

---

(1) النساء : ٦٥ .

ثالثا : إذا لم يذكر الشارع حكمة للحكم ، فإن لنا أن نلتمس ، إذا شئنا ، حكمة ، ولكن يجب علينا ألأ نزعم أنها الحكمة الحقيقية التى أرادها الشارع ، ويجب علينا ألا نزعم أنها الحكمة الوحيدة .

وكل ذلك من أجل أن العقل البشرى لا يحيط بالأسرار الإلهية ، وأن حكمة الشارع فى أحكامه أسمى من أن يحيط بها البشر إحاطة تامة .

ولست أدرى لماذا يخطئ بعض الناس فهم كلامى فى هذا الموضوع مع وضوحه ، فيما أعتقد ، وضوحا تاما .

لست أدرى لماذا يدّعون علىَّ أنى ألغى العقل . ولا أنسجم مع المنطق . وأريد من أجل ذلك أن تكون فرصة مواتية لأوضح ما أومن به ، إيمانا تاما ، بعد بحث وتجربة وتمحيص .

إن التاريخ والواقع والتجربة يدل على أن العقل أنتج فى عالم الطبيعة حضارات متتالية، وأن الحضارة الحديثة ، فى جانبها المادى إنما قامت على العقل، فالعقل هو الذى وصل بفروضه وتجاريه إلى ما بلغته الحضارة الحديثة ، باختراعاتها وإنشاءاتها ، وما فيها من كبريات الاختراعات وصغارها .

وليس هذا بالشىء اليسير ، ونجاح العقل فيه لا ينكره منكر .

وإن التاريخ والواقع والتجربة يدل على أن العقل أخفق كل الإخفاق فى مجال المغيبات ، والدليل السافر على ذلك تعدد المذاهب ، وعدم الانتهاء فى أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة إلى الاتفاق ، وعدم الوصول فى أية مسألة منها إلى حل ، وكذلك كان أمره ولا يزال فى الأخلاق وفى التشريع . وهذه المذاهب المتصارعة فى ميادين : الأخلاق والتشريع وما وراء الطبيعة ، خير دليل على فشل العقل فى الوصول إلى الحق فيها .

ولقد ترك الدين للعقل المجال فى محيط الكون المادى .

إن الطبيعة والكون : من سمائه ، وأرضه ، ومن جباله وبحاره ، ومن كواكبه وأقماره وشموسه .

إن المادة والطاقة ، إن أعماق البحار وآفاق السماء .

إن كل ذلك قد تركه الله سبحانه للإنسان يدرسه فى مصنعه ومعمله بآلاته وأدواته . وحثه على أن يجول فى ذلك ما استطاع إليه سبيلا : حتى يكتشف سنن الله الكونية ، ونواميسه الطبيعية ، ويرى صنع الله الذى أتقن كل شىء . ولم يقيد الدين الإنسان فى هذا المجال ، اللهم إلا بالواجب الذى ينبغى أن يكون شعاره دائما، وهو أن يكون هدفه من كل ذلك الخير ...

أما ما وراء الطبيعة والأخلاق والتشريع فقد أنزل الدين من أجلها ، ومن أجل بيانها كاملة لا تحتاج إلا إلى فهمها وتدبرها والسير على نسقها .

وقد يتساءل متسائل :

أليس للعقل من مجال إذًا فى الدين ؟

ونجيب على هذا السؤال بأن للعقل مجالا كبيرًا فى الدين .

وأول هذه المجالات وأهمها هو : إثبات النبوة .

ومتى ثبتت النبوة فإنه يجب أن يتلقى الإنسان كل ما أتت به عن طريق القبول .

والبدهيات التى تأتى بعد إثبات النبوة هى :

١ - الدين هادٍ للعقل فى المجال الدينى ، مجال الخير والشر ، الهداية والضلال ، مجال الحق الإلهى ، والباطل الشيطانى .

٢ - العقل متفهم للدين مهتدٍ بهديه .

٣ - الدين لا يناقض العقل لأنه حق ، فإذا رأى العقل ما يخالف الدين فهو عقل منحرف .

٤ - الدين رسالة إلهية ، وثمار العقل نتاج بشرى ، ولا يتأتى لمؤمن أن يضع النتاج البشرى فى مستوى الرسالة الإلهية .

٥ - ويقول الله تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [١] .

وأظن أن ما ذكرته هنا لا يمكن أن يمارى فيه مؤمن .

● ● ●

وننتهى بكلمة عن الكتاب نفسه ، لقد حاولت أن أجمع فيه بين ناحيتين :

١ - الناحية الفقهية التى تتصل بالأحكام .

٢ - ناحية الأسرار والحكم .

واعتمدت أولا وبالذات على الأحاديث النبوية الشريفة . وتعمدت أن أدع الأحاديث نفسها ، منسقة مبوبة ، هى التى تتكلم بطابعها هذا النورانى وبسمتها النبوى الشريف ، وتعمد ذلك لأسباب منها :

١ - أن كتب الفقه المتأخرة - على خلاف كتب السلف - إذا تصفحتها لا تكاد تجد حديثا يذكر ، وإنما تجد كلام المؤلف نفسه ، متابعا ومقلدا لآخر على شاكلته، فأردت أن أعود إلى طريقة السلف لأنها أهدى سبيلا .

٢ - والأحاديث النبوية جميلة الأسلوب . سهلة الفهم ، عليها نور صاحب الروضة الشريفة ، ﷺ ، ولذلك يؤمن بها الأمى ، ويقتنع بها المثقف ، بل إن المثقف يرضى بهذا النمط من الكتابة أكثر مما يرضى بغيره ، وذلك لأنه يعلم مصدر الحكم من الحديث ، ويتابع الرسول ، ﷺ ، رأسا ، وفى ذلك إرضاء لكرامته ، باعتباره مثقفا .

أما الكتب التى اعتمدت عليها ، فإنها محدودة العدد ، بيد أنها من الكتب الأمهات ، وما كان الكتاب قط يحتاج إلى أكثر منها ، وإنها لتصلح لأن تكون مرجعا لكتاب أطول وأوسع . وهى :

١ - القرآن الكريم .

٢ - صحيح البخارى : أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل .

---

(١) النساء آية ٦٥ .

٣ - صحيح مسلم .

٤ - نيل الأوطار : للإمام الشوكانى ، وهو كتاب فى غاية النفاسة فى بابه .

٥ - رياض الصالحين : وهو كتاب يحسن بكل مسلم أن يقتنيه ؛ لأنه كله نفائس من روائع النبوة فى الهدى الإسلامى .

٦ - كتاب الترغيب والترهيب ، وهو كتاب مبارك « عليه نور ، وفيه روعة ».

٧ - كتاب إحياء علوم الدين : الذى يقول عنه الإمام النووى « كاد الإحياء يكون قرآنا » .

٨ - سيرة ابن هشام .

لقد نقلت مئات الجذاذات ، وأدخلت منها فى الكتاب ما احتجت إليه ، وجزى الله مؤلفيها عن الإسلام وعن الرسول ﷺ ، خير الجزاء ، وشكر الله لهم صنيعهم .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الفصل الأول

على مشارف العبادة
الإخلاص والتوبة

الإخلاص فى العبادة وجميع أعمال الخير :

يقول رسول الله ﷺ - فيما رواه الشيخان :-

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه ».

ويقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[١] .

وقال الله تعالى لرسوله الكريم :

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) ﴾[٢] .

لابد من الإخلاص فى العبادة ، ولن يتقبل الله سبحانه من العبادة إلا ما كان لوجهه سبحانه ، وإذا ما وقف الإنسان أمام الله فى الصلاة ، أو أدى نوعا من العبادة ، فإن طابعه العام وشعوره الذاتى يجب أن يكون :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٣] .

ولقد أحب الله سبحانه من كل منا أن يتأسى برسول الله ﷺ :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٤] .

ولقد كان رسول الله ﷺ ، منارة يتمثل فيها - كاملا - الشعار الإسلامى الخاص بصلة الإنسان بربه وهو :

---

(١) الزمر : ٢ - ٣ .
(٢) الزمر : ١١ .
(٣) الأنعام : ٧٩ .
(٤) الأحزاب : ٢١ .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [١] .

وعن أنس بن مالك ، فيما رواه ابن ماجه والحاكم ، أن رسول الله ﷺ قال : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض » [٢] .

وعن معاذ بن جبل أنه قال - حين بعث إلى اليمن - : يا رسول الله، أوصنى، قال ﷺ :

« أخلص دينك يكفك العمل القليل » [٣] .

ولقد سئل رسول الله ، ﷺ - فيما رواه البيهقى - عن الإيمان فقال : «الإخلاص» .

ويروى الإمام مسلم رضى الله عنه ، عن أبى هريرة ، رضوان الله عليه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » .

أما إذا انحرف الإنسان عن الإخلاص ، فإن رسول الله ، ﷺ يقول فيما يرويه عن ربه ، إن الله تبارك وتعالى يقول :

« أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكى » .

يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ، ولا تقولوا : هذه لله وللرحم ، فإنها للرحم وليس لله منها شىء .

ولا تقولوا: هذه لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شىء » هـ[٤].

أما الحديث الذى يهز شعور المرائين هزة عنيفة ، فهو قوله ﷺ - فيما رواه الإمام مسلم - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

---

(١) الأنعام : ١٦٢ .

(٢) قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين .

(٣) قال الحاكم : صحيح الإسناد .

(٤) رواه البزار بإسناد لا بأس به . رواه البيهقى .

سمعت رسول الله ، ﷺ يقول :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمته فعرفها قال فما عملت فيها » ؟.

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جرىء ، فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟

قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟

قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك .

قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » .

وبعد :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ (١).

صورة إخلاص الدين لله :

يشرح أبو سعيد الخراز رضى الله عنه أساس الإخلاص الذى لابد منه ، أعنى الإيمان ، فيقول : فالفرض الواجب ، أن تؤمن بالله ، وتعلم وتقر وتشهد ، أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنه : الأول ، والآخر ، والظاهر والباطن ، والخالق ، والبارىء - والمصور ، والرزاق ، والمحيى، والمميت ، الذى إليه ترجع

---

(١) الكهف : ١١٠ .

الأمور ، وأن محمدا : عبده ورسوله ، جاء بالحق من عند الحق ، وأن النبيين حق وبالحق أدوا الرسالة ، وبالغوا [1] فى النصيحة ، وأن الجنة حق ، والبعث حق ، المرد إلى الله تعالى ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء .

ويكون ذلك عقدك [2] ظاهرا على لسانك ، بلا شك ولا ريب ، ساكنا [3] قلبك مطمئنا إلى ما صدقت به وأقررت .

وكذلك لا يعارضك - فى كل ما جاء من عند الله على لسان نبيه ﷺ - شك فى كل ما ذكره عن ربه ، عز وجل ، غير مخالف لما كان عليه النبى ، ﷺ [4] وأصحابه ، وأئمة الهدى ، الذين كانوا قدوة لمن جاء بعدهم من أهل الهداية ، ثم التابعين من بعدهم ، ثم علماء كل عصر ، متبعا للجماعة ، مخلصا فى ذلك لله وحده ، لا تريد إلا الله تعالى ، ليتم إسلامك وإيمانك ، وتوحيدك [5] .

ثم يذكر أبو سعيد رحمه الله الآية القرآنية الكريمة :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ [6]

ثم يقول :

فمن شرح ذلك ، أن يكون العبد يريد الله ، عز وجل ، بجميع أعماله وأفعاله، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها ، لا يريد بها إلا الله وحده ، قائما بعقله وعلمه على نفسه وقلبه راعيا لهمه ، قاصدا إلى الله ، تعالى ، بجميع أمره ، لا يحب مدح أحد ولا ثناءه ، ولا يفرح بعمله - إذا اطلع عليه المخلوقون - فإن عارضه [7] من ذلك شيء اتقاه [8] بالسرعة والكراهية ، ولم يسكن [9] إليه ، لكن إذا أثنى عليه أحد ، حمد الله على ستره عليه [10] حين وفقه لخير رآه العباد عليه .

---

(١) ترقوا فيها إلى أعلى نهاياتها .

(٢) اعتقادك .

(٣) ذهب ما به من شك .

(٤) وذلك قوله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ .

(٥) كتاب الصدق ص ١٧ .

(٦) سورة الكهف ١١٠ .

(٧) ظهر له .

(٨) حفظ نفسه منه .

(٩) يركن ويطمئن .

(١٠) ستره عليه : رعاية له بإظهار خيره وإخفاء شره .

نعم ، ثم يخاف عند ذلك ، من عمله الردىء ، وسريرته القبيحة ، التى خفيت على الناس ولم تخف على الله ، فأشفق من ذلك ، وخاف أن تكون سريرته أقبح من علانيته .

فهكذا يروى فى الحديث :

« السريرة إذا كانت أقبح من العلانية فذلك الجور ، فإذا استوت السريرة والعلانية فذلك العدل ، وإذا فضلت السريرة على العلانية فذلك الفضل » [(١)] .

ويزيد أبو سعيد ، رضى الله عنه ، الأمر إيضاحا فيقول :

مما يمكن أن يذكر : أن يكون العبد لا يرجو إلا الله ، ولا يخاف إلا الله ، ولا يتزين إلا لله ، ولا يأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يبالى ، إذا وافق الأمر الذى فيه محبة الله ورضاه ، من سخطه .

وما بقى من ذكر غاية الإخلاص أكثر ، وفى هذا بلاغ للمريدين السالكين للطريق » [(٢)] اهـ .

لابد إذن من الإيمان ، ولابد من الإخلاص فى الإيمان .

طريق الإخلاص فى الإيمان :

وأول لبنة فى صرح الإخلاص ، وأول شجرة تغرس فى روضته ، إنما هى التوبة .

التوبة الخالصة النصوح .

وللتوبة شروط : يشرحها الإمام النووى فى كتابه « رياض الصالحين » فيقول :

قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب .

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط .

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثانى : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم على ألا يعود إليها أبدا .

---

(١) كتاب الصدق لأبى سعيد الخراز : ١٨ ، ١٩ .

(٢) المصدر السابق صفحة ٢٠ .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة ، هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كان حد قذف ونحوه مكّنه منه ، أو طلب عفوه ، وإن كان غيبة استحلّه منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب .

فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة [1] ا هـ.

أما ونحن بصدد الإخلاص فإن النوع الذى نتطلع إليه ، إنما هو التوبة العامة الشاملة .

ولقد حثنا الله سبحانه وتعالى ورسوله على التوبة فى صور جميلة رقيقة فضلا عن إيجابها .

يقول الله تعالى فى حديث قدسى :

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم » .

ويروى الإمام مسلم بسنده أن رسول الله ﷺ قال :

« الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم ، كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك ، إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

ويروى الإمام مسلم بسنده عن أبى موسى الأشعرى ، عن النبى ﷺ قال :

« إن الله تعالى ، يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » .

ولقد أوجب الله سبحانه وتعالى التوبة إيجابا فقال :

---

(١) رياض الصالحين باب التوبة .

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [1]

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴿٨﴾ ﴾ [2] .

بجوار ذلك يقول الله تعالى مرجيا وباعثا للآمال فى رحمته :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

ثم يرسم الله مباشرة سبيل ذلك فى صورة لها رهبة ولها جلال فيقول :

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

ثم يختم هذه الآيات مبينا عاقبة المتقين قائلاً :

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [3]

ونرسم الآن صورة للتوبة النصوح ، أو للإخلاص فى التوبة وهى صورة رائعة حقا تدل فى وضوح على الإيمان العميق واليقين التام ، وهى مع ذلك تحليل شائق - لا نكاد نجد له مثيلا - للحالة النفسية عند التائبين المخلصين ، وتحليل شائق أيضا للحالة النفسية لفرحهم ، عند قبول توبتهم .

وقد روى هذه الصورة للتوبة الإمامان الجليلان : **البخارى ومسلم** ، رضى الله عنهما :

---

(١) النور آية : ٣١ .

(٢) التحريم آية : ٨ .

(٣) الآيات من سورة الزمر من : ٥٣ - ٦١ .

عن عبد الله بن كعب بن مالك . وكان قائد كعب رضى الله عنه ، من بنيه حين عمي قال :

سمعت كعب بن مالك رضى الله عنه ، يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله ، ﷺ ، فى غزوة تبوك .

قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ، ﷺ ، فى غزوة غزاها قط ، إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنه ، إنما خرج رسول الله ، ﷺ ، والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ، ﷺ ، ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكرَ فى الناس منها .

وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ، ﷺ ، فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه ، فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ، ﷺ ، يريد غزوة إلا ورًى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ، ﷺ ، فى حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا ، واستقبل عددا كثيرا ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجههم الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ، كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان - قال كعب : فقلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحى من الله ، وغزا رسول الله ، ﷺ ، تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصغر ، فتجهز رسول الله ، ﷺ ، والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معه فأرجع ، ولم أقض شيئا وأقول فى نفسى أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ، ﷺ ، غاديا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتنى فعلت، ثم لم يقدر ذلك لى .

فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ، ﷺ ، يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء ولم يذكرنى رسول اله ، ﷺ ، حتى بلغ تبوك .

فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟

فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه .

فقال له معاذ بن جبل ، رضى الله عنه : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله ، ﷺ ، فبينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب .

فقال رسول الله ، ﷺ : كن أبا خيثمة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى ، وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون .

قال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله ، ﷺ ، قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بم أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى .

فلما قيل أن رسول الله ، ﷺ ، قد أظل قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لم أنج منه بشىء أبدا ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله ، ﷺ قادما ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعا وثمانين رجلا ، فقبل منهم علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت، فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ، ثم قال : تعال ، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟.

قال : قلت : يا رسول الله ، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكننى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ، ترضى به عنى ليوشكن الله يسخطك على ، وإن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إنى لأرجو فيه عقبى الله عز وجل .

والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ، ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

قال : فقال رسول الله ، ﷺ :

أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك .

وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى ، فقالوا لى ، والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا . لقد عجزت فى ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ، ﷺ ، بما اعتذر به المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك ، استغفار رسول الله ، ﷺ ، لك ؟

قال : فو الله مازالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ، ﷺ ، فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم :

هل لقى هذا معى من أحد ؟

قالوا : نعمْ لقيه معك رجلان ، قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك.

قال قلت : من هما ؟

قالوا : مرارة بن ربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى .

قال : فذكروا لى رجلين صالحين ، قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، قال : فمضيت حين ذكروهما لى ، ونهى رسول الله ، ﷺ ، عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين من تخلف عنه .

قال : فاجتنبنا الناس، أو قال : تغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض، فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان .

وأما أنا فكنت أشب القوم ، وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق ، ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ، ثم أصلى قريبا منه ، وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىَّ ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام .

فقلت له : يا أبا قتادة ، أنشدك الله ، هل تعلمنى أحب الله ورسوله ﷺ ؟

فسكت ، فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته .

فقال : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار فبينما أنا أمشى فى سوق المدينة ، إذا نبطى من نبط الشام ممن قدم بالطعام، يبيعه بالمدينة، يقول : من يدل على كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له إلىَّ ، حتى جاءنى ، فدفع إلى كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه .

(أما بعد) فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك ، فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها حتى إذا مضت أربعون من الخمسين ، واستلبث الوحى ، إذا رسول رسول الله ، ﷺ ، يأتينى .

فقال إن رسول الله ، ﷺ ، يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟

فقال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربنها . وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك .

فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله من هذا الأمر، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ، ﷺ ، فقالت له : يا رسول الله : إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟

قال : ولكن لا يقربنك .

فقالت : إنه والله ما به من حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره، ما كان إلى يومه هذا ، فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله، ﷺ، فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه .

فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله ، ﷺ ، وما يدرينى ماذا يقول رسول الله، ﷺ ، إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ، فلبثت بذلك عشر ليال : فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا قد ضاقت على نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على سَلْعٍ يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجدا ، وعرفت أنه قد جاء فرج ، فأذن رسول الله ، ﷺ ، الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قبل صاحبى مبشرون ، وركض إلى رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم قبلى ، وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىَّ فكسوتهما إياه ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمم رسول الله ، ﷺ ، يتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئوننى بالتوبة ، ويقولون لى : لتهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ، ﷺ ،

جالس حوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ، فكان كعب لا ينساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ، ﷺ ، قال وهو يبرق وجهه من السرور .

أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك .

فقلت : أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟

قال : لا بل من عند الله عز وجل .

وكان رسول الله ، ﷺ ، إذا سر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت :

يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله ، ورسوله ؟

فقال رسول الله ، ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك .

فقلت : إنى أمسك سهمى الذى بخيبر، وقلت : يا رسول الله ، إن الله تعالى إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتى الا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله تعالى فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ، ﷺ إلى يومى هذا . وإنى لأرجو أن يحفظنى الله تعالى فيما بقى ، قال فأنزل الله تعالى :

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) .

قال كعب : والله ما أنعم الله علىَّ من نعمة قط بعد إذ هدانى الله للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ، ﷺ ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما أهلك الذين كذبوا ، إن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد فقال الله تعالى :

---

(١) التوبة : ١١٧ - ١١٩ .

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ (١) .

قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه بذلك قال الله تعالى :

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ .

وليس الذى ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه ، « متفق عليه » .

(وفى رواية) أن النبى ، ﷺ ، خرج فى غزوة تبوك يوم الخميس ، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس .

وفى رواية ، وكان لا يقدم من سفر إلا نهارا فى الضحى ، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه .

الاستغفار والتوبة :

ومن عناصر التوبة الاستغفار :

يروى علقمة ويروى الأسود عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهم ، أنه قال : فى كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنب عبد ذنبا فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) ﴾ (٢) .

وقوله عز وجل :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٣) .

---

(١) التوبة : ٩٥ - ٩٦ .

(٢) آل عمران : ١٣٥ .

(٣) سورة النساء : ١١٠ وانظر كتاب إحياء علوم الدين .

ولقد قال ﷺ فى شأن الاستغفار الخالص .

« من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

وهذا الحديث الشريف يسير فى انسجام مع قوله تعالى :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ (١) .

وقوله تعالى على لسان نبى الله هود :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾ (٢) .

والاستغفار مستحب فى كل الأوقات ، وإن لم يكن ذنب. يقول الله تعالى فى إطلاق لا تحديد فيه :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ (٣) .

ومع هذا الإطلاق العام فإن الله سبحانه وتعالى ذكر (الأسحار) باعتبارها من الأوقات التى يستغفر فيها المتقون ، ومن أجل ذلك فإن الذين يستيقظون فى ثلث الليل الأخير حريصين على انتهاز فرصة نزول ربنا إلى سماء الدنيا مناديا : ألا هل من مستغفر فأغفر له ، ألا هل من تائب فأتوب عليه ، ألا هل من سائل فأعطيه ..

يخصصون دائما أوقات الأسحار للاستغفار مع استغفارهم كلما تفضل الله عليهم بتهيئة الفرصة لاستغفاره ، يقول تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) ﴾ (٤) .

---

(١) نوح : ١٠ - ١٢ . (٢) هود : ٥٢ . (٣) النصر : ٣ .

(٤) آل عمران : ١٤ - ١٧ وقد ذكرنا - متعمدين - الآيات من أول «زين للناس» لتصوير الجو الروحى كاملا .

وكان رسول الله ، ﷺ ، يقول فى استغفاره فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة ، رضى الله عنه .

« اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى.

اللهم اغفر لى هزلى وجدى وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى . اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت على كل شىء قدير » .

ومن دعاء رسول الله ، ﷺ الجميل :

« اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساؤوا استغفروا »

وسيد الاستغفار هو ، كما أخبر الصادق المصدق صلوات الله وسلامه عليه :

« اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى : فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

ويروى الإمام الغزالى عن بعض العلماء أنه قال :

العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الاستغفار والحمد .

ويروى عن قتادة رحمه الله قوله :

القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، أما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالإستغفار .

صلاة التوبة :

ومما يعين على قبول التوبة إن شاء الله القريب المجيب الرحيم الودود : أن يصلى الإنسان ، بين يدى توبته ، صلاة التوبة وهى- فى أصح رواياتها - كما يلى:

عن أبى بكر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ما من رجل يذنب ذنبا ، ثم يقوم فيطهر ، ثم يصلى ، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » ثم قرأ هذه الآية :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) ﴾ (١) .

رواه ابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى ، وذكره ابن خزيمة بغير إسناد .

---

(١) آل عمران : ١٣٥ .

فإذا ما كان الاستغفار ، وتوافرت بقية شروط التوبة أصبح الإنسان فى درجة البراءة من الذنوب والآثام . وإن من حصافة الرأى ، واتزان العقل ، أن يعجل الإنسان بالتوبة الخالصة النصوح حتى لا تحيط به الخطيئة فيكون من الخاسرين: وذلك أن السيئة تترك أثرا أسود ، أو نقطة سوداء فى القلب ، وهذه النقطة السوداء تسهل الإقدام على المعصية الثانية ، وهكذا ، وكلما كثرت النقط السوداء ، وكلما اتسعت ظلمة القلب ، كلما سهلت المعاصى والذنوب حتى تعم الظلمة القلب كله ، وهنا تكون إحاطة الخطيئة التى يقول الله تعالى فى صاحبها :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) ﴾[1] .

ومثل هذا ، لا رجاء فى نجاته والعياذ بالله ، فعلى الإنسان أن يعجل بالتوبة حتى ينجو من إحاطة الخطيئة ، وحتى ينجو من عذاب الله ، وحتى ينجو من الشقاء الذى يحيط بالإنسان بسبب معاصيه .

والتوبة أنواع :

منها توبة العامة : وهى من الذنوب والآثام وهى فرض على المذنب .

ومنها توبة الصالحين : وهى من الغفلة عن الله ، إنهم لا يذنبون ، فتوبتهم إنما هى من الغفلة .

أما الدرجة العليا من التوبة : فهى توبة المقربين ، وتوبة الأنبياء والرسل ، وهم لا يتوبون من المعاصى ولا من الغفلة ، وإنما يتوبون توبة عبادة ، إنهم يتوبون لأن الله أمر بالتوبة ، وهم يكثرون من التوبة لأن الله سبحانه ، يحب الرجوع إليه فى كل حين .

ولقد كان رسول الله ، ﷺ ، يتوب إلى الله ويستغفره فى كل يوم مرات تتراوح بين السبعين والمائة، ولقد حقق بذلك طريقا من الطرق الكثيرة إلى حب الله، يضاف إلى الطرق الأخرى التى سلكها لحبه سبحانه ، يقول تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾[2] .

أى يحب الذين يرجعون إليه كثيرا ، وفى كل حال ، ، تائبين توبة عبادة ، متطهرين تطهر ترق .

---

(١) سورة البقرة : ٨١ . (٢) البقرة : ٢٢٢ .

فإذا ما كانت التوبة الخالصة النصوح ، فقد تم الصلح مع الله سبحانه ، ومتى تم الصلح مع الله سبحانه ، فإنه يهيئ للإنسان أسباب الطمأنينة فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فإن ذلك يكون فى صور كثيرة منها :

١ - سعة الرزق ، وقد رأينا أن الله سبحانه ، رتب على الاستغفار الخالص : سعة كبيرة فى الرزق .

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (١) .

وأيضًا : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ (٢) .

كل ذلك بسبب الاستغفار الخالص .

٢ - وما من شك فى أن الخير يعدى كما أن الشر يعدى ، فإذا أصلح الله أمر إنسان بالتوبة ، فإن المحيط به من ابن وابنة وزوج وإخوة ، يعديهم الخير قليلا أو كثيرا فيتأسون بالتائب ، كل بحسب استعداده .

٣ - وإذا أصلحت ما بينك وبين الله ، أصلح الله ما بينك وبين الناس .

٤ - وإذا أكثر الإنسان من التوبة فإن الله يحبه : إن الله يحب التوابين .

أما إذا نظرنا من زاوية الآخرة فإن التائب قدم الوسيلة للمغفرة وسلك السبيل للبراءة ، وليس ذلك بالأمر الهين .

ويبقى بعد ذلك أن يملأ صحيفته البيضاء بصالح الأعمال .

كيف يملؤها ؟

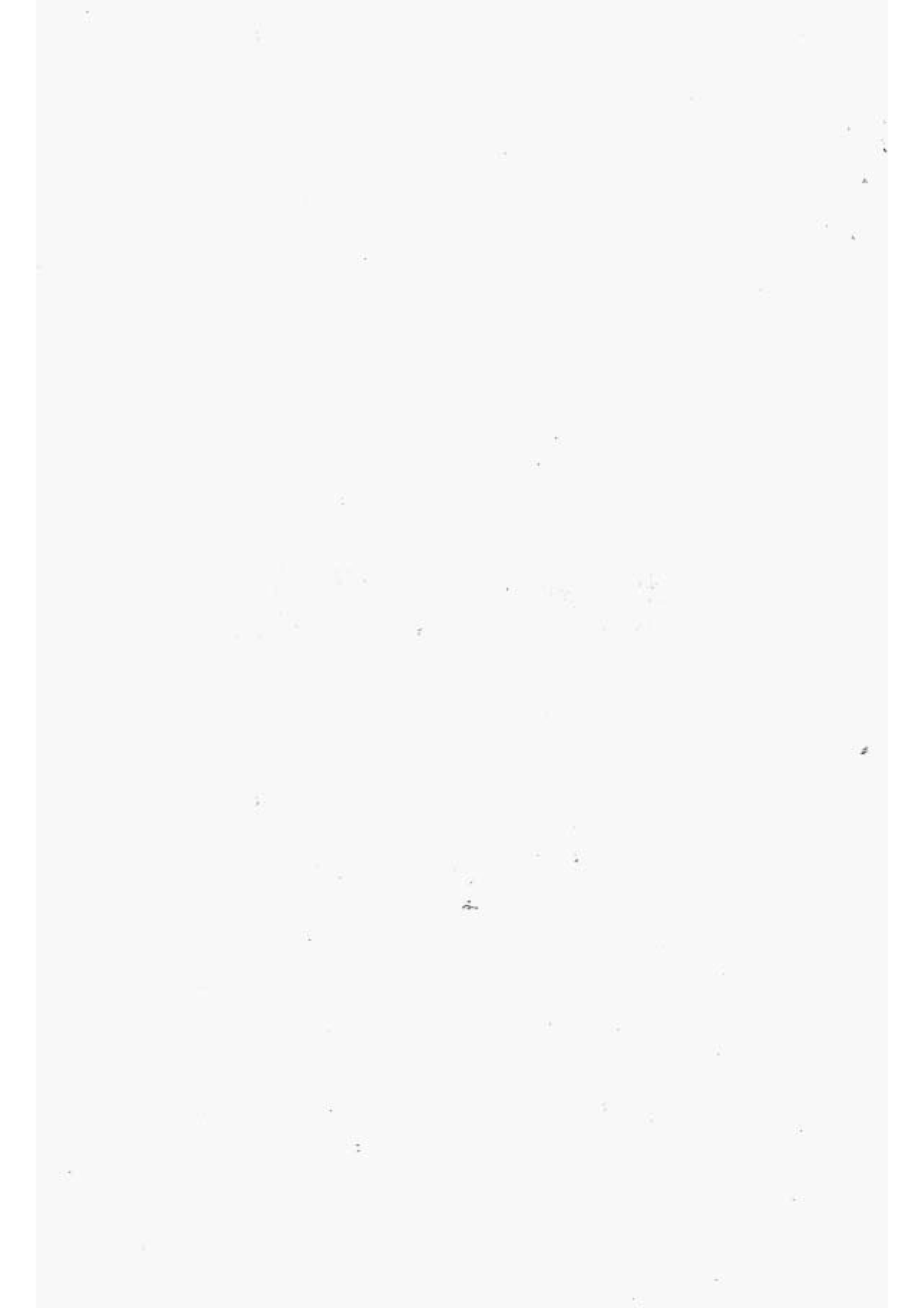
* * *

---

(١) نوح : ١٢ . (٢) هود : ٥٢ .

الفصل الثانى

فى الذكـــر



من البراءة إلى التقوى :

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾[1].

إن أولياء الله هم :

١ - الذين آمنوا .

٢ - وكانوا يتقون .

وهؤلاء ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ولهم - فضلا عن ذلك - البشرى فى هذه الحياة الدنيا ، وفى الحياة الآخرة .

ولن يخلف الله وعده لهم ، لأنه لا تبديل لكلمات الله ، ومن فاز بذلك فقد نال الفوز العظيم فى الدنيا والآخرة .

كيف يكون الإنسان من أولياء الله ؟

كيف يصل إلى التقوى ؟

ما الطريق ؟

أما الطريق ، بعد التوبة وإخلاص الدين لله ، فيرسمه حديث قدسى شريف رواه الإمام البخارى فى أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى .

والحديث يبدأ مطمئنا لأولياء الله ، مبينا لهم مباشرة ، أن من عاداهم فإن الله يعلن عليه الحرب ، وذلك لأنهم حزب الله ، فالمعادى لهم معاد لله ، يقول تعالى فى هذا الحديث القدسى :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » .

ومن الطبيعى أن يعلن الله الحرب على من عادى أولياءه .

وقد أعلن الله الحرب فى أسلوب صريح على طائفتين من الناس .

١ - الطائفة الأولى : طائفة المرابين ، يأمرهم الله بالتوبة ، ومن شروط توبتهم أن يكتفوا برؤوس أموالهم لا يَظلمون ولا يُظلمون .

---

(١) سورة يونس : ٦٢ - ٦٤ .

وإذا لم يتوبوا فإن الله سبحانه يعلنها مدوية .

﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (١)

٢ - والطائفة الثانية : التى أعلن الله الحرب عليها هى هؤلاء الذين يعادون أولياء الله بلسانهم أو بفعلهم .

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، فمن عادى المؤمن المتقى ، فإن معنى ذلك أن نفسه قد تمحضت للشر ، فكان من جند إبليس وكان من أعداء الله .

وبعد ذلك يبين الله سبحانه فى الحديث الشريف كيفية الوصول إلى التقوى - بعد التوبة الخالصة النصوح - فيقول سبحانه :

« وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه » .

والدرجة الأولى بعد درجة البراءة ، هى درجة القرب .

وهى درجة تنال بأداء الفرائض . والفرائض ليست صلاة وصياما وزكاة وحجا فقط ، وإنما هى كل ما أمر الله به أمرا وجوبيا أو نهى عنه نهيا جازما ، كل ذلك يسمى ، فى عرف المنطق السليم ، فرض . إنه فرض على الإنسان أن يأتى ما أمر الله به ، وفرض عليه أن ينتهى عما نهى الله عنه .

أما الدرجة الثانية : فإنها ما عبر الله عنها بقوله فى الحديث نفسه .

« وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » .

إنها درجة حب الله للإنسان ، تنال بكثرة النوافل .

وهذه الدرجة الأخيرة لا يتأتى أن يصل الإنسان إليها إلا إذا أدى الدرجة التى قبلها : أى أن درجة الحب لا تتأتى إلا إذا حقق الإنسان درجة القرب .

ثم يرسم الله سبحانه النتيجة الشائقة التى يتمناها كل مسلم :

« فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها » .

أى أن الله سبحانه يسدده ويوفقه ، ويرعاه ويشمله بعنايته فى كل أمر يأتيه وفى كل أمر يدعه .

ولا يقتصر الله سبحانه على أن يمنحه ذلك فحسب ، بل يعطيه أكثر من ذلك ، يقول سبحانه ، فى هذا الحديث الذى رواه الرسول ﷺ ، عن ربه :

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٩ .

« وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » .

واستجابة الدعاء : مسألة كان الدعاء ، أو استعاذة ، تتحقق بتحقيق هذا الجو ، وهو جو الحب الإلهى للإنسان الذى أسس على أداء الفرائض ، وكان سببه الإكثار من النوافل .

تفصيل بعد إجمال :

ونبدأ الآن فى الحديث عن أركان الإسلام فرضها ونفلها .

أما الركن الأول وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فقد بينا الغرض فيهما بأسلوب أبى سعيد الخراز ، رضى الله عنه ، حينما تحدثنا عن الإخلاص .

أما النفل الخاص بهذا الركن فهو أمران :

الأول منهما هو الذكر .

وثانيهما هو الصلاة على الرسول ﷺ ، وسنأخذ فى الحديث عن كل منهما .

الذكــــــر

وهو النفل فيما يتعلق بـ « أشهد أن لا اله إلا الله » .

ويتحدث الله فى سورة آل عمران عن أصحاب العقول التامة الزكية التى استنارت بنور الهداية فيصفهم سبحانه ، مادحا لهم ، بأنهم يذكرونه تعالى فى جميع أحوالهم ، يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران : ١٩١ – ١٩٤ .

وقد حثنا سبحانه على الذكر فى أسلوب آمر ، يقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (1) .

وقال : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (2) .

وحثنا سبحانه على الذكر فى أسلوب أخاذ ، يقول سبحانه :

﴿ اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ (3) .

ولقد أخرج الإمام البخارى ، رضى الله عنه ، من حديث قتادة ، عن رسول الله ، ﷺ ، فيما يرويه عن ربه قال :

قال الله عز وجل : « يا بن آدم ، إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منه ، وإن دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا ، وإن دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة ».

ومن السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله :

رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله .

وروى البيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب :

قال الله عز وجل : من شغله ذكرى عن مسألتى ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين .

وقال رسول الله ، ﷺ ، فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة :

« ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله عز وجل ، إلا حفت بهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« يقول الله : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم .

وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » (4) .

---

(1) الأحزاب : 41

(2) الأصال جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب والآية من سورة الأعراف : 205.

(3) البقرة : 152 .

(4) رواه البخارى ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، ورواه أحمد بنحوه بإسناد صحيح ، وزاد فى آخره قال قتادة : « والله أسرع بالمغفرة » .

وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ، ﷺ :

« قال الله جل ذكره : لا يذكرنى عبد فى نفسه إلا ذكرته فى ملأ من ملائكتى ، ولا يذكرنى فى ملأ إلا ذكرته فى الملأ الأعلى » (١) .

وعن عبد الله بن بسر رضى الله عنه ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأخبرنى بشىء أتشبث به قال :

« لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » (٢) .

وعن مالك بن يخامر أن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، قال لهم : إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ، ﷺ ، أن قلت : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : « أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله » (٣) .

وعن أبى موسى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« مثل الذى يذكر (الله) ربه ، والذى لا يذكر الله ، مثل الحى والميت »(٤).

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه قال :

كان رسول الله، ﷺ ، يسير فى طريق مكة ، فمر على جبل يقال له جمدان : فقال :

« سيروا ، هذا جمدان ، سبق المفردون » .

قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟

قال : « الذاكرون الله كثيرا » (٥) .

وعن أم أنس رضى الله عنها قالت : يا رسول الله أوصنى ، قال :

« اهجرى المعاصى ، فإنها أفضل الهجرة ، وحافظى على الفرائض ، فإنها

---

(١) رواه الطبرى بإسناد حسن .

(٢) رواه الترمذى ، واللفظ له ، وقال : حديث حسن غريب ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

(٣) رواه ابن أبى الدنيا ، والطبرانى ، واللفظ له ، والبزار إلا أنه قال : أخبرنى بأفضل الأعمال ، وأقربها إلى الله ، وابن حبان فى صحيحه .

(٤) رواه البخارى ، ومسلم ، إلا أنه قال : مثل البيت الذى يذكر الله فيه .

(٥) رواه مسلم واللفظ له ، والترمذى ولفظه : يا رسول الله ، وما المفردون ، قال : المستهترون (أى المكثرون) بذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون الله يوم القيامة خفافا .

أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله ، فإنك لا تأتين الله بشىء أحب إليه من كثرة ذكره » (١) .

وفى رواية لهما عن أم أنس :

« واذكرى الله كثيرا ، فإنه أحب الأعمال إلى الله أن تلقاه بها » (٢) .

عن أبى هريرة ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله ، ﷺ :

« إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا .

قال : فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم : ما يقول عبادى ؟

قال ، يقولون : يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ويمجدونك .

قال ، فيقول : هل رأونى ؟

قال ، فيقولون : لا والله يا رب ما رأوك .

قال ، يقول : كيف لو رأونى ؟

قال ، يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيدا ، وأكثر لك تسبيحا .

قال ، فيقول : فما يسألوننى ؟

قال ، يقولون : يسألونك الجنة .

قال ، فيقول : وهل رأوها ؟

قال ، يقولون : لا والله يا رب ما رأوها .

قال ، يقول : فكيف بهم لو رأوها ؟

قال ، يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا ، وأشد لها طلبا ، وأعظم فيها رغبة .

قال ، فمم يتعوذون ؟

قال ، يقولون : يتعوذون من النار .

قال ، فيقول : وهل رأوها ؟

قال ، يقولون : لا والله ما رأوها .

---

(١) رواه الطبرانى بإسناد جيد .

(٢) قال الطبرانى :أم أنس هذه - يعنى الثانية - ليست أم انس بن مالك .

قال ، فيقول : كيف لو رأوها ؟

قال ، يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا ، وأشد لها مخافة .

قال ، فيقول : أشهدكم أن قد غفرت لهم .

قال ، يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة .

قال : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » (١) .

وعن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ، ﷺ : ليبعثن الله أقواما يوم القيامة فى وجوههم النور على منابر اللؤلؤ ، تغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء .

قال : فجثا أعرابى على ركبتيه فقال : يا رسول الله حلهم لنا نعرفهم .

قال : هم المتحابون فى سبيل الله ، من قبائل شتى ، وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله يذكرون » (٢) .

وعن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ، ﷺ قال :

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا .

قالوا : وما رياض الجنة ؟

قال : حلق الذكر » (٣) .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه أن رسول الله ، ﷺ ، قال :

« من جلس مجلسا كثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » رواه : أبو داود والترمذى .

أوقات الذكر :

وليس للذكر وقت معين: وذلك أن جميع الأوقات صالحة للذكر، يقول تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (٤).

لقد جعل الله سبحانه جميع آناء الليل والنهار صالحة للذكر ، يقول ابن عباس فى قوله تعالى :

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه الطبرانى بإسناد حسن .

(٣) رواه الترمذى وقال : حديث غريب .

(٤) سورة الفرقان آية ٦٢ .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (١) .

يقول ، أى : بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والمرض والصحة ، والسر والعلانية .

والآيات فى القرآن كثيرة تبين أن ذكر الله مستحب فى جميع الأزمنة والأمكنة .

ويقول صاحب الرسالة القشيرية فى ذلك :

« من خصائص الذكر : أنه غير مؤقت ، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله : إما فرضا ، وإما ندبا ، والصلاة وإن كانت أشرف العبادات ، فقد لا تجوز فى بعض الأوقات ، والذكر بالقلب مستدام فى عموم الحالات .

قال الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ (٢) .

كل هذا أدى بالإمام القشيرى إلى أن يقول معبرا عن الجو الصادق :

« والذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة فى هذا الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر » .

ومن المعروف أن الذكر على ضربين :

ذكر اللسان .

وذكر القلب .

فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب .

والتأثير لذكر القلب .

ويقول الإمام القشيرى :

فإذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه ، فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه .

وأما بعد : فقد روى الإمام مسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ ، يذكر الله على كل أحيانه .

---

(١) النساء آية ١٠٣ . (٢) آل عمران آية ١٩١ .

صيــغ الذكــر

(أ) الاستغفار :

ويبتدئ الذكر بالاستغفار [1] :

وعن الاستغفار يقول رسول الله ، ﷺ ، فيما رواه عبد الله بن عباس :

« من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، والحاكم والبيهقى .

ومن صيغ الاستغفار :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [2] .

ومنها :

﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ . (الأنبياء آية ٨٧)

ومنها :

« اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

سيد الاستغفار الذى سبق أن ذكرناه [3] .

(ب) قراءة القرآن :

ومن الذكر قراءة القرآن .

عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه فيما رواه الترمذى رضى الله عنه، قال :

قال رسول الله ﷺ :.

« من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول « ألم » حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

---

(١) تحدثنا عن الاستغفار فيما مضى فلا نطيل الحديث عنه هنا .

(٢) الأعراف آية ٢٣ .

(٣) وهو : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

وفـيـمـا رواه الإمــام مــسـلم بسنده عن أبى هريرة ، رضـى الله عنـه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه ، فيما بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

ولقد وردت أحاديث صحيحة وحسنة فى فضل سور وآيات معينة من القرآن الكريم : نذكر بعضها ونحن نعلم أن أحاديث كثيرة قد ذكرت فى فضل سور القرآن وليـست صـحـيـحـة ، ومن أجل ذلك تحـرينا هنا الأحـاديث التى رويت فى كـتب الصحاح .

الفاتحة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ ، خرج على أبى بن كعب، فـقـال : « يا أبى » وهو يصلى ، فـالتـفت أبى فلم يجبـه ، وصلى أبى فـخـفف ، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال :

السلام عليك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ :

« وعليك السلام ، ما منعك يا أبى أن تجيبنى إذ دعوتك ؟ »

فقال : يا رسول الله ، إنى كنت فى الصلاة .

قال : « فلم تجد فيما أوحى الله إلى أن : استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ؟ »

قال : بلى ، ولا أعود إن شاء الله . قال :

« اتحب أن أعلمك سورة لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ؟

قال : نعم يا رسول الله

فقال رسول الله ﷺ : « كيف تقرأ فى الصلاة ؟ »

قال : فقرأ أم القرآن .

فقال رسول الله ﷺ :

« والذى نفسى بيده ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ، ولا فى الزبور، ولا فى الفرقان مثلها ، وإنها سبع من المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيته » .

رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه ابن خزيمة ، وابن حبان

فى صحيحيهما ، والحاكم باختصار عن أبى هريرة عن أبى ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

قال الله تعالى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ».

وفى رواية : « فنصفها لى ونصفها لعبدى » .

فإذا قال العبد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الله : حمدنى عبدى .

فإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال : أثنى على عبدى .

فإذا قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال : مجدنى عبدى .

فإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل .

فإذا قال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل » رواه مسلم.

الفاتحة وخواتيم سورة البقرة :

عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم ، وقال :

« أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته » .

رواه مسلم والنسائى ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما . « النقيض » بالمعجمة : هو الصوت .

البقرة وآل عمران :

عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

اقرءوا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرءوا الزهراوين : البقرة، وسورة آل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان - أو غيايتان - أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرءوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة » .

الغيايتان : مثنى غياية ، وهى كل شىء أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة .

قال معاوية بن سلام : بلغنى أن البطلة السحرة . رواه مسلم .

وعن أسيد بن حضير رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله ، بينما أنا أقرأ الليلة سورة البقرة إذ سمعت وجبة من خلفى ، فظننت أن فرسى انطلق ، فقال رسول الله ﷺ :

« اقرأ أبا عتيك » فالتفت ، فإذا مثل المصباح مدلى بين السماء والأرض ، ورسول الله ﷺ يقول ، « اقرأ أبا عتيك » فقال : يا رسول الله فما استطعت أن أمضى ، فقال رسول الله ﷺ :

« تلك الملائكة تنزلت لقراءة سورة البقرة ، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب » رواه ابن حبان فى صحيحه ، ورواه البخارى ومسلم ، من حديث أبى سعيد بنحوه .

عن ابن بريدة عن أبيه رضى الله عنه مرفوعا : «تعلموا البقرة، وآل عمران، فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيايتان ، أو فرقان من طير صواف» ، رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

سورة الكهف :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« من قرأ الكهف كما أنزلت كانت له نورا يوم القيامة من مقامه إلى مكة ، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يسلط عليه ، ومن توضأ ثم قال: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، كتب فى رق ، ثم طبع بطابع فلم يكسر إلى يوم القيامة » .

رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :

« من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين »

رواه الحاكم مرفوعا وموقوفا وقال : صحيح الإسناد .

سورة يس :

عن معقل بن يسار رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال :

« قلب القرآن يس ، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له ، اقرءوها على موتاكم » .

رواه أحمد وأبو داود والنسائى ، واللفظ له ، وابن ماجه والحاكم ، وصححه.

سورة الملك :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« إن سورة فى القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهى تبارك الذى بيده الملك » ،

رواه أبو داود ، والترمذى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « وددت أنها فى قلب كل مؤمن » يعنى تبارك الذى بيده الملك .

رواه الحاكم وقال : هذا إسناده عند اليمانيين صحيح .

سورة التكوير وسورة الانفطار وسورة الانشقاق :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى العين فليقرأ : إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت » .

رواه الترمذى ، وغيره .

سورة الزلزلة ، وسورة الإخلاص ، وسورة الكافرون :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« إذا زلزلت تعدل نصف القرآن ، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن » .

رواه الترمذى ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه :

« هل تزوجت يا فلان ؟ » قال : لا والله يا رسول الله ، ولا عندى ما أتزوج به ، قال : « أليس معك قل هو الله أحد » ؟

قال : بلى ، قال : « ثلث القرآن » قال : « أليس معك إذا جاء نصر الله والفتح ؟ » قال : بلى ، قال : « ربع القرآن » .

قال : « أليس معك قل يا أيها الكافرون ؟ » قال : بلى ، قال: «ربع القرآن» قال : أليس معك « إذا زلزلت الأرض ؟ » .

قال : بلى ، قال : « ربع القرآن ، تزوج ، تزوج » .

رواه الترمذى عن سلمة بن وردان عن أنس ، قال : هذا حديث حسن .

سورة التكاثر :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية كل يوم؟ » قالوا: ومن يستطيع ذلك؟ قال : « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر » رواه الحاكم .

سورة الإخلاص أيضا :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« احشدوا ، فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، فحشد من حشد ، ثم خرج النبى ﷺ فقرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : إنا نرى هذا خبرا جاءه من السماء فذلك الذى أدخله ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقال : إنى قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا إنها تعدل ثلث القرآن ». رواه مسلم ، والترمذى.

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ ، بعث رجلا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ ، فقال :

« سلوه لأى شىء يصنع ذلك ؟ » فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبى ﷺ : « أخبروه أن الله يحبه » رواه البخارى ، ومسلم، والنسائى .

ورواه البخارى أيضا والترمذى عن أنس أطول منه ، وقال فى آخره : فلما أتاهم النبى ﷺ ، أخبروه الخبر ، فقال : « يا فلان ، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ؟ وما يحملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة ؟ » فقال : إنى أحبها ، فقال « حبك إياها أدخلك الجنة » .

المعوذتان :

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » رواه مسلم.

وعن عبد الله بن خبيب رضى الله عنه قال :

قال لى رسول الله ﷺ : اقرأ ، قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفك من كل شىء. رواه أبو داود والترمذى وقال: حسن صحيح.

وكما بدأنا الحديث عن القرآن بذكر فضله فإنا نختمه أيضا بأحاديث فى فضله .

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه - فيما رواه الشيخان - عن النبى ﷺ قال :

خيركم من تعلم القرآن وعلمه .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما اعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام ، كفضل الله على خلقه » رواه الترمذى .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه -

وهو عليه شاق - له أجران » وفى رواية: « والذى يقرؤه وهو يشتد عليه له أجران » رواه البخارى ، ومسلم ، واللفظ له.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :

« يجىء صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يا رب حلّه فيلبس تاج الكرامة ، ثم يقول : يا رب زده ، فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يا رب ارض عنه، فيرضى عنه ، فيقال له : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة » رواه الترمذى ، وحسنه ، وابن خزيمة ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير أنه لا يوحى إليه ، لا ينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ولا يجهل مع من جهل ، وفى جوفه كلام الله » .

رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

وعن بريدة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من قرأ القرآن وتعلمه وعمل به ألبس والده يوم القيامة تاجا من نور ضوؤه مثل الشمس ، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما الدنيا ، فيقولان : بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن » رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم.

والفاتحة بدءا وختاما :

عن أبى سعيد بن المعلى رضى الله عنه قال : كنت أصلى بالمسجد فدعانى رسول الله ﷺ ، فلم أجبه ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أصلى ، فقال : ألم يقل الله تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ (١) .

ثم قال : « لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد » فأخذ بيدى ، فلما أردنا أن نخرج ، قلت : يا رسول الله ، إنك قلت : لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : « الحمد لله رب العالمين : هى السبع المثانى ، والقرآن العظيم الذى أوتيته » رواه البخارى ، وأبو داود والنسائى ، وابن ماجه .

---

(١) الأنفال : ٢٤ .

وبعد : فيقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾ [١] .

ويقول تعالى :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) ﴾ [٢].

ويقول تعالى :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [٣] .

وتأمل فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [٤] .

إنه سبحانه يصف نفسه بهذين الوصفين الجليلين : على ، حكيم .

هذان الوصفان الجليلان يصف الله سبحانه بهما القرآن الكريم فيقول :

﴿ حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) ﴾ [٥] .

---

(١) يونس آية ٥٧ .

(٢) الاسراء آية ٧٨ - ٨٢ .

(٣) الحشر آية ٢١ .

(٤) الشورى آية ٥١ .

(٥) الزخرف آية ١ - ٤ ولقد تحدثنا عن القرآن فى الجزء الأول من هذه السلسلة ,المباركة إن شاء الله والحديث هنا يكمل الحديث هناك .

(ج) التهليل :

والتهليل هو الذكر بلا إله إلا الله .

وقد روى الترمذى بسنده عن رسول الله ، ﷺ ، أنه قال :

« خير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » .

وقد أخرج الإمامان : البخارى ومسلم ، رضى الله عنهما ، من حديث أبى هريرة ، نضر الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال :

« من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك »

وروى الإمام البخارى بسنده عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ ، أنه قال :

« من تعار من الليل ، فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم قال : اللهم اغفر لى ، غفر له ، أو دعا استجيب له ، فإن توضأ وصلى : قبلت صلاته » .

ومما وصفت به كلمة : لا إله إلا الله أنها :

« كلمة التوحيد ، وهى كلمة الإخلاص ، وهى كلمة التقوى ، وهى الكلمة الطيبة ، وهى دعوة الحق ، وهى العروة الوثقى ، وهى ثمن الجنة [١] » .

وما من شك فى أن كلمة التوحيد إذا قيلت باللسان نابعة من القلب إنما تمثل التوحيد الخالص ، وكانت تعبيرا صادقا عن :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ [٢].

وكانت تعبيرا عن : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [٣] .

وكانت تحطيما للأصنام النفسية والمادية ، وتطهيرا للإنسان عن الشرك فى

---

(١) إحياء علوم الدين .

(٢) سورة الإخلاص .

(٣) الفاتحة : ٤ .

جميع الوانه ، ومن أجل ذلك كانت عمادا من عمد الأوراد الصوفية. وعمد الأوراد الصوفية :

١ - استغفار :

٢ - وتوحيد « لا إله إلا الله » .

٣ - وصلاة على الرسول ﷺ .

فهى تمثل الأوراد الصوفيـة ، بل تمثل الثلث الأساسى ، فبدونها لا يتحقق السلوك إلى الله على أى وضع من الأوضاع .

ونختم هذا بحديث الإمام البخارى ، فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

قلت : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟

قال رسول الله ﷺ :

« لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك : لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه ، أو نفسه »

وبحديث الحاكم الذى قال عنه أنه صحيح الإسناد :

أفضل الذكر : لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله .

ومن كلام الإمام الغزالى :

نسأل الله تعالى: أن يجعلنا فى الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالا ومقالا، وظاهرا وباطنا ، حتى نودع الدنيا غير ملتفتين إليها ، بل متبرمين بها ومحبين للقاء الله ، فإن من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه .

التسبيح والتحميد والتكبير والحوقلة

يقول الله تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ (١) .

ويقول سبحانه :

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴾ (٢) .

يقول الله تعالى :

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) ﴾ (٣) .

ويقول :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ (٤) .

والآيات القرآنية الكريمة تقرن التسبيح والتحميد تارة ، وتفردهما أخرى .

أما الأحاديث النبوية الشريفة ، فإنها أيضا تقرن التسبيح بالحمد تارة ، وتفردهما أخرى ، وتتحدث كثيرا عنهما مع التهليل والتكبير والحوقلة . ومن أجل ذلك سنتحدث عنها مجتمعة مبينين مكانتها فى الذكر عن طريق الأحاديث الشريفة ، ولقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة قائلا :

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ (٥) .

---

(١) الاسراء آية : ٤٤ .

(٢) ق آية : ٣٩ - ٤٠ .

(٣) الطور آية : ٤٨ - ٤٩ .

(٤) النصر آية : ٣ - ٤ .

(٥) يونس آية : ١٠ .

ولقد روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وحمد ثلاثا وثلاثين ، وكبر ثلاثا وثلاثين ، وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر »[1] .

وعن جابر رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله »[2] .

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ :

« التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه »[3] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[4] .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت : يا رسول الله أخبرنى بأحب الكلام إلى الله ، فقال : « إن أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده »[5] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« من قال سبحان الله وبحمده ، فى يوم مائة مرة ، غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر »[6] .

وعن سليمان بن يسار رضى الله عنه ، عن رجل من الأنصار أن النبى ﷺ قال : « قال نوح لابنه : إنى موصيك بوصية وقاصرها لكى لا تنساها ، أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين : أما اللتان أوصيك بهما فيستبشر الله بهما وصالح خلقه ، وهما يكثران الولوج على الأرض ، أوصيك بلا إله إلا الله فإن السموات

---

(١) رواه الإمام مسلم .

(٢) رواه ابن ماجه ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه .

(٣) رواه الترمذى .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

(٥) رواه مسلم ، والنسائى ، والترمذى .

(٦) رواه مسلم والترمذى .

والأرض لو كانتا حلقة قصمتهما ، ولو كانتا فى كفة وزنتهما ، وأوصيك بسبحان الله وبحمده ، فإنهما صلاة الخلق ، وبهما يرزق الخلق ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ، وأما اللتان أنهاك عنهما فيحتجب الله منهما وصالح خلقه : أنهاك عن الشرك والكبر » (١) .

وعن مصعب بن سعد رضى الله عنه قال : حدثنى أبى ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ ، فقال : « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ؟ فسأله سائل من جلسائه : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : يسبح مائة تسبيحة فتكتب له ألف حسنة ، أو تحط عنه ألف خطيئة » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن أقول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » (٣) .

وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرك بأيهن بدأت » (٤) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لقيت إبراهيم عليه السلام ، ليلة أسرى بى : فقال : يا محمد أقرئ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » (٥) .

وعن أبى ذر رضى الله عنه أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ: قالوا للنبى ﷺ: يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال :

« أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل

---

(١) رواه النسائى ، والبزار ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

(٢) رواه مسلم ، والترمذى وصححه ، والنسائى .

(٣) رواه مسلم ، والترمذى .

(٤) رواه مسلم ، وابن ماجه .

(٥) رواه الترمذى .

تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة » .

قالوا : يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام كان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر»[1].

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« استكثروا من الباقيات الصالحات » قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : «التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله» [2] .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

إذا حدثتكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك فى كتاب الله : إن العبد إذا قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وتبارك الله ، قبض عليهن ملك فضمهن تحت جناحه ، وصعد بهن لا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يُحيا بهن وجه الرحمن ، ثم تلا عبد الله :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [3] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » .

قلت : يا رسول الله ، وما رياض الجنة ؟

قال : « المساجد » .

قلت : وما الرتع ؟

قال : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر » [4] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : أول من يدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله عز وجل فى السراء والضراء [5] .

وعن جويرية رضى الله عنها : أن النبى ﷺ خرج من عندها ، ثم رجع بعد

---

(١) رواه مسلم ، وابن ماجه « الدثور » بضم الدال – جمع دثر – بفتحها – وهو المال الكثير. « والبضع بضم الموحدة: وهو الجماع ، وقيل : هو الفرج نفسه .

(٢) رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والنسائى .

(٣) رواه الحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

(٤) رواه الترمذى .

(٥) رواه ابن أبى الدنيا ، والبزار ، والطبرانى .

أن أضحى وهى جالسة ، فقال : « ما زلت على الحال التى فارقتك عليها ؟ » قالت: نعم ، قال النبى ﷺ :

« لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن :

سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ومداد كلماته »(١) .

وعن أبى أيوب رضى الله عنه قال : قال رجل عند رسول الله ﷺ : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، ورأى أنه قد هجم من رسول الله ﷺ على شىء يكرهه ، فقال رسول الله ﷺ : « من هو ؟ فإنه لم يقل إلا صوابا » فقال الرجل : أنا قلتها يا رسول الله أرجو بها الخير ، فقال : « والذى نفسى بيده لقد رأيت ثلاثة عشر ملكا يبتدرون كلمتك أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى ؟ » (٢) .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « قل لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة » (٣) .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشى خلف النبى ﷺ ، فقال لى :

« يا أبا ذر ، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قلت : بلى قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » (٤) .

● ● ●

ونعود إلى التسبيح من جديد

يقول الله تعالى فى سورة الإسراء :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤) ﴾ (٥) .

وفى معنى هذه الآية الكريمة يقول الله تعالى فى أول سورة الحديد :

---

(١) رواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، والترمذى .

(٢) رواه ابن أبى الدنيا ، والطبرانى بإسناد حسن ، واللفظ له ، والبيهقى .

(٣) رواه البخارى ، ومسلم وأبو داود ، والترمذى والنسائى ، وابن ماجه .

(٤) رواه ابن ماجه ، وابن أبى الدنيا ، وابن حبان فى صحيحه .

(٥) سورة الإسراء آية ٤٤ .

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① ﴾ (1) .

ويقول سبحانه فى أول سورة الحشر :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① ﴾ (2) .

وافتتح الله تعالى سورة الصف ، وسورة الجمعة ، وسورة التغابن بالإخبار عن تسبيح الكون له سبحانه .

ويقرن علماؤنا الأعلام رضى الله عنهم بين التسبيح لله سبحانه وبين السجود له ، وكما أخبر الله سبحانه بأن الكون كله ونباته وحيوانه ، وجنه وإنسه وملائكته يسبح له سبحانه فإنه أخبر أن الكون أيضا بما فيه ومن فيه يسجد له تعالى ، يقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ⑱ ﴾ (3) .

والواقع أن تسبيح الله تسبيحا حقيقيا ، والسجود له سجودا صادقا ، يرتبطان فى وحدة منسجمة فيعبران عن التنزيه القلبى الخالص .

والآيات القرآنية الكثيرة المتعلقة بالتسبيح والمتعلقة بالسجود تتكاتف كلها لتدل دلالة بينة على أن الحياة منبثة فى جميع أجزاء العالم ، سارية فى كل خلية من خلاياه ، وفى كل ذرة من ذراته .

ويؤيد ذلك الأحاديث التى وردت بتسبيح الحصى وحنين الجذع .

يقول الإمام ابن كثير :

وفى حديث أبى ذر أن النبى ﷺ ، أخذ فى يده حصيات فسمع لهن تسبيح كطنين النحل ، وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، وهو حديث مشهور فى المسانيد .

ولقد قطع الله الطريق على كل من يمارى فى تسبيح النبات والجماد بقوله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... ﴾ (4) .

---

(1) الحديد : 1 .
(2) الحشر : 1 .
(3) الحج : 18 .
(4) الإسراء : 44 .

وتسبيح الله ، تنزيهه سبحانه عن الشريك فى الخلق ، وعن الشريك فى القدرة أو الإرادة أو المنح أو المنع ، إنه التوحيد :

توحيد الله بالحمد العام المطلق ، وبالشكر الشامل التام :

كل ما فى الكون يسبح ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾ (١) .

ولقد أجمل الله سبحانه تسبيح الجمادات وفصَّله ، واستعمل فى ذلك صيغة « سبح » وصيغة « تسبح » وصيغة « يسبح » .

فمن صيغ الماضى :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ (٢) .

ومن صيغ المضارع :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ (٣) .

ومن أمثلة التفصيل قوله تعالى عن الجبال :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) ﴾ (٤) .

والرعد يسبح :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ (١٣) ﴾ (٥) .

وننتقل إلى الكائنات النورانية التى لا يعتريها شك فى تنزيه الله سبحانه ، ومع ذلك فهى تسبح ، ننتقل إلى الملائكة ، يقول تعالى :

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) ﴾ (٦) .

---

(١) سورة النور آية : ٤١ .

(٢) سورة الحديد آية : ١ .

(٣) سورة التغابن آية : ١ .

(٤) سورة ص آية: ١٨ .

(٥) سورة الرعد : آية ١٣ .

(٦) سورة فصلت آية : ٣٨ .

ويقول سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا (٧) ﴾ (١) .

ويقول :

﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾ (٢) .

أما الإنسان فقد فصل الله سبحانه وتعالى الأمر بالنسبة إليه تفصيلا جميلا :

لقد أمر سبحانه بالتسبيح أرقى المخلوقات وهم الأنبياء والرسل ، ولقد قال سبحانه لرسوله الكريم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) ﴾ (٣) .

وقال :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) ﴾ (٤) .

وأمر سبحانه جميع المؤمنين به فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) ﴾ (٥) .

وقال :

﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) ﴾ (٦) .

وقال :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) ﴾ (٧) .

---

(١) سورة غافر آية : ٧ .
(٢) سورة الزمر آية : ٧٥ .
(٣) سورة الحجر آية : ٩٨ .
(٤) سورة الفرقان آية : ٥٨ .
(٥) سورة الأحزاب آية : ٤٢ .
(٦) سورة الحاقة آية : ٥١ ، ٥٢ .
(٧) الأعلى : ١ .

وجعله علامة الإيمان :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (١).

وبين الله سبحانه وتعالى أنه جعل لبنى البشر من الفلك والأنعام مركبا ثم قال :

﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢).

والأمر كذلك فى كل نعمة .

وهو سبب النجاة .

فذو النون عليه السلام يقول الله عنه :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٣).

ويقول سبحانه عنه :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (٤).

ويقول سبحانه عن هؤلاء الذين دمر جنتهم :

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾(٥).

وهو سبب فى الرضى والسكينة ، رضى النفس وسكينتها يقول تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (٦).

وهو من دعاء أهل الخشية الذين يخافون سوء الحساب :

---

(١) سورة السجدة آية : ٥١ .
(٢) الزخرف آية ١٣ .
(٣) الأنبياء آية : ٨٧ .
(٤) الصافات آية : ٤٣ .
(٥) القلم آية ٢٨ ، ٢٩ .
(٦) طه آية : ١٣٠ .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ (١).

وهو من دعاء أهل الجنة يقول سبحانه :

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ (٢).

ثم هو فى الحقيقة شعار المؤمن إن رضى ، وشعاره إن تعجب وشعاره إن سمع بشأن الله مالا يليق بجلاله .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) ﴾ (٣).

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ (١١٦) ﴾ (٤).

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ (٥).

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ (٦).

ومن أجل كل ذلك أمر الله سبحانه وتعالى به فى جميع الأوقات : أمر به فى العشى والإبكار .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥) ﴾ (٧).

وفى المساء والصباح :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ (٨).

---

(١) النور آية : ٣٦ ، ٣٧ . (٢) يونس آية : ١٠ .

(٣) الزمر آية : ٦٧ . (٤) المائدة آية : ١١٦ .

(٥) آل عمران آية : ١٩١ . (٦) الإسراء آية : ٩٣ .

(٧) غافر آية : ٥٥ . (٨) الروم آية : ١٧ .

وبكرة وأصيلا .

﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[1].

وقبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل وأدبار السجود :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

وعند القيام ، ومن الليل ، وأدبار النجوم :

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾[3].

وبعد .. فيقول رسول الله ﷺ ، فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه :

« من قال حين يصبح وحين يمسى : سبحان الله وبحمده مائة مرة ، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد »[4] .

ونعود إلى الحمد أيضا من جديد :

الحمد لله الذى افتتح الله به الفاتحة ، أى افتتح به القرآن مشيرا إلى العلة وهى التربية التى من شأنها أن تهذب وأن تسير بالمربى نحو الكمال فى التربية ، أو السير نحو الكمال لكل عالم ، لجميع العالمين .

الحمد لله رب العالمين .

الحمد لله المربى لجميع العوالم ، السائر بهم نحو الكمال بحسب استعداد كل واستجابته . ومن أجل ذلك بل من أجل كماله سبحانه فى نفسه كان له الحمد فى السموات والأرض .

﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[5] .

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[6] .

---

(١) الفتح آية : ٩ .
(٢) ق آية : ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) الطور آية : ٤٨ ، ٤٩ .
(٤) رواه مسلم .
(٥) الروم آية : ١٨ .
(٦) الجاثية آية : ٣٦ .

وكان له الحمد فى الأولى والآخرة .

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١).

ومن أجمل أنواع الحمد وأرقها ، وأرقاها وأنفسها ، هو الحمد الذى ينبعث من نفس الإنسان من أجل كمال الله سبحانه ، وقد وردت فى القرآن الكريم نماذج لذلك .

يقول تعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ (٢).

ويلى ذلك الحمد على نعمة الهداية ، وعلى إنزال مصدرها ومنبعها القرآن :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ ﴾ (٣).

ثم الحمد على النعمة العامة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴿١﴾ ﴾ (٤).

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ (٥).

ثم الحمد من أجل النعم الخاصة . والنعم الخاصة كثيرة متعددة :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (٦) .

وقد أسبغها الله علينا ظاهرة وباطنة .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ... ﴾ (٧) .

---

(١) القصص آية : ٧٠ .
(٢) الإسراء آية : ١١١ .
(٣) الكهف آية : ١ .
(٤) الانعام آية : ١ .
(٥) فاطر آية : ١ .
(٦) ابراهيم : ٣٤ .
(٧) لقمان : ٢٠ .

وكلها - بدون استثناء - من الله .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (1) .

من أجل ذلك أمر الله سبحانه بالحمد عند كل نعمة :

﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) ﴾ (2).

واستجاب للأمر من استجاب :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) ﴾ (3).

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) ﴾ (4).

والحمد من دعاء أهل الجنة :

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) ﴾ (5).

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ... (43) ﴾ (6).

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) ﴾ (7).

بل هو آخر دعاء أهل الجنة :

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10) ﴾ (8).

الحمد لله : إنها تملأ الميزان كما ورد فى حديث أبى مالك الأشعرى فيما رواه الإمام مسلم قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(1) النحل : 53 .
(2) المؤمنون آية : 18 .
(3) النمل آية : 15 .
(4) إبراهيم آية : 39 .
(5) الزمر آية : 74 .
(6) الأعراف آية : 43 .
(7) فاطر آية : 34 .
(8) يونس آية : 10 .

« الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض » [1] .

وبعد ، فعن رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان قال :

« من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » .

وقال : « من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة ،حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » [2] .

وأخيرا ، فإنه ينبغى - متابعة للنسق القرآنى - أن يفتتح المسلم كل عمل من أعماله الخيرة بقوله : الحمد لله .

الإسلام والاستسلام لله :

ويتساءل كثير من الناس فيقولون :

لم كانت ثمرة هذه الكلمات - مع سهولتها ويسرها - عظيمة ؟

لم كان ثوابها جزيلا ؟

لم كان لها كل هذا الفضل ؟

من أجل الإجابة على هذا السؤال نورد حديثين ينبغى أن نتدبرهما فى تأمل، ونتروى فى فهم معناهما فى عمق :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« من قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، قال الله : أسلم عبدى واستسلم » [3] .

وروى الحاكم ، وقال : صحيح ولا علة له ، أن رسول الله ﷺ قال لأبى هريرة : « ألا أعلمك أو ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة ؟

---

(١) رواه مسلم .   (٢) متفق عليه .

(٣) رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيقول الله : أسلم عبدى واستسلم » .

والهدف إذن من ترداد هذه الكلمات المباركة أن يتغلغل معناها ، فى رفق ، فى نفس الإنسان ، وفى كيانه كله حتى تقوده إلى الإسلام والاستسلام ، إلى إسلام الوجه له سبحانه ، وإلى الاستسلام الكلى لجلاله . إنها توجه إلى هذا وتقود إليه، وهو غايتها .

فتنزيه الله - وهو المعنى لسبحان الله - عن أن يكون فى حكمته إلا كل طهر وصفاء وسمو إنما هو رضاء واستسلام لكل ما يأتى عنه من أقوال وأفعال هى الحق والخير والجمال .

وحمد الله على جميع النعم الظاهرة والباطنة ، إنما هو إقرار بأن ما بالإنسان من نعمة ظاهرة أو باطنة فمن الله .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ... (٥٣) ﴾ [١] .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (٢٠) ﴾ [٢] .

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا (٣٤) ﴾ [٣] .

إن هذا الذى يتقلب فى نعم الله صباحا ومساء ليلا ونهارا ، فيعرفها ، ويحمد الله عليها ، لا يتأتى له - فى منطق الحق - إلا أن يسير نحو المنعم ويهاجر إليه مسلما مستسلما .

ولا إله إلا الله خالصة من القلب ترجح فى الميزان السموات والأرض ، لا يخيب قائلها مخلصا ، إنها تحطيم للأصنام ، واستعلاء على الدنايا ، وتوجيه الوجه إلى الكمال المطلق : الله .

والله أكبر بلا موازنة ، الله أكبر بلا مقارنة ، الله أكبر بإطلاق ، والله أكبر يقينا لا شك فيه ، والله أكبر علما لا جهل معه ، والله أكبر هداية لا يشوبها ضلال .

---

(١) النحل آية : ٥٣ .   (٢) لقمان آية : ١٠ .

(٣) ابراهيم آية : ٣٤ .

الله أكبر تقتضى : ففروا إلى الله .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، تجريد وإخلاص ، وتوجه كامل إلى صاحب الحول والقوة ائتمارا بأمره وانتهاء عما نهى .

والثمرة الكلية لهذه الكلمات المباركة إنما هى : إسلام واستسلام لله سبحانه . وهذا هو التدين ، وهذا هو الإسلام الذى مثله رسول الله ، ﷺ فى خضوعه لله وتبتله وفى كفاحه فى سبيل الله ونضاله ، وفى شجاعته فى الحق وتمسكه به ، وفى استعلائه على الدنايا ، وانغماسه فى الطهر ، وفى عمله ليلا ونهارا ليسير المجتمع : أفرادا وجماعات على صراط الله المستقيم عقيدة وخلقا وتشريعا .

إن هذه الكلمات المباركة تصل بالمؤمنين المخلصين إلى أن يستجيبوا لله ورسوله ، مجاهدين فى سبيل الله ورسوله ، إنها تجردهم من الجبن ومن التملق والرياء والمداهنة ، وتخلصهم للحق والخير والعمل جنودا فى سبيل الخير والحق آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر لا يخشون فى الله لومة لائم .

ومن أجل ذلك وغيره من ثمار زكية تؤدى إليها هذه الكلمات كان ما ترتب عليها من ثواب جزيل ، ورضوان جم .

الصلاة على النبى ﷺ

ومن الذكر الصلاة على خير المرسلين .

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾[١].

والصلاة على النبى هى نقل الجزء الثانى من الركن الأول من أركان الإسلام، وهو شهادة أن محمدا رسول الله ، ولقد روى الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« من صلى على صلاة ، صلى الله عليه بها عشرا » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » [٢] .

عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : البخيل من ذكرت عنده فلم يصل على [٣] .

أهمية الصلاة على الرسول ﷺ .

ونتبين أهمية الصلاة على الرسول ﷺ من الحديثين التاليين .

عن محمد بن يحيى بن حبان عن أبيه عن جده رضى الله عنه :

أن رجلا قال : يا رسول الله ، أجعل ثلث صلاتى عليك ؟ قال : « نعم ، إن شئت » قال : الثلثين ؟ قال : نعم إن شئت .

---

(١) الأحزاب آية : ٥٦ .

(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

(٣) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

قال : فصلاتى كلها ؟ قال رسول الله ﷺ : إذًا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخراك [1] .

وعن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : كان رسول الله ، ﷺ ، إذا ذهب ربع الليل قام فقال :

« يا أيها الناس : اذكروا الله ، اذكروا الله .. جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه » قال أبى بن كعب :

فقلت : يا رسول الله ، إنى أكثر الصلاة ، فكم أجعل لك من صلاتى ؟

قال : ما شئت .

قال ، قلت : الربع ؟

قال : ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك .

قال : فقلت : فالثلث ؟

قال : ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك .

قال : النصف ؟

قال : ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك .

قال : أجعل لك صلاتى كلها ؟

قال : إذًا يكفى همك ، ويغفر لك ذنبك » [2] .

وإذا كانت الصلاة على رسول الله ﷺ ، مطلوبة فى كل وقت ، فإنه ﷺ ، قد حث عليها فى يوم الجمعة بالذات ، وهو يوم مبارك فتزيده الصلاة على الرسول بركة ونورا .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة ، فإنه مشهود تشهده الملائكة ، وإن أحدا لن يصلى على إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها » قال : قلت : وبعد الموت ؟ قال :

« إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام »[3].

---

(١) رواه الطبرانى . (٢) رواه أحمد ، والترمذى والحاكم .

(٣) رواه ابن ماجه بإسناد جيد .

وعن أوس بن أوس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من أفضل أيامكم يوم الجمعة : فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه ، النفخة، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على ».

قالوا : يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك ، وقد أرمت - يعنى بليت؟ فقال : « إن الله عز وجل ، حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » [1] .

ولقد تفنن الصالحون فى صيغ الصلاة على رسول الله ﷺ ، حتى أنه ليجد الإنسان مالا يكاد يعد ولا يحصى من هذه الصيغ ، وفيها النور ، وفيها الإشراق والصفاء .

وبعضها خالص فى الصلاة قد تمحض لها ، وبعضها تتجه تعبيراته إلى طلب من الله سبحانه : كشفاء المريض ، أو قضاء الحاجة ، أو انشراح الصدر .

ونذكر الآن نماذج من هذه الصلوات :

وأول ما نذكر من ذلك هى ما أطلق عليها الصلاة الإبراهيمية :

« اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم فى العالمين ، إنك حميد مجيد » .

ومن صيغ الصلاة على النبى ﷺ ، ما ذكره شيخنا فضيلة المرحوم الشيخ عبد الفتاح القاضى ، الشاذلى طريقة الشبلنجى مولدا وإقامة ، وقد تلقاها تلقينا فى النوم :

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد عبدك : عدد خلقك ، ورضاء نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد كلماتك .

وصيغة الشيخ الكبير العارف بالله سيدى المتبولى من أجمل الصيغ وأكملها وهى :

---

(١) رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان والحاكم .

اللهم إنى أسألك بك أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين ، وأن تغفر لى ما مضى وتحفظنى فيما بقى .

والصيغة التى تلقيناها عن العارف بالله الشيخ محمد عبد المغنى الذى تلقاها عن رسول الله ﷺ شفاها هى :

« اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما وكن بنا وبالمؤمنين رؤوفا رحيما ».

ومن الصيغ التى يرددها الصالحون كثيرا :

اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تنجينا بها من جمع الأهوال والآفات ، وتقضى لنا بها جميع الحاجات . وتطهرنا بها من جميع السيئات وترفعنا بها عندك أعلى الدرجات . وتبلغنا بها أقصى الغايات . من جميع الخيرات فى الحياة وبعد الممات » (١) .

ومن الصيغ :

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى ، وعلى آل محمد ، صلاة تكون لنا رضاء ولحقه أداء ، وأعطه الوسيلة والمقام المحمود الذى وعدته ، واجزه عنا ما هو أهله ، واجزه أفضل ما جازيت نبيا عن أمته ، وصل على جميع إخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . اللهم صل على محمد فى الأولين وصل على محمد فى الآخرين وصل على محمد إلى يوم الدين . اللهم صل على روح محمد فى الأرواح ، وصل على جسده فى الأجساد وعلى قبره فى القبور ، واجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك ورأفة تحننك ورضوانك على محمد عبدك ونبيك ورسولك وسلم تسليما كثيرا (٢) .

ومنها :

اللهم صل على سيدنا محمد الذى أشرقت به الظلم . اللهم صل على سيدنا محمد المبعوث بالرحمة لكل الأمم . اللهم صل على سيدنا محمد المختار للسيادة

---

(١) هذه الصلاة واردة فى « الدلائل » .

(٢) هذه الصلاة ذكرها الإمام العارف شهاب الدين أحمد السهروردى فى كتابه « عوارف المعارف » .

والرسالة قبل خلق اللوح والقلم . اللهم صل على سيدنا محمد الموصوف بأفضل الاخلاق والشيم . اللهم صل على سيدنا محمد المخصوص بجوامع الكلم وخواص الحكم . اللهم صل على سيدنا محمد الذى كان لا تنتهك فى مجالسه الحرم ، ولا يغضى عمن ظلم . اللهم صل على سيدنا محمد الذى كان إذا مشى تظلله الغمامة حيثما يمم . اللهم صل على سيدنا محمد الذى أثنى عليه رب العزة فى سالف القدم . اللهم صل على سيدنا محمد الذى صلى عليه الله فى محكم كتابه وأمرنا أن نصلى عليه ونسلم . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه ما انهلّت الديم،. وما جرت على المذنبين أذيال الكرم وسلم تسليما وشرف وكرم (1) .

ومنها :

اللهم صل على سيدنا محمد النبى الأمى . الطاهر الزكى ، صلاة تحل بها العقد وتفك بها الكروب (2) .

ومنها :

« اللهم صل على سيدنا محمد السابق للخلق نوره . ورحمة للعالمين ظهوره . عدد من مضى من خلقك ومن بقى ومن سعد منهم ومن شقى . صلاة تستغرق العد وتحيط بالحد . صلاة لا غاية لها ولا منتهى ولا انقضاء . صلاة دائمة بدوامك ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما مثل ذلك » (3) .

ومنها :

« اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضاء ولحقه أداء . وأعطه الوسيلة والمقام الذى وعدته » (4) .

« اللهم إنى اسألك بك أن تصلى على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء

---

(1) وهذه الصلاة الحافلة المتجلية هى لدى الفاكهانى صاحب كتاب « الفجر المنير فى الصلاة على البشير النذير » .

(2) هذه الصلاة ذكرها الزبيدى فى مختصر البخارى فى كتابه « الصلات والعوائد » وقال عنها بعض الصالحين أنها مجرية فى تفريج الكرب .

(3) ذكر شرح « الدلائل » أن سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ختم بهذه الصلاة حزبه .

(4) ورد عن هذه الصلاة كما يقول الشعرانى : أن النبى ﷺ قال : « من قالها فقد وجبت له شفاعتى » .

والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين ، وأن تغفر لى ما مضى وتحفظنى فيما بقى » [1] .

وفى حديث فضالة أن النبى ﷺ قال :

« إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى ، ثم يدعو بما شاء » [2] .

* * *

---

(1) وهذه الصلاة لسيدى إبراهيم المتبولى .

(2) رواه أحمد وصححه الترمذى ، وابن حبان والحاكم .

الفصل الثالث

فى الدعاء

الذكر من نوافل الركن الأول من أركان الإسلام :

والصلاة على رسول الله، ﷺ من نوافل الركن الأول من أركان الإسلام ، والدعاء أيضا من نوافل الركن الأول من أركان الإسلام : إن مثله كمثل الذكر ، إنه التحقق بالافتقار إلى الله سبحانه وتعالى ، والاستغناء عما سواه ، أو هو من أظهر مظاهر تحقيق العبودية، أو هو تنفيذ :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (1) .

وما من شك فى أنه كل ذلك ، ولهذا كانت مكانته سامية ، وكان عبادة مفضلة مقبولة إن شاء الله .

ولقد عبر الله سبحانه عن الدعاء بالذكر ، فقال سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ (2) .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(3) .

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (4) .

ولقد ذكرت الأحاديث النبوية الشريفة مكانته ، وحثت عليه الآيات القرآنية الكثيرة ، والأحاديث النبوية المستفيضة .

ويذكر القرآن وتذكر السنة ألوانا من صيغه كثيرة ، ويتحدث القرآن وتتحدث السنة عن زواياه المتعددة فتكون لنا صورة كاملة عنه .

فضل الدعاء :

عن أبى هريرة رضى الله عنه - فيما أخرجه الإمام أحمد والترمذى - عن النبى ﷺ ، قال :

---

(1) الفاتحة : 4 . (2) البقرة : 200 .

(3) البقرة : 201 . (4) البقرة : 202 .

« ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض » [١] .

وعن النعمان بن بشير ، رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال :

« الدعاء هو العبادة » ، ثم قرأ :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [٢] .

وروى عن أنس رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « الدعاء مخ العبادة » رواه الترمذى .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة الا آتاه الله تعالى إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » .

فقال رجل من القوم : «إذًا نكثر» قال : «الله أكثر» رواه الترمذى ، والحاكم .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل فى مسألة إلا أعطاها إياه : إما أن يعجلها له ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة » [٣] .

وعن جابر بن عبدالله ، رضى الله عنهما عن النبى ، ﷺ قال : « يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه ، فيقول :

عبدى إنى أمرتك أن تدعونى ، ووعدتك أن أستجيب لك . فهل كنت تدعونى ؟ فيقول : نعم يارب .

فيقول : أما إنك لم تدعنى بدعوة إلا استجبت لك ، أليس دعوتنى يوم كذا وكذا ، لغمٍّ نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ، ورواه أبو يعلى من حديث على .

(٢) رواه أبو داود ، والترمذى ، وقال حديث صحيح والآيات من سورة غافر : ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) رواه أحمد رضى الله عنه .

فيقول : نعم يارب .

فيقول : إنى عجلتها لك فى الدنيا .

ودعوتنى يوم كذا وكذا لغمٍّ نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجا ؟

قال : نعم يارب .

فيقول : إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا .

ودعوتنى فى حاجة أن أقضيها لك فى يوم كذا وكذا فقضيتها ؟

فيقول : نعم يارب .

فيقول : إنى عجلتها لك فى الدنيا .

ودعوتنى يوم كذا وكذا فى حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها ؟

فيقول : نعم يارب .

فيقول : إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا .

قال رسول الله ، ﷺ .

« فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بيَّن له : إما أن يكون عجل له فى الدنيا ، وإما أن يكون ادخر له فى الآخرة ، قال : فيقول المؤمن فى ذلك المقام : يا ليته لم يكن عجل له شىء من دعائه » [1] .

وعن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى :

« يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا ، لأتيتك بقرابها مغفرة » [2] .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يقول : « أنا عند حسن ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا دعانى » [3] .

---

(١) رواه الحاكم .

(٢) رواه أحمد والحاكم .

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

طلب الدعاء :

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُون ﴾ (1) .

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين ﴾ (2) .

وقال تعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (3) .

وقال تعالى :

﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (4) .

وقال سبحانه :

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين ﴾ (5) .

﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (6) .

وقال تعالى :

﴿ هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين ﴾ (7) .

---

(1) البقرة آية : ١٨٦ .
(2) غافر آية : ٦٠ .
(3) النمل آية : ٦١ .
(4) النساء آية : ٣١ .
(5) الأعراف آية : ٥٥ .
(6) الأعراف آية : ٥٥ ، ٥٦ .
(7) غافر آية : ٦٥ .

فضله :

وعن أبى صالح – فيما أخرجه ابن ماجه – قال :

قال رسول الله ﷺ :

« من لم يسأل الله يغضب عليه » .

وعن عبدالله – فيما أخرجه الترمذى – قال : قال رسول الله ﷺ :

« سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » .

وعن أبى ذر [1] رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال :

«يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا».

يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم .

يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم .

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم .

يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد

---

(١) حينما كان أبو إدريس الخولانى يروى هذا الحديث بالذات فإنه كان يتخذ هيئة مخصوصة إجلالا للحديث . لقد كان يجثو على ركبتيه أولا ثم يبدأ الحديث .

فسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

« يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله عز وجل ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (١) .

الدعاء والقضاء :

وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر ، وأن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يذنبه » (٢) .

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر » (٣) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« لا يغنى حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما ينزل ومما لم ينزل ، وان البلاء لينزل فيلقاه الدعاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة » (٤) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل الله شيئا - يعنى - أحب إليه من أن يسأل العافية ».

وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء » (٥) .

ويقول الإمام الغزالى :

فإن قلت : ما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له ؟

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم .

(٣) رواه الترمذى .

(٤) رواه البزار ، والطبرانى ، والحاكم .

(٥) رواه الترمذى ، والحاكم .

فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء واستجلاب الرحمة ، فالدعاء سبب لرد البلاء كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض ، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان ، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى ألا يحمل السلاح ، وقد قال تعالى :

﴿ خذوا حذركم ﴾ (١) .

وألا تسقى الأرض بعد بث البذر ، فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر، وإن لم يسبق لم ينبت ، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول .

«وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر . فالذى قدر الخير قدره لسبب . والذى قدر الشر قدر لدفعه سببا ، فلا تناقض فى هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته» أ هـ .

ثمرة الدعاء :

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تعجزوا فى الدعاء، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد » (٢) .

وعن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن النبى ، ﷺ قال :

« ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث :

إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها .

قالوا : إذا نكثر ؟

قال : الله أكثر (٣) » .

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له بالرزق عاجل أو آجل » (٤) .

---

(١) النساء : ٧١ .   (٢) رواه ابن حبان والحاكم .

(٣) رواه أحمد ، والبزار وأبو يعلى ، والحاكم .

(٤) رواه أبو داود ، والترمذى ، والحاكم .

استجابة الدعاء :

عن سلمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله حيى كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين » (١) .

فإذا أردت الاستجابة فابدأ :

١ - بالتوبة الخالصة النصوح .

٢ - وتحرَّ الحلال .

فعن ابن عباس ، فيما أخرجه الحافظ ابن مردويه ، تليت هذه الآية عند النبى ، ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا ﴾ (٢) .

فقام سعد بن أبى وقاص فقال :

يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال :

« يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

ويقول الشاذلى رضى الله عنه :

إذ أردت أن يستجاب لك أسرع من لمح البصر فعليك بخمسة أشياء .

١ - الامتثال للأمر .

٢ - الاجتناب للنهى .

٣ - تطهير السر .

٤ - جمع الهمة .

٥ - الاضطرار .

وخذ ذلك من قوله تعالى :

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذى ، وحسنه .

(٢) البقرة : ١٦٨ .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [1] .

فالمحروم من يدعوه وقلبه مشغول بغيره .

فاحذر هذا الباب جدا ، فإن لم تستطع أن تتصف بالخمسة أشياء ، فعليك بالخلوة عن الناس ، واذكر ما شاء الله من قبائحك وأفعالك ، واحتقر جميع أعمالك ، وقدم إليه ما علمته من جميل ستره عليك ، وقل :

يا الله يا منان يا كريم ياذا الفضل ، من لهذا العبد العاصى غيرك وقد عجز عن النهوض إلى مرضاتك ، وقطعته الشهوة عن الدخول فى طاعتك ، لم يبق له حبل يتمسك به سوى توحيدك ، وكيف يجترئ على السؤال من هو معرض عنك ، أم كيف لا يسأل من هو محتاج إليك ، وقد مننت علىَّ الآن بالسؤال منك ، وجعلت حسبى الرجاء فيك ، فلا تردنى خائبا من رحمتك يا كريم ، وقد جعلت لأسمائك حرمة ، فمن دعاك بها لا يشرك بك شيئا أجبته ، فبحرمة أسمائك يا الله يا ملك يا قدوس يا سلام يا مؤمن يا مهيمن يا عزيز يا جبار يا متكبر يا خالق يا بارئ يا مصور ، قنى من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل والشك وسوء الظن وضلع الدين وغلبته ، وقهر الرجال ، فإن لك الأسماء الحسنى ، وقد سبح لك ما فى السموات والأرض وأنت العزيز الحكيم .

« اللهم إنى أسألك خيرات الدنيا وخيرات الدين ، خيرات الدنيا بالأمن والرفق والصحة والعافية ، وخيرات الدين بالطاعة لك ، والتوكل عليك ، والرضا بقضائك ، والشكر على آلائك ونعمك إنك على كل شىء قدير » أ هـ .

وروى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال :

« لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل ، قيل: يا رسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : يقول قد دعوت ، وقد دعوت فلم أرَ يستجيب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء [2] .

---

(١) النمل : ٦٢ .

(٢) رواه مسلم .

الدعاء فى الرخاء :

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ، ﷺ قال :

« من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء فى الرخاء »[1] .

دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب :

عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك : ولك بمثل »[2].

وعنه أن رسول الله ﷺ ، كان يقول :

« دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل : آمين ولك بمثل »[3].

وعن صفوان بن عبدالله فيما رواه الإمام مسلم - قال :

قدمت الشام ، فأتيت أبا الدرداء فى منزله ، فلم أجده، ووجدت أم الدرداء .

فقالت : أتريد الحج العام ؟

فقلت : نعم .

فقالت : ادع لنا بخير ، فإن رسول الله ﷺ كان يقول :

دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب[4] مستجابة ، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير ، قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل ».

قال : فخرجت إلى السوق فلقيت أبا الدرداء ، فقال لى مثل ذلك يرويه عن النبى ﷺ .

---

(١) رواه الترمذى والحاكم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) أى فى حالة غيبة أخيه .

ثلاثة لا ترد دعوتهم :

وروى الترمذى وحسنه أن النبى ﷺ ، قال :

« ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حين يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

دعوات مستجابات :

وروى الإمام أحمد ، والترمذى وحسنه ، أن النبى ﷺ ، قال :

« ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن :

دعوة الوالد ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم »

العزم فى الدعاء :

وعن أبى هريرة - فيما رواه الإمام مسلم ، قال :

قال النبى ﷺ : « لا يقولن أحدكم ، اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم فى الدعاء ، فإن الله صانع ما شاء لا مكره له » .

مسح الوجه باليدين بعد رفعهما فى الدعاء :

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه - فيما رواه الترمذي - قال :

كان رسول الله ﷺ ، إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه .

أوقات الدعاء وأماكنه :

والدعاء يصح فى كل وقت ، بيد أن هناك أوقاتا وأماكن أرجى فى قبول الدعاء من غيرها ، وقد ذكر رسول الله ﷺ ، أوقاتا للدعاء ، منها ثلث الليل الأخير، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

«ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول :

من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟»

رواه البخارى .

ولقد سئل رسول الله : ﷺ ، عن : أى الدعاء أسمع ؟ فقال :

« جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة » رواه الترمذى وحسنه .

وروى مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ، ﷺ :

« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء » .

ونقل البيهقى فى السنن الكبرى عن الإمام الشافعى ، أنه قال : بلغنا أنه كان يقال :

« إن الدعاء ، يستجاب فى خمس ليال ، فى ليلة الجمعة ، وليلة الأضحى ، وليلة الفطر ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان » .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

« ساعتان لا ترد على داع دعوته : حين تقام الصلاة ، وفى الصف فى سبيل الله » رواه ابن حبان فى صحيحه .

الأماكن الطاهرة المباركة ، وأشرفها الحرم المكى والحرم المدنى ، والمسجد الأقصى .

ويذكر الإمام الغزالى آدابا للدعاء منها :

أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة : كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل ، قال تعالى :

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (1) .

وقال ﷺ :

« ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول عز وجل :

من يدعونى فأستجيب له ؟

من يسألنى فأعطيه ؟

---

(1) الذاريات : 18 .

من يستغفرنى فأغفر له ؟ » [1] .

ومنها أن يغتنم الأحوال الشريفة . قال أبو هريرة رضى الله عنه :

إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله ، وعند نزول الغيث ، وعند إقامة الصلوات المكتوبة ، فاغتنموا الدعاء فيها .

وقال مجاهد :

« إن الصلاة جعلت فى خير الساعات ، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات » .

وقال ﷺ :

« الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد » [2] .

وقال ﷺ أيضا :

« الصائم لا ترد دعوته » [3] .

ويتابع الإمام الغزالى حديثه فيقول :

وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضا ، إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه ، وفراغه من المشوشات ، ويوم عرفة ، ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم ، وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل .

فهذا أحد أسباب شرف الأوقات ، سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها ، وحالة السجود أيضا أجدر بالإجابة . قال أبو هريرة رضى الله عنه ، قال النبى ﷺ :

« أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد ، فأكثروا فيه من الدعاء » [4] .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال [5] :

« إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا وساجدا ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقمن أن يستجاب لكم » [6] .

---

(١) رواه الشيخان .
(٢) رواه الحاكم وصححه .
(٣) رواه الترمذى وحسنه .
(٤) رواه مسلم .
(٥) رواه مسلم .
(٦) أنظر إحياء علوم الدين .

صيغ الدعاء :

وخير ما نبدأ به من هذه الصيغ هو بعض ما ورد فى القرآن الكريم ، ثم نثنى ببعض ما ورد عن رسول الله ﷺ .

وما من شك فى أن الدعاء القرآنى كثير مستفيض ، وفى أن دعاء رسول الله ﷺ ، متعدد متنوع .

ولقد كان رسول الله ، ﷺ ، يدعو بما يتناسب مع الوضع الذى هو فيه زمانا كان ، أو مكانا ، أو حالة نفسية ، أو اجتماعية .

بل لقد كان له فى كثير من الحالات أدعية عدة لكل حالة بذاتها تتفاوت طولا وقصرا ، وتختلف معنى ولفظا .

من الدعاء فى القرآن :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴾ .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٣) .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة آية : ٦٧ .

(٢) البقرة آية : ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٣) البقرة آية : ٢٠١ .

(٤) البقرة آية : ٢٥٠ .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢) .

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٣) .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾(٤).

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٥) .

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦) .

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٧) .

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٨) .

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (٩) .

---

(١) البقرة آية : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) آل عمران آية : ٨ .

(٣) آل عمران آية : ١٦ .

(٤) آل عمران آية : ٣٨ .

(٥) آل عمران آية : ٥٣ .

(٦) آل عمران آية : ١٤٧ .

(٧) آل عمران : ١٩١ .

(٨) آل عمران آية : ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٩) النساء آية : ١٧٥ .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (١) .

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣).

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(٤).

﴿ قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ (٥) .

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦) .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (٧) .

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾(٨) .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (٩) .

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (١٠) .

---

(١) المائدة آية : ٨٣ .

(٢) المائدة آية : ١١٤ .

(٣) الأعراف آية : ٤٧ .

(٤) الأعراف آية : ١٢٦ .

(٥) الأعراف آية : ١٥١ .

(٦) يونس آية : ٨٥ .

(٧) إبراهيم آية : ٤٠ ، ٤١ .

(٨) الكهف آية : ١٠ .

(٩) طه آية : ٢٥ ، ٢٨ .

(١٠) طه آية : ١١٤ .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (١) .

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾(٤).

﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٥) .

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ .

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (٦) .

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾(٧).

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ .

﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ .

---

(١) الأنبياء آية : ٨٧ ، ٩٠ .

(٢) المؤمنون آية : ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) المؤمنون آية : ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) المؤمنون آية : ١٠٩ .

(٥) المؤمنون ١١٨ .

(٦) الفرقان آية : ٦٥ ، ٦٦ .

(٧) الفرقان آية : ٧٤ .

﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ .

﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ .

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ .

﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (1).

﴿ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ (2).

﴿ قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (3).

﴿ فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ (4).

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ .

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (5).

﴿ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ (6).

﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ (7) .

﴿ قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴾ (8) .

---

(1) الشعراء آية : ٨٣ فى ٨٩ .

(2) النمل آية : ١٩ .

(3) القصص آية : ١٦ .

(4) القصص آية : ٢١ .

(5) غافر آية : ٧ ، ٨ .

(6) غافر آية : ٤٤ .

(7) الدخان آية : ١٢ .

(8) الاحقاف آية : ١٥ .

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) .

﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ (٥) .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ (٦) .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾ (٧) .

---

(١) النجم آية : ٥٨ .

(٢) الحشر آية : ١٠ .

(٣) الممتحنة آية ٤، ٥ .

(٤) التحريم : ٨ .

(٥) سورة الفلق .

(٦) سورة الناس .

(٧) سورة الفاتحة .

من دعـاء الـرسـول ﷺ

استفتاح الدعاء واسم الله الأعظم :

عبدالله بن بريدة ، عن أبيه ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ، سمع رجلا يقول :

« اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » فقال :

« لقد سألت الله بالاسم الأعظم ، الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب » (١) .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال . سمع النبى ﷺ : رجلا وهو يقول ،

« يا ذا الجلال والإكرام » .

فقال : قد استجيب لك فسل (٢) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : مر النبى ﷺ ، بأبى عياش زيد بن الصامت الزرقى ، وهو يصلى وهو يقول :

اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، يا حنان ، يا منان ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حى ، يا قيوم .

فقال رسول الله ، ﷺ :

« لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » (٣) .

---

(١) رواه الترمذى وحسنه . وقال الحافظ أبو الحسن المقدسى : إسناده لا مطعن فيه . ولم يرد فى هذا الباب حديث أجود إسنادا منه .

(٢) رواه الترمذى وحسنه .

(٣) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم :

وعن سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ، ﷺ .

« دعوة ذى النون إذ دعاه وهو فى بطن الحوت ، ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » [1] .

وعن أسماء بنت يزيد - فيما أخرجه الترمذى وقال عنه حديث حسن صحيح - أن النبى ﷺ ، قال :

« اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين :

« وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » .

وفاتحة آل عمران ﴿ الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ ﴾ [2] .

القلوب بيد الله :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما قال : قال الله ﷺ .

« اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » [3] .

وعن شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة رضى الله عنها : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله ، ﷺ ، إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه ، «يا مقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك» [4] .

وإذا أسلم الرجل :

أخرج الإمام مسلم عن أبى مالك الأشجعى قال : كان الرجل إذا أسلم علمه النبى ﷺ الصلاة ، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات :

اللهم اغفر لى وارحمنى ، واهدنى وعافنى وارزقنى .

وفى رواية أخرى عنه : أنه سمع النبى ﷺ ، وأتاه رجل فقال :

يا رسول الله ، كيف أقول حين أسأل ربى ؟

---

(١) رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٢) آل عمران : ١ ، ٢ .

(٣) رواه مسلم .   (٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

قال : قل : اللهم اغفر لى وارحمنى ، وعافنى وارزقنى ، ويجمع أصابعه إلا الإبهام ، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك .

وفيما أخرجه الترمذى وحسنه ، عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ، ﷺ لأبى : يا حصين ، كم تعبد اليوم إلها ؟ .

قال أبى : سبعة ، ستا فى الأرض ، وواحدا فى السماء .

قال : فأيهم الذى يعد لرهبتك ورغبتك ؟

قال : الذى فى السماء .

قال : يا حصين ، أما إنك لو أسلمت لعلمتك كلمتين تنفعانك.

قال : فلما أسلم حصين قال : يا رسول الله : علمنى الكلمتين اللتين وعدتنى .

فقال : قل ، اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى .

سلوا الله العافية :

وعن أبى الفضل العباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، علمنى شيئا أسأله الله تعالى قال : سلوا الله العافية . فمكثت أياما ثم جئت فقلت : يا رسول الله علمنى شيئا أسأله الله تعالى . قال لى : عباس يا عم رسول الله ، سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة [(1)] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أى الدعاء أفضل ؟

قال : سل ربك العافية فى الدنيا والآخرة .

ثم أتاه فى اليوم الثانى فقال :

يا رسول الله ، أى الدعاء أفضل ؟ فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه فى اليوم الثالث فقال مثل ذلك .

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث صحيح .

فقال له :

« إذا أعطيت العافية فى الدنيا وأعطيتها فى الآخرة ، فقد أفلحت » [١] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة .

قالوا : فماذا نقول يا رسول الله ؟

قال : سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة [٢] .

وعن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال :

لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى :

اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى .

اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، واحفظنى من بين يدى ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى . قال: يعنى الخسف [٣] .

وسمع رسول الله ﷺ ، رجلا وهو يقول: اللهم إنى أسألك الصبر فقال، ﷺ، سألت البلاء ، فاسأله العافية [٤] .

ومن أجل هذه التوجيهات النبوية الكريمة فى مسألة العافية أثبت أبو الحسن الشاذلى فى حزبه الكبير هذه الصيغة :

اللهم إنا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ، ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك العافية من كل بلية ، ونسألك تمام العافية ، ونسألك دوام العافية ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذى وقال هذا حديث حسن .

(٢) أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن .

(٣) أخرجه الإمام أحمد ، وابن ماجه .

(٤) أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن .

دعاء الصباح والمساء :

أخرج البخارى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، كان إذا استيقظ ، وفى رواية : أصبح ، قال :

« الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

وفى الصباح أيضا قل :

« أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

ويقول :

رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ ، نبيا ورسولا .

وفى المساء يقول كما يقول فى الصباح مع تغيير كلمة «أصبحنا» بكلمة «أمسينا» .

روى ابن السنى عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال :

من قال فى كل يوم حين يصبح وحين يمسى :

« حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » سبع مرات كفاه الله تعالى ما همه من أمر الدنيا والآخرة .

وروى الترمذى حديثا حسنا صحيحا عن ثوبان : أن رسول الله ﷺ ، قال :

من قال حين يمسى وإذا أصبح : رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ، كان حقا على الله أن يرضيه .

وروى الترمذى حديثا حسنا صحيحا ، عن أبى هريرة ، أن أبا بكر الصديق ، قال لرسول الله ﷺ :

مرنى بشىء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت .

قال : « قل : اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض رب كل شىء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشركه، وأن نقترف سوءا على أنفسنا أو نجره على مسلم .

قله إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا اخذت مضجعك ».

وأخرج البخارى عن شداد بن أوس الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال :

« سيد الاستغفار أن يقول العبد : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوى إلا أنت .

من قالها فى أول النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل موقنا بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة .

وفيما أخرجه البخارى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال :

كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال :

« باسمك اللهم أحيا وأموت » .

عند النوم :

عن حذيفة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يرقد وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول : اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك [1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة أزاره فإنه لا يدرى ما خلفه عليه ، ثم يقول .

« باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » [2] .

وقال شداد بن أوس [3] لرجل من بنى حنظلة :

ألا أعلمك ما كان رسول الله ﷺ يعلمنا أن نقول :

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد رضى الله عنه ، والترمذى ، والنسائى .

اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، وأسألك عزيمة الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وحسن عبادتك ، وأسألك لسانا صادقا ، وقلبا سليما ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأسألك من خير ما تعلم ، واستغفرك مما تعلم، إنك أنت علام الغيوب.

قال :

وقال رسول الله ﷺ : ما من مسلم يأخذ مضجعه ، فيقرأ سورة من كتاب الله عز وجل إلا وكل الله عز وجل به ملكا فلا يقربه شىء يؤذيه حتى يهب متى هب .

دعاء يقال عن الكرب من أجل الفرج :

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله ، رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم (١) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

كان النبى ﷺ ، إذا كربه أمر قال :

« يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث » (٢) .

وروى أبو داود فى سننه عن أبى بكر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

دعوات المكروب : « اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت» .

عند الوجع :

إذا وجدت وجعا فى جسدك: فضع يدك على الذى يتألم من جسدك : وقل:

« بسم الله (ثلاثا) . وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » (٣) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه الترمذى .

(٣) رواه الإمام مسلم .

النهى عن تمنى الموت :

أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

« لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه ، فإذا كان لابد فاعلا فليقل : اللهم أحينى ما دامت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى » .

فإذا أصابك هم فقل :

اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو أعلمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء غمى ، وذهاب حزنى وهمى .

قال صلى الله عليه وسلم : ما أصاب أحدا حزن فقال ذلك إلا أذهب الله همه ، وأبدله مكانه فرحا .

فقيل ، يا رسول الله . أفلا نتعلمها ؟

فقال ﷺ : بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها (١) .

إذا خفت قوما . فقل :

اللهم إنا نجعلك فى نحورهم . ونعوذ بك من شرورهم (٢) .

إذا رأيت شيئا تكرهه :

ليس التشاؤم من الإسلام فى شىء ، ومع ذلك فإنه إذا رأى الإنسان ما يكره على أى وضع كان فليقل - كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ : -

اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) إسناد صحيح من حديث أبى موسى .

عند الصواعق كما رواه بن السنى بإسناد حسن :

« اللهم لا تقتلنا بغضبك . ولا تهلكنا بعذابك . وعافنا قبل ذلك » .

عند سماع الرعد كما رواه الإمام مالك موقوفا على عبدالله بن الزبير:

« سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » .

عند الفزع فى النوم :

فيما أخرجه الإمام أحمد والترمذى . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. أن النبى ﷺ قال :

« إذا فزع أحدكم فى النوم ، فليقل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » فإنها لن تضره .

قال : وكان عبدالله بن عمرو يلقنها من بلغ من ولده . ومن لم يبلغ منهم كتبها فى صك ، ثم علقها فى عنقه .

للحفظ فى المكان :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

جاء رجل إلى النبى ﷺ . فقال : يا رسول الله ما لقيت من عقرب لدغتنى البارحة .

قال : أما لو قلت حين أمسيت :

« أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » . لم يضرك شىء [١] .

وعن خولة بنت حكيم السلمية رضى الله عنها ، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إذا نزل أحدكم منزلا فليقل :

« أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » .

فإنه لا يضره شىء حتى يرتحل منه [٢] .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

عند دخول المنزل :

روى الإمام مسلم عن جابر رضى الله عنه ، قال :

سمعت رسول الله ﷺ ، يقول :

إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله ، وعند طعامه ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء .

وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله ، قال الشيطان : أدركتم المبيت ، فإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه ، قال : أدركتم المبيت والعشاء .

عند الخروج من المنزل :

روى أبو داود عن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ . قال :

من قال : - يعنى إذا خرج من بيته - باسم الله . توكلت على الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله . يقال له : كفيت ووقيت ، وهديت . وتنحى عنه الشيطان . فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى .

عند رؤية ما يسره :

عن أنس رضى الله عنه - فيما رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد - أن رسول الله ﷺ ، كان إذا رأى ما يسره قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

وإذا رأى ما يسوءه قال :

« الحمد لله على كل حال » .

أما النصيحة القرآنية لكل من رأى ما يسره من أهله أو ماله فهى أن يقول :

ما شاء الله لا قوة الا بالله .

وهذه الكلمة القرآنية الكريمة من خصائصها ، المنع من الحسد ، ومن خصائصها الحفظ والزيادة .

عند الشروع فى أمر :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [1] .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ [2] .

عند دخول السوق :

روى الحاكم بإسناد قال عنه صحيح على شرط الشيخين أن السنة عند دخول السوق أن يقول الإنسان :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حى لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير » .

عند الشراء يقول :

اللهم إنى أسألك خيره ، وخير ما جبل عليه ، وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه .

فإذا لبست ثوبا جديدا؟

روى الترمذى بإسناد حسن عن رسول الله ﷺ قوله :

اللهم كسوتنى هذا الثوب فلك الحمد ، أسألك من خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له .

عند النظر إلى السماء :

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [3] .

عند القيام من المجلس :

روى عن رسوله الله ﷺ بإسناد حسن أن كفارة المجلس أن يقول الإنسان عند القيام :

---

(١) الكهف آية : ١٠ .

(٢) طه آية : ١٥ ، ١٦ .

(٣) آل عمران آية : ١٩١ .

« سبحانك اللهم وبحمدك ،، أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك واتوب إليك » .

وفيما رواه الترمذى وحسنه أن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ، قال :

قلّ ما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه :

« اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعل الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على أعدائنا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » .

إذا هبت الريح :

وإذا هبت الريح يقول ، فيما رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح :

اللهم إنى أسألك خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، ونعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به .

وعند رؤية الهلال :

عند رؤية الهلال - فيما رواه الترمذى وحسنه .

اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله .

عند السفر :

عن على بن عبدالله الأزدى رضى الله عنه - فيما أخرجه الإمام مسلم - أن ابن عمر رضى الله عنهما . علمهم أن رسول الله ﷺ . كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفره :

كبر ثلاثا ، ثم قال : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين [1] ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون .

---

(١) مقرنين : مستطيعين تسخيره .

اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى. اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو بعده ، اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر [1] ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب فى المال والأهل والولد .

وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : آيبون [2] تائبون عابدون لربنا حامدون .

وعندما يودع شخصا :

كان رسول الله ﷺ ، يودعنا فيقول : استودع الله دينك وأمانتك ، وخواتيم عملك [3] .

دعاء لسداد الدين :

عن على رضى الله عنه ، أن مكاتبا جاءه فقال : إنى عجزت عن كتابتى فأعنى ، قال :

الا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كانت عليك مثل جبل دينا أداه الله عنك ؟

« قل اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك » [4].

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

دخل رسول الله ﷺ ، ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة فقال له :

يا أبا أمامة : مالى أراك فى المسجد فى غير وقت الصلاة ؟

فقال : هموم لزمتنى وديون ، يا رسول الله .

فقال ﷺ : ألا أعلمك كلاما إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل عنك همك ، وقضى عنك دينك .

---

(١) وعثاء : مشقة .

(٢) آيبون : راجعون .

(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

قلت : بلى يا رسول الله .

قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال .

قال : ففعلت ذلك ، فأذهب همى ، وقضى عنى دينى [1] .

جزاء المعروف :

عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ .

من صنع إليه معروف فقال لفاعله : جزاك الله خيرا فقد أبلغ فى الثناء [2] .

فإذا استصعب عليه أمر :

روى ابن السكنى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال :

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا ، وأنت تجعل الحزن سهلا .

كفارة الغيبة :

وقال ﷺ :

إن كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته ، تقول :

اللهم اغفر لنا وله .

من أجل عدم إصابة البلاء :

عن بسر بن أرطأة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

اللهم أحسن عاقبتى فى الأمور كلها ، وأجرنى من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

وقال : من كان ذلك دعاؤه مات قبل أن يصيبه البلاء [3] .

---

(١) أخرجه أبو داود .

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

(٣) رواه الطبرانى بإسناده فى المعجم الكبير .

دعاء المغفرة فى الصلاة وفى البيت وفى غير ذلك :

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، وفى رواية - وفى بيتى - قال :

قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم (١) .

عند الخروج إلى المقابر :

أخرج الإمام مسلم ، عن سليمان بن بريدة عن أبيه ، قال :

كان رسول الله ﷺ ، يعلمهم ، إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم :

« السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون ، أسأل الله لنا ولكم العافية » .

الجوامع من الدعاء :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ ، يستحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك (٢) .

من جوامع الدعاء :

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا ، قلنا : يا رسول الله ، دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا ؟ فقال : ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله تقول :

« اللهم إنى أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ ، وأنت المستعان ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » (٣) .

وعنه رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يقول :

---

(٢) متفق عليه .

(٢) رواه أبو داود بإسناد جيد .

(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » [1] .

وروى الحاكم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال :

أتحبون أيها الناس أن تجتهدوا فى الدعاء ؟

قالوا : نعم يا رسول الله .

قال : قولوا اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ :

« اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » [2] .

وعن عمران بن الحصين رضى الله عنهما ، أن النبى ﷺ ، علم أباه حصينا كلمتين يدعو بهما : « اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى » [3] .

وأخرج الترمذى وحسنه ، عن قطبة بن مالك رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ يقول :

« اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء » .

وعن عائشة رضى الله عنها ، أن النبى ﷺ ، كان يقول فى دعائه :

« اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر مالم أعمل » [4] .

وروى الإمام مسلم رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يقول :

« اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها » [5] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الحاكم أبو عبدالله وقال حديث صحيح على شرط مسلم .

(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :

تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء (١) .

وفيما أخرجه الإمام مسلم ، عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، أنه كان يقول :

« اللهم إنى أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى » .

وفيما أخرجه الإمام مسلم رضى الله عنه أن السيدة عائشة رضى الله عنها سئلت عن دعاء كان يدعو به رسول الله ﷺ ، قالت :

كان يقول: « اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت ، ومن شر ما لم أعمل ».

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : قل : اللهم اهدنى وسددنى .

وفى رواية : قل : اللهم إنى أسألك الهدى والسداد ، واذكر بالهدى هدايتك الطريق ، وبالسداد سداد السهم (٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ، كان يقول :

اللهم لك أسلمت . وبك آمنت ، وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، لا إله إلا أنت .

زاد بعض الرواة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله (٣) .

وروى الشيخان بسندهما عن أبى موسى عبدالله بن قيس رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، أنه كان يدعو بهذا الدعاء :

اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى .

اللهم اغفر لى جدى وهزلى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى .

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ومسلم .

(٣) متفق عليه .

اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شىء قدير .

وأخرج الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال :

علمنى رسول الله ﷺ ، قال : قل :

اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى ، واجعل علانيتى صالحة .

« اللهم إنى أسألك من صالح ما تؤتى الناس من المال والأهل والولد غير الضال ولا المضل » .

وفيما أخرجه الإمام مسلم رضى الله عنه عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، قال :

كان من دعاء رسول الله ﷺ :

« اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك » .

وروى الإمام مسلم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

قل : اللهم اهدنى وسددنى .

وفى رواية ، قل : اللهم إنى أسألك الهدى والسداد .

واذكر بالهدى هدايتك الطريق ، وبالسداد : سداد السهم.

دعاء عرفة :

روى الترمذى بسنده أن النبى ﷺ قال :

« خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » .

وعن على رضى الله عنه قال :

« أكثر ما دعا به رسول الله ﷺ ، عشية عرفة فى الموقف : اللهم لك الحمد كالذى نقول ، وخيرا مما نقول ، لك صلاتى ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، وإليك مآبى ولك رب تراثى ، اللهم أعوذ بك من شر ما تجىء به الريح » .

وقد روى أيضا ، أن رسول الله ﷺ كان يقول :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم اجعل فى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وفى قلبى نورا ، اللهم اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، اللهم أعوذ بك من وسواس الصدر ، وشتات الأمر ، وفتنة القبر ، وشر ما يلج فى الليل ، وشر ما يلج فى النهار ، وشر ما تهب به الرياح ومن شر بوائق الدهر » .

ومن دعاء يوم عرفة أيضا قوله ﷺ :

« اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل المشفق المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، دعاء من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه . اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن بى رءوفا رحيما يا خير المسئولين ، وأكرم المعطين » .

ما يجمع الدنيا والآخرة :

عن طارق أنه سمع النبى ﷺ ، وأتاه رجل فقال : يا رسول الله ، كيف أقول حين أسأك ربى ؟ قال :

قل : اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى ، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك [1] .

من أقامهن دخل الجنة :

فيما أخرجه الإمام أحمد والترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال :

كان النبى ﷺ ، إذا أنزل عليه الوحى سمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل عليه يوما فمكثنا عنده ساعة ، فسرى عنه ، فاستقبل القبلة ورفع يديه ، وقال :

---

(١) رواه مسلم .

اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، واعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا .

ثم قال ﷺ : أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) ﴾ [١] .

لا تدعوا على أنفسكم :

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ، ﷺ :

« لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم » [٢] .

صلاة الاستخارة ودعاؤها :

أخرج الإمام أحمد والإمام البخارى عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال :

كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول :

إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل :

اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، أو قال عاجل أمرى وآجله ، فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه .

---

(١) المؤمنون : ١ - ١٠ .

(٢) رواه مسلم .

اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، أو قال فى عاجل أمرى وآجله فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به . ويسمى حاجته .

صلاة الحاجة ودعاؤها :

يقول الإمام الدهلوى :

والأصل فيها أن الابتغاء من الناس ، وطلب الحاجة منهم مظنة أن يرى إعانة ما من غير الله تعالى فيخل بتوحيد الاستعانة ، فشرع لهم صلاة ودعاء ، ليدفع عنهم هذا الشر ، ويصير وقوع الحاجة مؤيدا له فيما هو بسبيله من الإحسان .

فسن لهم أن يركعوا ركعتين . ثم يثنوا على الله ، ويصلوا على النبى ﷺ ثم يقولوا :

« لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين ، أسألك موجبات [1] رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، لا تدع لى ذنبا الا غفرته ، ولا هما إلا فرجته ، ولا حاجة هى لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين » [2] .

التوسل برسول الله ﷺ :

أخرج الترمذى ، فى حديث حسن صحيح ، عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه :

أن رجلا ضرير البصر أتى النبى ﷺ ، فقال : ادع الله أن يعافينى ، قال : إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت فهو خير لك ؟

قال : فادعه ، قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويدعو بهذا الدعاء :

اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى ، اللهم فشفعه فى .

---

(١) الأعمال التى توجب لى رحمتك - وعزائم مغفرتك الأفعال التى تتأكد بها مغفرتك .

(٢) الدهلوى جـ ٢ ص ٤٥٤ .

الذكر والدعاء بغير المأثور

ويصح الذكر والدعاء بغير المأثور ، والأحاديث التالية دليل على ذلك فى جانبى الذكر والدعاء .

عن أنس رضى الله عنه ، قال :

كنت مع رسول الله ﷺ ، جالسا فى الحلقة إذ جاء رجل فسلم على رسول الله ﷺ ، والقوم ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد رسول الله ﷺ :

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

فلما جلس الرجل قال :

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، كما يحب ربنا أن يحمد وينبغى له.

فقال له رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ فرد عليه كما قال : فقال النبى ﷺ :

والذى نفسى بيده ، لقد ابتدرها عشرة أملاك ، كلهم حريص على أن يكتبها، فما دروا كيف يكتبونها حتى رفعوها إلى ذى العزة ، فقال : اكتبوها كما قال عبدى .

رواه أحمد ، ورواته ثقات ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه ، إلا أنهما قالا :

« كما يحب ربنا ويرضى »[1] .

عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما - فيما رواه الإمام أحمد ، وابن ماجه - أن رسول الله ﷺ : حدثهم أن عبدا من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين [2] فلم يدريا كيف يكتبانها .. فصعدا إلى السماء ، فقالا :

---

(١) انظر الترغيب والترهيب (كتاب الذكر والدعاء) .

(٢) أى اشتدت عليهما ، وعظمت ، ولم يدريا ثوابها وجزاءها .

يا ربنا ، إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ؟

قال الله ، وهو أعلم بما قال عبده ، ماذا قال عبدى ؟

قالا : يارب إنه قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك .

فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها .

وقد أخرج أبو داود بسند جيد عن بعض الصحابة ، أن النبى ، قال لرجل : كيف تقول فى الصلاة ؟

قال الرجل : «أتشهد ثم أقول اللهم إنى أسألك الجنة ، وأعوذ بك من النار» ثم قال الرجل للرسول ﷺ : « أما إنى لا أحسن دندنتك (أى نص قولك فى الدعاء) ولا دندنة معاذ .

فقال النبى ﷺ : « حول ذلك ندندن أنا ومعاذ » .

قال الصنعانى ، ففيه أنه يدعو الإنسان بأى لفظ شاء من مأثور وغيره .

دعاء الخليل عليه الصلاة والسلام :

كان يقول إذا أصبح . اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك ، واختمه لى بمغفرتك ورضوانك ، وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى ، وزكها وضعفها لى ، وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لى إنك غفور رحيم ودود كريم .

قال ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه .

دعاء الخضر عليه السلام :

يقال إن الخضر وإلياس عليهما السلام إذا التقيا فى كل موسم لم يفترقا إلا عن هذه الكلمات : باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله ما شاء الله كل نعمة من الله ، ما شاء الله الخير كله بيد الله ، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله ، فمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والسرق إن شاء الله تعالى [1] .

---

(١) عن كتاب إحياء علوم الدين .

ومن ذلك ما كان يدعو به سيدنا عمر بن عبدالعزيز نقلا عن كتاب سيرة عمر بن عبدالعزيز [1] ؟!

اللهم رضنى بقضائك ، وبارك لى فى قدرك ، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت .

وكان عمر بن عبدالعزيز يقول : ما برح بى هذا الدعاء حتى لقد أصبحت ومالى فى شىء من الأمور هوى الا فى مواضع القضاء .

وكان عمر بن عبدالعزيز إذا دخل الكعبة قال : اللهم إنك وعدت الأمان داخل بيتك ، وأنت خير منزول به فى بيته . اللهم اجعل أمان ما تؤمننى به ، أن تكفينى مؤونة الدنيا ، وكل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين .

وكان أيضا يدعو فيقول : اللهم ألبسنى العافية حتى تهنينى المعيشة ، واختم لى بالمغفرة حتى لا تضرنى الذنوب ، واكفنى كل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين .

وكان إذا وقف بعرفات قال : اللهم إنك دعوت إلى حج بيتك ، ووعدت به منفعة على شهود مناسكك ، وقد جئتك . اللهم اجعل منفعة ما تنفعنى به أن تؤتينى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وأن تقينى عذاب النار .

وكان يقول : اللهم لا تعطنى فى الدنيا عطاء يبعدنى من رحمتك فى الآخرة.

وكان يقول : يارب انفعنى بعقلى ، واجعل ما أصير إليه أهم إلى مما ينقطع عنى ، اللهم إنى أحسنت بك الظن فأحسن لى الثواب ، اللهم أعطنى من الدنيا ما تقينى به فتنتها ، وتغنينى به عن أهلها ، وتجعله لى بلاغا إلى ما هو خير لى منها، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك .

دعاء معروف الكرخى رضى الله عنه :

قال محمد بن حسان : قال لى معروف الكرخى رحمه الله ، ألا أعلمك عشر كلمات ، خمس للدنيا وخمس للآخرة ، من دعا الله عز وجل بهن وجد الله تعالى عندهن ، قلت : اكتبها لى ، قال لا ، ولكن أرددها عليك كما رددها على بكر بن

---

(١) تحقيق الأستاذ أحمد عبيد ، طبع ، دار العلم للملايين .

خنيس رحمه الله ، حسبى الله لدينى حسبى الله لدنياى ، حسبى الله الكريم لما أهمنى ، حسبى الله الحليم القوى لمن بغى على ، حسبى الله الشديد لمن كادنى بسوء ، حسبى الله الرحيم عند الموت ، حسبى الله الرؤوف عند المسألة فى القبر ، حسبى الله الكريم عند الحساب ، حسبى الله اللطيف عند الميزان ، حسبى الله القدير عند الصراط ، حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم [١] .

الشاذلى والذكر والدعاء :

وقد أفاض الإمام الشاذلى رضى الله عنه فى الذكر والدعاء مستلهما الكتاب والسنة وسائرا على حدودهما ، نقتطف من ذلك ما يلى :

اللهم إنا نسألك لسانا رطبا بذكرك ، وقلبا مفعما بشكرك ، وبدنا هينا لينا بطاعتك ، وأعطنا مع ذلك مالا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر كما أخبر به رسولك ﷺ حسب ما علمته بعلمك ، وأغننا بلا سبب واجعلنا سبب الغنى لأوليائك ، وبرزخا بينهم وبين أعدائك ، إنك على كل شىء قدير .

اللهم إننا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ، ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك دينا قيما ، ونسألك العافية من كل بلية ، ونسألك تمام العافية ، ونسألك دوام العافية ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس ، اللهم إنا نسألك التوبة الكاملة ، والمغفرة الشاملة ، والمحبة الكاملة الجامعة ، والخلة الصافية ، والمعرفة الواسعة ، والأنوار الساطعة ، والشفاعة القائمة ، والحجة البالغة ، والدرجة العالية ، وفك وثاقنا من المعصية ورهاننا من النقمة بمواهب المنة .

اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ، فذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، واحملنا على النجاة منها ومن التفكر فى طرائقها ، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها ، واستبدلها بالكراهة لها والطعم لما هو بضدها ، وأفض علينا من بحر كرمك وعفوك حتى نخرج من الدنيا على

---

(١) عن كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى .

السلامة من وبالها . واجعلنا عند الموت ناطقين بالشهادة عالمين بها ، وارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها ، وأرحنا من هموم الدنيا وغمومها بالروح والريحان إلى الجنة ونعيمها .

اللهم إنا نسألك توبة سابقة منك إلينا لتكون توبتنا تابعة إليك منا ، وهب لنا التلقى منك كتلقى آدم منك الكلمات ليكون قدوة لولده فى التوبة والأعمال الصالحات ، وباعد بيننا وبين العناد والإصرار والشبه بإبليس رأس الغواة واجعل سيآتنا سيآت من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت فالإحسان لا ينفع مع البغض منك والإساءة لا تعتبر مع الحب منك ، وقد أبهمت الأمر علينا لنرجو ونخاف ، فآمن خوفنا ولا تخيب رجاءنا ، وأعطنا سؤلنا ، فقد أعطيتنا الإيمان من قبل أن نسألك ، وكتبت ، وحببت وزينت وكرهت وأطلقت الألسن بما به ترجمت فنعم الرب أنت فلك الحمد على ما أنعمت ، فاغفر لنا ولا تعاقبنا بالسلب بعد العطاء ولا بكفران النعم وحرمان الرضا .

اللهم رضنا بقضائك وصبرنا على طاعتك وعن معصيتك وعن الشهوات الموجبات للنقص أو البعد عنك ، وهب لنا حقيقة الإيمان بك حتى لا نخاف غيرك ولا نرجو غيرك ولا نحب غيرك ولا نعبد شيئا سواك ، وأوزعنا شكر نعمائك ، وغطنا برداء عافيتك ، وانصرنا باليقين والتوكل عليك ، واسفر وجوهنا بنور صفائك ، وأضحكنا وبشرنا يوم القيامة بين أوليائك ، واجعل يدك مبسوطة علينا وعلى أهلينا وأولادنا ومن معنا برحمتك ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك يا نعم المجيب ، يا نعم المجيب ، يا نعم المجيب .

ومن دعاء سيدى على وفا :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم إنى أعددت لكل هول ألقاه فى الدنيا والآخرة لا إله إلا الله ، ولكل هم وغم ما شاء الله ، ولكل نعمة الحمد لله ، ولكل رجاء وشدة الشكر لله ، ولكل أعجوبة سبحان الله ، ولكل ذنب أستغفر الله ، ولكل ضيق حسبى الله ، ولكل مصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولكل قضاء وقدر توكلت على الله ، ولكل طاعة ومعصية لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

اللهم زدنا ولا تنقصنا . وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا وتقبل منا يا كريم برحمتك يا أرحم الراحمين . آمين .

والحمد لله رب العالمين [١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم اجمعنا على أهل العلم والمعرفة والولاية والخصوصية والاصطفائية بحسن الأدب والإخلاص فى المقصد ، والتوفيق فى المطالب ، واسلك بنا طريق السنة ، وجنبنا طريق البدعة ، ووفقنا للفهم عنك ، وحسن الاعتقاد فى الإيمان بأسمائك وصفاتك [٢] .

ذكر ودعاء

يقول الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ... ﴾ [٣] .

يقول سبحانه :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ... ﴾ [٤] .

وحينما يكرر الإنسان بلسانه وقلبه اسما من أسماء الله سبحانه وتعالى فإنه يكون فى أثناء التكرار ذاكرا وداعيا .

فإذا ذكر باسم الرحمن سبحانه ، أو باسم الرحيم ، فإنه ذاكر لرحمانية الله ورحيميته ، وهو من هذا القبيل ذكر ، أى تذكر لله بصفة من صفاته .

بيد أن من ثمار هذا الذكر - وللذكر ثمار كثيرة - فيما يتعلق بحظ العبد منه إنما هو أن يرحمه الله تعالى . وبمقدار تكراره مخلصا يكون فى رياض من رحمة الله سبحانه .

---

(١) يسمى هذا الدعاء المبارك حزب كلمة : عشر .

(٢) وهذا الدعاء المبارك يسمى : حزب المعرفة .

(٣) الأعراف : ١٨٠ . (٤) الإسراء : ١١٠ .

ولقد لجأ كثير من الصالحين إلى القرآن الكريم يستلهمونه ذكرا مناسبا لحالات معينة ليكون ذكرا ودعاء ، أو ليكون دواء وصفة لله فى ظروف محددة ، وهو فى الوقت نفسه عبادة .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١) .

هذه الآية الكريمة تنتهى بقوله تعالى : الولى الحميد .

ومعنى ذلك أن نزول الغيث بعد اليأس من نزوله ، ونشر الرحمة بعد ، حيث أوشك الناس أن يفقدوا الأمل منها ، إنما كان نابعا من صفة الله سبحانه التى هى: الولى الحميد .

وإذن فإن الإنسان حينما يكون فى ظروف شديدة ، ولا يرى فيها فرجة للأمل ، فعليه أن يلجأ إلى الله بصفته : الولى الحميد . أى عليه أن يديم الذكر - متجها إلى الله بكل كيانه - بصفة الولى الحميد .

فإذا ما فعل ذلك ، نزل الغيث أى أتى الفرج ، وفاضت عليه رحمة الله .

ويقول الله تعالى :

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

والبر الرحيم ، من أجمل الصفات وأنسبها لاستجابة الدعاء .

وعلى الداعى الذى يعمل على تحقيق شروط الدعاء ، أن يلجأ إلى الله - لاستجابة دعائه - بصفته : البر الرحيم، وذلك إشارة قرآنية لاستجابة الدعاء .

أما المغفرة فإن الصيغ التى يلجأ إليها الإنسان كثيرة متعددة ، منها :

الغفور الرحيم .

ومنها : غفور رحيم .

بالتعريف فى الاسمين الشريفين وبدونه .

---

(١) الشورى آية : ٢٨ .

(٢) الطور آية : ٢٦ ، ٢٨ .

يقول تعالى :

﴿ .... والْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ويَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّـهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

وفى القرآن من أمثال هذا كثير للدلالة على كيفية الالتجاء إلى الله من أجل المغفرة ، على أن الالتجاء إلى الله للمغفرة له صيغ أخرى أرشد الله إليها ، منها :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣) .

ومنها :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي .... ﴾ (٤) .

ويرى بعض الصالحين أن هذه الصيغ وهذه الأسماء ، إنما هى صور لاسم الله الأعظم ، وأنه ليس لاسم الله الأعظم صيغة واحدة ، أو اسم واحد ، وإنما هو صيغ وأسماء ، ولكل حالة ما يناسبها .

وعلى هذا فاسم الله الأعظم الذى يوصف لسعة الرزق إنما هو الاستغفار .

يقول تعالى :

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (٥) .

واسم الله الأعظم الذى يوصف للنجاة من العذاب فى الدنيا إنما هو الاستغفار أيضا :

---

(١) الشورى آية : ٥ .

(٢) الحديد آية : ٢٨ .

(٣) الأعراف آية : ٢٣ .

(٤) القصص : ١٦ .

(٥) نوح آية : ١٠ ، ١٢ .

يقول تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١) .

واسم الله الأعظم لحفظ كل نفيس وزيادته ، ومنع الحسد عنه هو :

« ما شاء الله لا قوة إلا بالله » (٢) .

واسم الله الأعظم لتلافى الكوارث والمصائب المالية ، إنما هو مع إخراج حق الله - التسبيح .

يقول تعالى ، فى قصة أصحاب الجنة على لسان أوسطهم ، أى أمثلهم :

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (٣) .

والاسم الأعظم لتفريج الشدة هو التسبيح أيضا : يقول تعالى عن سيدنا ذى النون :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٤) .

فنجاته إنما كانت لأنه كان من المسبحين :

أما الأمور المتشابكة التى تحتاج إلى تنسيق دقيق ، وتدبير بارع لتنتهى إلى نتيجة سارة .

فاسم الله الأعظم بالنسبة لها ، وهو تكرار قوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٥) .

ومن هذا القبيل هذه النظرات الصائبة والنصائح الذكية التى وجهها سيدنا جعفر الصادق لطوائف من الناس .

يقول رضى الله عنه :

عجبت لمن ابتلى بأربع كيف يغفل عن أربع .

---

(١) الأنفال آية : ٣٣ .

(٢) ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله . سورة الكهف : ٣٩ .

(٣) القلم : ٢٨ .　　　(٤) الصافات : ١٤٣ .

(٥) يوسف : ١٠ .

١ - من ابتلى بالضر يغفل عن :

﴿ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) .

٢ - من ابتلى بالغم كيف يغفل عن :

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

٣ - من ابتلى بموجبات الخوف كيف يغفل عن :

﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٣) .

٤ - ومن ابتلى بالمكر كيف يغفل عن :

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٤) .

ولقد كتب كثير من الصالحين عن أسماء الله الحسنى شارحين وموضحين ومبينين فى الوقت نفسه أثرها بالنسبة للذاكر ، ويعبرون عن هذا الأثر بقولهم :

« وحفظ العبد منه .. »

ونذكر أمثلة لذلك من الكتاب النفيس فى هذا المجال الذى ألفه الإمام الغزالى وسماه :

المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى :

الله : هو اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقى ، فإن كل موجود سواه ، غير مستحق للوجود بذاته ، وأن ما استفاد الوجود منه ، فهو من حيث ذاته هالك ، ومن جهته التى تليه

---

(١) ويقول الله تعالى فى القرآن الكريم معقبا على ذلك :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾ . الأنبياء

(٢) ويقول تعالى فى القرآن الكريم معقبا على ذلك : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ . الأنبياء

(٣) ويقول الله تعالى فى القرآن الكريم معقبا على ذلك : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ . آل عمران

(٤) ويقول الله تعالى فى القرآن الكريم معقبا على ذلك :

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ . غافر

موجود، كل شيء هالك إلا وجهه ، والأشبه أنه جاء فى الدلالة على هذا المعنى مجرى الأسماء الأعلام ، وكل ما ذكر فى اشتقاقه وتصريفه تعسف وتكلف .

فائدة :

اعلم أن هذا الاسم ، أعظم الأسماء التسعة والتسعين ، لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها حتى لا يشذ منها شيء ، وسائر الأسماء لا تدل آحادها إلا على آحاد المعانى من علم أو قدرة ، أو فعل أو غيره ، ولأنه أخص الأسماء ، إذ لا يطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازا ، وسائر الأسماء قد تسمى به غيره ، كالقادر ، والعليم ، والرحيم ، وغيره ، فلهذين الوجهين يشبه أن يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء .

دقيقة :

معانى سائر الأسماء يتصور أن يتصف العبد بثبوت منها حتى ينطلق عليه الاسم ، كالرحيم ، والعليم ، والصبور ، والشكور وغيره ، وإن كان إطلاق الاسم عليه على وجه آخر يباين إطلاقه على الله ، وأما معنى هذا الاسم فخاص ، خصوصا لا يتصور فيه مشاركة ، لا بالمجاز ولا بالحقيقة ، ولأجل هذا الخصوص، يوصف سائر الأسماء بأنه اسم الله ، ويعرف بالإضافة إليه ، فيقال : الصبور ، والشكور والجبار ، والملك من أسماء الله ، ولا يقال : الله من أسماء الصبور والشكور ، لأن ذلك من حيث هو أدل على كنه المعانى الإلهية ، وأخص بها فكان أشهر وأظهر فاستغنى عن التعريف بغيره ، وعرف غيره بالإضافة إليه .

تنبيه :

ينبغى أن يكون حظ العبد من هذا الاسم [1] التأله ، وأعنى به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى ، لا يرى غيره ، ولا يلتفت إلى سواه ، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه ، وكيف لا يكون كذلك وقد فهم من هذا الاسم أنه الموجود الحقيقى الحق ، وكل ما سواه فان وهالك وباطل إلا به . فيرى أولا نفسه ، أول هالك وباطل ، كما رآه رسول الله ، ﷺ ، حيث قال : أصدق بيت قالته العرب قول لبيد :

---

(١) أى من تكراره والذكر به والمداومة عليه .

« ألا كل شىء ما خلا الله باطل .. »

(الغفار) هو الذى أظهر الجميل ، وستر القبيح ، والذنوب من جملة القبائح التى سترها بإرسال الستر عليها فى الدنيا ، والتجاوز عن عقوبتها فى الآخرة ، والغفر هو الستر ، وأول ستره على العبد ، أن جعل مفاتح بدنه إلى ما تستقبحها الأعين مستورة فى باطنه مغطاة فى جمال ظاهره ، وكم بين باطن العبد وظاهره فى النظافة والقذارة ، وفى القبح والجمال ، فانظر ما الذى أظهره ، وما الذى ستره.

وستره الثانى : أن جعل مستقر خواطره المذمومة وإرادته القبيحة ، ستر قلبه حتى لا يطلع أحد على ستره ، ولو انكشف للخلق ما يخطر بباله فى مجارى وساوسه وما ينطوى عليه ضميره من الغش والخيانة ، وسوء الظن بالناس لمقتوه ، بل سعوا فى روحه وأهلكوه ، فانظر كيف ستر عن غيره أسراره وعوراته .

وستره الثالث : مغفرته ذنوبه التى كان يستحق الافتضاح بها على ملأ الخلق ، وقد وعد أن يبدل سيئاته حسنات ليستر مقابح ذنوبه بثواب حسناته مهما ثبت على الإيمان .

تنبيه :

حظ العبد من هذا الاسم ، أن يستر من غيره ما يحب أن يستر منه ، فقد قال عليه السلام :

من ستر على مؤمن عورته ، ستر الله عورته يوم القيامة ، والمغتاب ، والمتجسس ، والمنتقم والمكافئ على الإساءة ، بمعزل عن هذا الوصف ، وإنما المتصف به من لا يفشى من خلق الله تعالى ، إلا أحسن ما فيه ، ولا ينفك مخلوق عن كمال ونقص ، وعن قبح وحسن ، فمن تغافل عن المقابح وذكر المحاسن ، فهو ذو نصيب من هذا الاسم ، كما روى عن عيسى عليه السلام ، أنه مر مع الحواريين على كلب ميت قد غلب نتنه ، فقالوا : ما أنتن هذه الجيفة ، فقال عيسى عليه السلام : ما أحسن بياض أسنانه ، تنبيها على أن الذى ينبغى أن يذكر من كل شىء ما هو أحسن .

(الرزاق) هو الذى خلق الأرزاق والمرتزقة : وصلها إليهم ، وخلق لهم أسباب التمتع بها .

والرزق : رزقان . رزق ظاهر : فهو الأقوات والأطعمة ، وذلك للظواهر ، وهى الأبدان .

ورزق باطن : وهو المعارف والمكاشفات ، وذلك للقلوب والأسرار ، وهذا أشرف الرزقين ، فإن ثمرته حياة الأبد ، وثمرة الرزق الظاهر ، قوة الجسد إلى مدة قريبة الأمد ، والله المتولى لخلق الرزقين ، والمتفضل بالإيصال إلى كل من الفريقين، ولكنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .

تنبيه :

غاية حظ العبد من هذا الوصف أمران :

أحدهما : أن يعرف حقيقة هذا الوصف ، وأنه لا يستحقه إلا الله تعالى ، فلا ينتظر الرزق إلا منه ولا يتوكل فيه إلا عليه ، كما روى عن حاتم الأصم ، أنه قال له رجل : من أين تأكل ؟

فقال : من خزانته .

فقال الرجل : أيلقى عليك الخبز من السماء ؟

فقال : لو لم تكن الأرض له ، لكان يلقيه من السماء .

فقال الرجل : أنتم تؤولون الكلام .

فقال : لأنه لم ينزل من السماء إلا الكلام .

فقال الرجل : أنا لا أقوى على مجادلتك .

فقال : لأن الباطل لا يقوم مع الحق ،

الثانى : أن يرزقه علما هاديا ، ولسانا مرشدا معلما ، ويدا منفقة متصدقة، ويكون سببا لوصول الأرزاق الشريفة إلى القلوب بأقواله ، وأعماله ، وإذا أحب الله تعالى عبدا أكثر حوائج الخلق إليه ، ومهما كان واسطة بين الله ، وبين العباد فى

وصول الأرزاق إليهم ، فقد نال حظا من هذه الصفة ، قال النبى عليه الصلاة والسلام :

الخازن الأمين ، الذى يعطى ما أمر به ، طيبة به نفسه ، أحد المتصدقين ، وأيدى العباد خزائن الله تعالى ، فمن جعلت يده خزانة أرزاق الأبدان ، ولسانه خزانة أرزاق القلوب ، أكرم بثواب من هذه الصفة .

* * *

الفصل الرابع

الصلاة

العبـــادة

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (56) ﴾ [1] .

وما كانت عبادة الإنس والجن ، من أجل نفع يصل إلى الله ، سبحانه وتعالى، من وراء ذلك ، فهو ، سبحانه ، غنى عن العالمين ، لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وإنما خلقهم من أجل عبادته : ليكملهم بهذه العبادة ، وليصل بهم ، عن طريقها ، ليكونوا أهلا للقائه ، سبحانه ، وليتجلى عليهم إذا تزكوا - بأنواره - وفيوضاته .

وقد نوَّع لهم ، سبحانه ، العبادة فلم يجعلها على وتيرة واحدة حتى لا يملوا ، وحتى يكون فى تنوعها تزكية لجوانب متعددة ، وزوايا مختلفة من الطبيعة البشرية ، وحتى تتناسب ، على تفاوت فيما بينها - مع كل الفطر والاستعدادات .

وفهم بعض الناس مراد الله ، سبحانه ، وفهموا توجيهه للبشرية نحو الكمال الذى يجب أن يصل إليه كل من يرجو لقاء الله ، سبحانه ، وعلموا أن السعادة كل السعادة : إنما هى فى الانضواء تحت اللواء الإلهى، والدخول فى الساحات الربانية، فطبعوا الحياة بطابع العبادة ، جعلوا أعمالهم عبادة ، وحركاتهم عبادة ، وسكناتهم عبادة ، بل وأنفاسهم عبادة ، وجعلوا من المصنع محرابا ، ومن المعمل معبدا ، فكانت حياتهم عبادة .

وحاولوا جاهدين ، أن يقاربوا المثل الأعلى الذى أمر الله ، سبحانه رسوله ، صلوات الله عليه وسلامه - أن يكونه :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) ﴾ [2] .

---

(1) الذاريات : ٥٦ .　　(٢) الأنعام : ١٦٢ : ١٦٣ .

الصـــــلاة

والصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهى ، حينما تؤدى على وجهها الصحيح ، حينما تؤدى على الوجه الذى يرضى الله ورسوله ، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتقود الإنسان إلى الصلة بالله .

فالصلاة من الصلة ، وهى تربط العبد بربه ، وتقوده إلى رضوانه ، وتمهد له الطريق إلى العناية الربانية ، وهى لأهميتها : لا تسقط عن الإنسان حتى فى حالة الحرب ، عند التقاء الجيوش وفى ساحة القتال . يقول رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه :

« استقيموا ولن تحصوا ، واعملوا، وخير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مسلم » .

ونتبين مدى حرص الرجل المسلم على الصلاة ، فى القصة التالية :

يروى الإمام مالك عن هشام بن عروة عن أبيه : « أن المسور بن مخرمة : أخبره أنه دخل على عمر بن الخطاب فى الليلة التى طعن فيها - يوقظ عمر لصلاة الصبح ، فقال عمر : نعم - ولاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة ، فصلى عمر وجرحه يثغب دما » .

على أنه على كل مسلم أن يتدبر الحديثين الصحيحين الآتيين :

روى مسلم عن جابر ، رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول:

« إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

وروى الترمذى فى حديث حسن صحيح عن بريدة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال :

« العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » .

وقد جاء عن شفيق بن عبدالله التابعى المتفق على جلالة قدره ، وعلو شأنه، رحمه الله رحمة واسعة : « أنه كان يتحدث إلى الناس محذرا لهم من ترك الصلاة أو التهاون فيها ، ويقول :

كان أصحاب محمد ، ﷺ ، لا يرون شيئا من الأعمال ، تركه كفر غير ترك الصلاة » .

ذكر الترمذى ذلك عنه فى كتاب : « الإيمان » - بإسناد صحيح .

والصلاة لأهميتها لم تفرض بالطريق العادى .

لقد كان جبريل عليه السلام ، ينزل بالوحى مبلغا رسول الله ﷺ ، قواعد التشريع ، ومبادئ الإخلاق . وأصول العقيدة ومسائلها ، فلما حان فرض الصلاة عدل الله سبحانه وتعالى ، عن هذا الاتجاه إلى دعوة رسول الله ﷺ ، ليكون بنفسه فى الحضرة الإلهية ، ليبلغه الله سبحانه وتعالى ، بطريق مباشر ، أمر الصلاة .

وكان ذلك تشريفا للرسول ﷺ ، وكان ذلك أيضا : إعلانا عن أهمية الصلاة، أنها لم تفرض بالطريق العادى ، تكريما لها وتشريفا .

لقد تجاوز رسول الله ﷺ ، السموات ، سماء سماء ، تجاوزها مكانا ولكنه تجاوزها أيضا ، مكانة روحية ، وذلك أنه ﷺ ، فى هذه اللحظات الحاسمة ، التى كان يتهيأ فيها للمثول بين يدى رب العزة ، كان يترقى روحيا فى سرعة تقل عنها سرعة البرق .

لقد تجاوز مكانة آدم عليه السلام ، الروحية ، فى السماء الأولى ، وتجاوز مكانة عيسى ويحيى عليهما السلام ، فى السماء الثانية ، وهكذا حتى تجاوز مكانة إبراهيم ، عليه السلام ، فى السماء السابعة ، وتجاوز الكون كله ، مادة وروحا ، ووصل إلى سدرة المنتهى ، ثم كان من القرب بحيث أصبح قاب قوسين أو أدنى ، متجاوزا بذلك مكانة جبريل عليه السلام :

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[1] .

وكان مما أوحاه الله إليه ، أمر الصلاة .

وانبسط رسول الله ﷺ ، فى الأرض بعد أن رفعه الله إليه .

انبسط مبشرا بالصلاة ، فرضا كريما من رب الكرم والرحمة .

ولا يكاد الإنسان يجد عذرا لترك الصلاة ، فإنه إذا فقد الماء ، كان التيمم بديلا عنه .

---

(١) النجم : ١٠ .

وإذا لم يستطع أداءها من قيام ، أداها من جلوس ، وإن لم يستطع أداءها إلا إيمـاء ، كـان عليـه ذلك ، وفى حـالـة الخـوف ، ومـلاقـاة الأعـداء ، فى الغـزوات والحروب ، لا تسقط الصلاة ، وإنما تتغير كيفية أدائها وراء الإمام .

والسنة أن يفزع الإنسان إلى الصلاة فى كل ما أهمه ، وصلاة قضاء الحاجة معروفة ، وصلاة الاستخارة كذلك ، وصلاة قبول التوبة .

وإذا أجـدبت الأرض ، ولم ينزل الغـيث فى الأقـاليم التى تروى أرضـهـا ، عن طريق المطر ، فهناك صلاة الاستسقاء .

ومـا من شك فى أن من كـتب الله له الهـداية ، يفـزع إلى الصـلاة شكرا ، ويفزع إليها حمدا ، ويفزع إليها مرضاة لله ، ويقول : أرحنا بها .

ولقد كان رسول الله ﷺ ، يقوم حتى تتفطر قدماه .

الصلاة كفارة للذنوب :

روى الطبرانى فى الأوسط والصغير بسنده عن ابن عمر ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا إيمـان لمن لا أمـانـة له ، ولا صـلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صـلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد » .

فى هذا الحديث الشريف ينفى رسول الله ﷺ ، الدين عن تارك الصلاة .

وما من شك فى أن من تركها منكرا لها ، لا دين له ، ومن تركها استهتارا بها لا دين له ، ومن تركها غير مبال بها لا دين له .

أما من حافظ عليها ، وأداها بشروطها ، فإن رسول الله ﷺ ، يتحدث عنه فيـمـا رواه الإمـام مسلم بسنده عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها ، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله .

وإذا أديت الصـلاة على هذا النسق الذى ذكـره رسـول الله ﷺ ، فـلا خـوف على صاحبها من إتيان الكبائر فسيعصمه الله عنها ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ (١) .

والصلاة من هذا النسق إنما هى الصلاة التى أقامها صاحبها ، إنها الصلاة التى أمر الله بإقامتها ، فمعنى إقامتها التى تقرن بها فى القرآن ، إنما هى أن يؤديها الإنسان على ما أحب الله ورسوله ، فيحسن الوضوء أولا ، هذا الوضوء الذى قال فيه رسول الله ﷺ : - فيما رواه الإمام مسلم - الطهور شطر الإيمان .

وقال عنه صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الشيخان : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن أمتى يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل » أى من استطاع منكم أن يداوم على الوضوء ، كلما أحدث توضأ ، فليفعل .

وذكر رسول الله ، ﷺ ، إحسان الخشوع فى الصلاة .

ومصدر خشوع الجوارح ، إنما هو خشوع القلب ، فإذا ما خشع قلب الإنسان خشعت جوارحه ، وخشوع القلب إنما يتأتى بوضوح مكانة الصلاة فى ذهن المصلى ، مكانتها من الدين ، وأنها عماد الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها بأية صورة من صور الهدم فقد هدم الدين ، ومن سها عنها فويل له : إنه مكذب بالدين ، يقول سبحانه :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (٢) .

ويتحدث رسول الله ، ﷺ ، عن إحسان الركوع ، وذلك يشمل إحسان السجود ، وإحسانهما ، إنما هو بركوع القلب وسجوده ، فإذا ما سجد القلب لله سبحانه مع سجود الجبهة له ، كان فى ذلك القرب من الله سبحانه يقول الله تعالى :

﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾ ﴾ (٣) .

يقول رسول الله ، ﷺ : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .　(٢) الماعون : ٤ ، ٥ .　(٣) العلق : ١٩ .

ويقول ﷺ - فيما رواه الإمام مسلم - عن الذى أحسن الوضوء :

فإن هو قام فصلى فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه ، ومجّده بالذى هو له أهل، وفرغ قلبه لله تعالى إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه .

إقامة الصلاة أيضا :

ونعود إلى إقامة الصلاة من جديد ، فنرى أن القرآن يقرن الصلاة عادة بكلمة أقام ، أو أقيموا ، أو يقيمون ، فيقول سبحانه مثلا .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه ، معرفا المتقين :

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ (٣) .

ولم يذكر الله سبحانه ، صلاة المؤمنين ، إلا مع ذكر إقامتها ، فلما كان الأمر أمر المنافقين فإنه سبحانه قال :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ (٤) .

فشأن المؤمن إقامة الصلاة ، وشأن المنافق السهو عن الصلاة .

وإقامة الصلاة هى تأديتها على الوجه الذى يحبه الله ورسوله .

ومعنى ذلك : أنه بمجرد تكبيرة الإحرام يكون الإنسان حقا واقفا بين يدى الله سبحانه ، مناجيا له ، موجها وجهه إليه ، مراعيا أن الصلاة له وحده ، متمثلا قول سيدنا إبراهيم عليه السلام فيما قصه القرآن الكريم .

---

(١) هود آية : ١١٤ .

(٢) البقرة آية : ٣ - ٤ .

(٣) العنكبوت آية : ٤٥ .

(٤) الماعون : ٤ ، ٥ .

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١).

وقول الله تعالى ، مخاطبا رسوله ، ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ (٢) .

ويسير فى الصلاة متدبرا ما يقول ، متمثلا الخشوع والخضوع ، حتى إذا ما انتهت به الصلاة إلى السجود ، سجد بقلبه وجوارحه ، فليس السجود وضع الجبهة على الأرض فحسب ، وإنما حقيقة السجود ، سجود القلب لله سبحانه ، وإذا ما خشع قلب المصلى لله ، خشعت جوارحه ، فإذا ما سجد القلب لله ، أى أسلم لله ، سجدت الجوارح ، أى أسلمت شأنها كله وأصبح الإنسان بذلك مسلما حقا .

ولقد سئل رسول الله ﷺ ، عن الإسلام فقال :

أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك .

الصلاة كتاب موقوت :

يقول الله تعالى :

﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ (٣).

وإقامة الصلاة : هى أداؤها على ما يحب الله ورسوله ، ومعنى ذلك أن الإنسان يستغرق فى الصلاة منذ ابتدائها فلا يفكر فى شىء خارجها .

إن من يقيم الصلاة حقا لا يفكر فى أثنائها فى وظيفة ولا مال ولا جاه ولا مشاغل دنيوية أيا كانت ، وذلك لتكون الصلاة حقا صلة بين العبد وربه، ولن تكون كذلك إلا بكون الإنسان بحيث لا تلعب به فى صلاته دنياه ، ولا يلعب به شيطان يصرفه عن صلاته ليفكر فى أمر آخر .

وحينما يؤكد الله سبحانه ، نهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، فإنما يعبر الله سبحانه عن الصلاة المقامة .

---

(١) الأنعام : ٧٩ .   (٢) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .   (٣) النساء : ١٠٣ .

أما كونها كتابا موقوتا : فمعناه أنها فرض ، له وقت معين ، أى موقت بأوقات محددة لا يجوز أن تتجاوزها دون أدائها ، وذلك يعنى أوقاتها الخمسة المحددة فى الشريعة الإسلامية ، وهذا التحديد بالوقت باق حسب أصول الشريعة، ببقاء الإنسان لا يسقط فى أى سن ولا يسقط مهما وصل الإنسان من الدرجات الروحية ، بل إن الدرجات الروحية تبعث الإنسان فى صورة أقوى على المحافظة على الصلاة .

ومن أجل ذلك فإن كل من يزعم أنه وصل إلى درجة تسقط فيها الصلاة عنه، فإنه مفتر على الحق ، وخائن للأمانة الدينية .

وقديما ذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال :

أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل .

فقال الجنيد :

إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن من الذى يقول هذا .

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (1) .

الخشوع فى الصلاة :

يقول الله تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) ﴾ (2) .

وللخاشعين صلاة يتمثل فيها الخشوع حقيقة حتى تكون صالحة مقبولة ، فقد روى الطبرانى فى الأوسط عن عبدالله بن قرط أن رسول الله ، ﷺ قال :

أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله .

ولقد روى الطبرانى أن رسول الله ، ﷺ ، قال فى حديث له :

« إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد » .

---

(1) النساء : ١٠٣ .　　(2) المؤمنون : ١ ، ٢ .

من أجل ذلك حاول الخاشعون أن يحققوا فى صلاتهم قوله تعالى :

﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) ﴾ (١) .

والقنوت هو الخشوع فى جميع حركات الصلاة ، من قيام ، وقراءة ، وركوع ، وسجود ، وأن الرجلين يكونان فى الصلاة وبينهما من الفضل ، ما بين السماء والأرض .

أما أحدهما : فهو خاشع متبتل مقبل على الله سبحانه ، بفكره وذهنه ، والآخر جسمه فى الصلاة وفكره خارجها .

ولقد روى المحاسبى أنه قيل لبعض التابعين : إنا نجد وسوسة فى الصلاة ، فقال : أنا أجد ذلك . فقيل له : ما الذى تجد ؟

قال : أجد ذكر الجنة والنار ، وكأنى واقف بين يدى ربى .

فقالوا : إنا نجد ذكر الدنيا وحوائجها .

فقال : لأن أخر من السماء إلى الأرض أحب إلى من أن يعلم الله ذلك من قلبى .

وصلاة الخاشعين ، هى الصلاة التى تتهافت معها الذنوب ، كما يتهافت ورق الشجر فى الشتاء .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، خرج فى الشتاء ، والورق يتهافت ، فأخذ بغصن من شجرة ، قال :

فجعل ذلك الورق يتهافت ، فقال : يا أبا ذر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : إن العبد المسلم ليصلى الصلاة يريد بها وجه الله ، فتهافت عنه ذنوبه ، كما تهافت هذا الورق عن هذه الشجرة .

والعبد الذى يريد بصلاته وجه الله تعالى ، هو الذى يحافظ ما استطاع على أن يكون متمثلا فى صلاته ووقوفه بين يدى الله جل جلاله ، وأن يكون فى صلاته مع صلاته ، قراءة وتعظيما ، وتسبيحا ، وأن يحافظ على الوقت فى أوله ، فقد روى الدارقطنى ، أن رسول الله ، ﷺ قال :

---

(١) البقرة : ٢٣٨ .

« أول الوقت رضوان الله ، ووسط الوقت رحمة الله ، وآخر الوقت عفو الله عز وجل » .

إن الصلاة التى من هذا النوع ، هى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن أجل ذلك تدخل صاحبها الجنة .

عن عبادة بن الصامت ، فيما رواه ابن حبان فى صحيحه قال :

أشهد أنى سمعت رسول الله ، ﷺ يقول :

« خمس صلوات افترضهن الله عز وجل ، من أحسن وضوءهن ، وصلاتهن لوقتهن ، وأتم ركوعهن وسجودهن وخشوعهن ، كان له على الله عهد أن يغفر له ، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه » نعوذ بالله من عذابه ونرجوه أن يدخلنا جميعا برحمته فى عداد عباد الرحمن .

تشتت الذهن فى الصلاة :

إن الصلاة من النعم الكبرى التى أنعم الله بها على الأمة الإسلامية ، لتحقق الصلة به سبحانه .

إنها الكيفية ، وهى الطريقة ، وهى الوسيلة ، وهى اللحظات الجليلة التى تتم فيها الصلة وتتحقق . إنها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل - ويجب أن يكون كاملا - عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، وعن عالم الفتنة ، لتتخلص النفس إلى المنعم حتى تنعم فى رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه !! .

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين .

إن إقامة الصلاة ، أو إقامة الدين : إنما هى إقامة الصلة بالله ، وتحقيق ذلك هو المثل الأعلى ، والغاية العظمى ، والسعادة الكاملة التى يجرى وراءها المؤمنون : ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى .

وما من شك فى أن الصلاة ، يقيمها الإنسان ، كما أراد الله ورسوله ، من أنجح الوسائل فى القرب من الله ، إنها البراق الذى يجتاز به المؤمن فى سرعة سريعة طبقات البعد عن الله سبحانه ، ليصل إليه تعالى ، فينعم فى رحابه .

ومع ذلك فإن انشغال الفكر فى الصلاة أمر يشبه أن يكون منتشرا بين كثير من المسلمين فى العصر الحاضر .

والشكوى من ذلك كثيرة متعددة ، ولا مفر من الالتجاء إلى الله في صرف هذه الحالة ، ولابد مع ذلك من المحاولات الصادقة للتخلص منها : وليس الأمر فى الحقيقة بالعسير عسرا شديدا ، فلو وطن الإنسان العزم على أن يجمع شتات فكره، وصدقت نيته فى ذلك فإنه سينتهى إلى ما يجب إن شاء الله .

ومن المعروف فى الجو الإسلامى ، أنه ليس للإنسان من صلاته إلا ما عقل، وأن ثوابه إنما هو بمقدار انتباهه وتعقله للصلاة ، أو بمقدار إقامة الصلاة على حد التعبير القرآنى ، وإقامتها إنما تكون بأدائها على أتم ما تكون التأدية .

وإنه لمن المفيد أن يقرأ الإنسان عدة مرات سورة الناس قبل الدخول فى الصلاة ، وأن يقول : « رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون » فإذا ما تأهل الإنسان بذلك وتهيأ للصلاة أعانه الله ووفقه.

ومن المفيد فى ذلك أيضا : أن يقوم بمران يومى على ذكر الله ، مع جمع شتات أفكاره لمدة خمس دقائق .

فإذا ما نجح فى ذلك فهو ناجح لا محالة بتوفيق الله ، فى تركيز ذهنه فى الصلاة . على أنه إذا وطن نفسه على أن يحاول تدبر ما يقول وما يفعل منذ ابتداء الصلاة إلى انتهائها ، فإن ذلك يصرف ذهنه عن الدنيا إلى ما هو فيه وهو الصلاة .

ومن المعروف أن من يهتم بشىء انصرف فكره إليه ، حتى إذا ما حاول صرف فكره عنه فإنه لا يستطيع ، ولو كانت الصلاة فى موضع اهتمام الإنسان ، فإنه لا يستطيع أن يصرف فكره عنها ، ولو اهتم بها لكانت له قرة عين ، وكانت راحته فيها .

الوضوء

يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّـهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

توجيهات قبل الوضوء

اتقاء اللاعنين :

عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله، ﷺ قال: « اتقوا اللاعنين ».

قالوا : وما اللاعنان يا رسول الله ؟

قال : « الذي يتخلى فى طرق الناس ، أو فى ظلهم » (٢) .

قوله : « اللاعنين » يريد الأمرين الجالبين اللعن ، وذلك أن من فعلهما لعن وشتم ، فلما كانا سببا لذلك أضيف الفعل إليهما ، فكانا كأنهما اللاعنان (٣) .

النهى عن البول فى الماء الراكد :

عن جابر رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ : أنه « نهى أن يبال فى الماء الراكد » (٤) .

النهى عن البول فى الماء الجارى :

وعن جابر . رضى الله عنه ، قال : نهى رسول الله ، ﷺ ، أن يبال فى الماء الجارى (٥) .

جزاء النميمة وعدم الاستتار من البول :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله ، ﷺ ، مر بقبرين . فقال :

« إنهما ليعذبان . وما يعذبان فى كبير ، بلى إنه كبير ، أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله » (٦) .

---

(١) المائدة آية : ٦ . (٢) رواه مسلم . وأبو داود وغيرهما .

(٣) انظر كتاب الترغيب والترهيب .

(٤) رواه مسلم وابن ماجه والنسائى .

(٥) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد .

(٦) رواه البخارى ، وهذا أحد الفاظه ومسلم . وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وفى رواية للبخارى وابن خزيمة فى صحيحه : أن النبى عليه الصلاة والسلام ، مر بحائط من حيطان مكة أو المدينة ، فسمع صوت إنسانين يعذبان فى قبورهما ، فقال النبى ﷺ :

« إنهما ليعذبان ، وما يعذبان فى كبير ، ثم قال : بلى ، كان أحدهما لا يستتر من بوله ، وكان الآخر يمشى بالنميمة » [1] .

قال الخطابى : قوله « وما يعذبان فى كبير » معناه أنهما لم يعذبا فى أمر يكبر عليهما ، أو يشق فعله لو أرادا أن يفعلا ، وهو التنزه من البول ، وترك النميمة ، ولم يرد أن المعصية فى هاتين الخصلتين ليست كبيرة فى حق الدين ، وأن الذنب فيهما هين سهل .

قال الحافظ عبدالعظيم : ولخوف توهم مثل هذا استدرك ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بلى إنه كبير » [2] .

وعن أبى بكرة رضى الله عنه ، قال : بينما رسول الله ﷺ ، يمشى بينى وبين رجل آخر ، إذ أتى على قبرين ، فقال :

ان صاحبى هذين القبرين يعذبان ، فائتيانى بجريدة .

قال أبو بكرة : فاستبقت أنا وصاحبى فأتيته بجريدة ، فشقها نصفين ، فوضع فى هذا القبر واحدة ، وفى هذا القبر واحدة ، وقال :

لعله يخفف عنهما ما دامتا رطبتين ، إنهما يعذبان بغير كبير : « الغيبة والبول » [3] .

فضل الوضوء

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إن أمتى يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل [4] .

---

(١) الحديث ، ويوب البخارى عليه : باب من الكبائر ألا يستتر من بوله .

(٢) انظر كتاب الترغيب والترهيب .

(٣) رواه أحمد ، والطبرانى فى الأوسط واللفظ له .

(٤) رواه البخارى ومسلم . وقد قيل إن قوله : « من استطاع إلى آخره ، إنما هو مدرج من كلام أبى هريرة موقوف عليه ، ذكره غير واحد من الحفاظ .

ولمسلم عن أبى حازم رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، أتى المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم عن قريب لاحقون ، وددت أنا قد رأينا إخواننا .

قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟

قال : أنتم أصحابى ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد .

قالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟

قالوا : أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهرى خيل دهم بهم، ألا يعرف خيله ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض [1] .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ .

« الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ- ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » [2] .

وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » [3] .

قبل الوضوء :

عن ابن عمر ، أن النبى ﷺ ، قال :

« إذا استيقظ أحدكم من منامه ، فلا يدخل يده فى الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات ، فإنه لا يدرى أين باتت يده ، أو أين طافت يده » [4] .

---

(١) رواه مسلم وغيره .

(٢) رواه مسلم والترمذي .

(٣) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

(٤) رواه الدارقطنى ، وقال إسناده حسن .

كيفية الوضوء :

عن عبدالله بن زيد بن عاصم ، أنه قيل له : توضأ لنا وضوء رسول الله ، ﷺ ، فدعا بإناء ، فأكفأ منه على يديه ، فغسلهما ثلاثا .

ثم أدخل يده ، فاستخرجها ، فمضمض واستنشق من كف واحدة ، ففعل ذلك ثلاثا .

ثم أدخل يده فاستخرجها ، فغسل وجهه ثلاثا .

ثم أدخل يده فاستخرجها . فغسل يديه إلى المرفقين مرتين .

ثم أدخل يده فاستخرجها ، فمسح برأسه ، فأقبل بيديه وأدبر .

ثم غسل رجليه إلى الكعبين .

ثم قال : هكذا كان وضوء رسول الله ﷺ (١) .

وعن أبى رافع : أن رسول الله ﷺ ، كان إذا توضأ حرك خاتمه (٢) .

وعن عبدالله بن عمر ، قال : « تخلف عنا رسول الله ﷺ . فى سفر فأدركنا، وقد أرهقنا العصر ، فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا ، قال :

فنادى بأعلى صوته : ويل للأعقاب من النار ، مرتين أو ثلاثا (٣) .

ودعا سيدنا عثمان بوضوء فتوضأ فغسل كفيه ثلاث مرات.

ثم مضمض واستنثر .

ثم غسل وجهه ثلاث مرات .

ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات ، ثم غسل يده اليسرى مثل ذلك، ثم مسح رأسه .

ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مرات ، ثم غسل اليسرى مثل ذلك.

ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ ، توضأ نحو وضوئى هذا ، ثم قال رسول الله ﷺ :

---

(١) متفق عليه ، ولفظه لأحمد .

(٢) رواه ابن ماجه والدارقطنى .

(٣) متفق عليه . أرهقنا العصر : أخرناها ويروى ، أرهقنا العصر بمعنى ، دنا وقتها .

« من توضأ نحو وضوئى هذا ، ثم قام فركع ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » .

قال ابن شهاب : وكان علماؤنا يقولون : هذا الوضوء أسبغ ما يتوضأ به أحد للصلاة .

فلما توضأ عثمان قال : والله لأحدثكم حديثا ، والله لولا آية فى كتاب الله ما حدثتكموه ، أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لا يتوضأ رجل فيحسن وضوءه ثم يصلى الصلاة ، إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة التى تليها » قال عروة : الآية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (1) .

الماء طهور :

عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الماء لا ينجسه شىء إلا ما غلب على ريحه وطعمه ولونه » (2) .

وللبيهقى :

الماء طهور إلا إن تغير ريحه ، أو طعمه ، أو لونه ، بنجاسة تحدث فيه .

السواك :

عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ، ﷺ قال :

« السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب » (3) .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :

« لولا أن أشق على المؤمنين - وفى حديث زهير على أمتى - لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » (4) .

---

(1) البقرة آية : ١٥٩ .

(2) أخرجه ابن ماجه ، وضعفه أبو حاتم .

(3) رواه النسائى وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما ، رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير من حديث ابن عباس ، وزاد فيه : « ومجلاة للبصر » .

(4) رواه مسلم .

حدثنا أبو المتوكل أن ابن عباس حدثه ، أنه بات عند النبى ﷺ ، ذات ليلة فقام نبى الله ﷺ ، من آخر الليل فخرج فنظر فى السماء ، ثم تلا هذه الآية فى آل عمران :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [١] .

ثم رجع إلى البيت فتسوك وتوضأ ثم قام فصلى ، ثم اضطجع ، ثم قام فخرج فنظر إلى السماء فتلا هذه الآية، ثم رجع فتسوك فتوضأ ثم قام فصلى [٢].

التيامن :

عن عائشة قالت : إنه كان رسول الله ﷺ ، « ليجب التيمن فى طهوره إذا تطهر ، وفى ترجله إذا ترجل ، وفى انتعاله إذا انتعل » [٣] .

يقول الإمام النووى عن ذلك فى شرحه على صحيح مسلم :

كان ﷺ ، « يحب التيمن فى طهوره إذا تطهر ، وفى ترجله إذا ترجل ، وفى انتعاله إذا انتعل » [٤] .

هذه قاعدة مستمرة فى الشرع ، وهى أن ما كان من باب التكريم والتشريف ، كلبس الثوب والسراويل والخف ودخول المسجد والسواك والاكتحال وتقليم الأظفار، وقص الشارب ، وترجيل الشعر ، وهو مشطه ، ونتف الإبط ، وحلق الرأس، والسلام من الصلاة ، وغسل أعضاء الطهارة ، والخروج من الخلاء ، والأكل والشرب والمصافحة ، واستلام الحجر الأسود ، وغير ذلك مما هو فى معناه يستحب التيامن فيه .

وأما ما كان بضده كدخول الخلاء ، والخروج من المسجد والامتخاط والاستنجاء ، وخلع الثوب ، والسراويل والخف ، وما أشبه ذلك ، فيستحب التياسر فيه ، وذلك كله بكرامة اليمين وشرفها ، والله أعلم .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .
(٢) رواه مسلم .
(٣) صحيح مسلم .
(٤) صحيح مسلم .

وأجمع العلماء على أن تقديم اليمين على اليسار من اليدين والرجلين فى الوضوء ، سنة لو خالفها فاته الفضل وصح وضوءه [1] .

لا ينقض الوضوء :

قال أبو هريرة رضى الله عنه : لا وضوء إلا من حدث .

ويذكر عن جابر أن النبى ﷺ ، كان فى غزوة ذات الرقاع فرمى رجل بسهم فنزفه الدم ، فركع وسجد ومضى فى صلاته .

وقال الحسن : ما زال المسلمون يصلون فى جراحاتهم .

وقال طاوس ومحمد بن على وعطاء . وأهل الحجاز : ليس فى الدم وضوء .

وعصر ابن عمر بثرة فخرج منها الدم ، ولم يتوضأ .

وبزق ابن أبى أوفى دما فمضى فى صلاته .

وقال ابن عمر والحسن فيمن يحتجم : ليس عليه غسل محاجمه [2] .

وقال جابر بن عبدالله : إذا ضحك فى الصلاة أعاد الصلاة ولم يعد الوضوء [3] .

وعن طلق بن على رضى الله عنه قال :

قال رجل : مسست ذكرى أو قال : الرجل يمس ذكره فى الصلاة ، أعليه الوضوء ؟

فقال النبى ﷺ : « لا ، إنما هو بضعة منك » [4] .

لا وضوء لمن ترك موضع ظفر :

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رجلا توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبى ﷺ فقال : « ارجع فأحسن وضوءك » فرجع ثم صلى .

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه البخارى .

(٤) أخرجه الخمسة ، وصححه ابن حبان ، وقال ابن المدينى هو أحسن من حديث ميسرة .

نبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ :

عن أنس بن مالك قال : رأيت رسول الله ﷺ ، وحانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه ، فأتى رسول الله ﷺ ، بإناء فوضع رسول الله ﷺ ، فى ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضئوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه حتى توضئوا عن آخرهم [١] .

فضل من بات على الوضوء :

عن البراء بن عازب قال : قال النبى ﷺ :

« إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل :

اللهم أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك .

اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت ، فإن مت من ليلتك ، فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به » قال :

فرددتها على النبى ﷺ ، فلما بلغت : اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت ، قلت: ورسولك الذى أرسلت ، قال : لا ونبيك الذى أرسلت [٢] .

الصلاة بعد الوضوء :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ، ﷺ قال لبلال : يا بلال ، حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام ، إنى سمعت دف نعليك بين يدىَّ فى الجنة !

قال : ما عملت عملا أرجى عندى من أنى لم أتطهر طهورا فى ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى [٣] .

---

(١) صحيح البخارى .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه البخارى ومسلم : « الدف » بالضم : صوت النعل حال المشى .

فى المسح على الخفين :

عن همام قال : بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل : نفعل هذا ؟

فقال : نعم ، رأيت رسول الله ﷺ ، بال ثم توضأ ومسح على خفيه ، قال الأعمش : قال إبراهيم : كان يعجبهم هذا الحديث ، لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة [١] .

يقول الإمام النووى فى ذلك :

« كان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة » معناه أن الله تعالى قال ، فى سورة المائدة :

﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ فلو كان اسلام جرير متقدما على نزول المائدة ، لاحتمل كون حديثه فى مسح الخف منسوخا بآية المائدة ، فلما كان إسلامه متأخرا علمنا أن حديثه يعمل به [٢] .

وعن عروة بن المغيرة :

أهويت لأنزع خفيه فقال : دعهما فإنى أدخلتهما طاهرتين ومسح عليهما [٣].

وعن شريح بن هانئ قال : أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفين .

فقالت : عليك بابن أبى طالب فسله ، فإنه كان يسافر مع رسول الله ﷺ فسألناه ، فقال :

جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهما للمسافر ، ويوما وليلة للمقيم [٤] .

وعن على رضى الله عنه قال :

« لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ ، يمسح على ظاهر خفيه » [٥] .

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) صحيح مسلم .

(٣) صحيح مسلم .

(٤) صحيح مسلم .

(٥) أخرجه ابو داود بإسناد حسن .

الغسل يوم الجمعة :

عن سمرة بن جندب ، أن نبى الله ، ﷺ ، قال :

« من توضأ للجمعة فبها ونعمت ، ومن اغتسل ، فذلك أفضل » .

وعن الفاكه بن سعد ، وكان له صحبة : أن النبى ﷺ ، « كان يغتسل يوم الجمعة ، ويوم عرفه ، ويوم الفطر ويوم النحر ، وكان الفاكه بن سعد يأمر أهله بالغسل فى هذه الأيام » [1] .

التيمم كيف يكون ومتى شرع :

عن عائشة زوج النبى ، ﷺ ، قالت : خرجنا مع رسول الله ، ﷺ ، فى بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء ، أو بذات الجيش ، انقطع عقد لى ، فأقام رسول الله ، ﷺ ، على التماسه وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء ، فأتى الناس إلى أبى بكر الصديق ، فقالوا :

ألا ترى إلى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله ، ﷺ ، والناس ، ليسوا على ماء ، وليس معهم ماء .

فجاء أبو بكر ، ورسول الله ، ﷺ ، واضع رأسه على فخذى قد نام .

فقال : حبست رسول الله ، ﷺ ، والناس ليسوا على ماء. وليس معهم ماء؟!

فقالت عائشة : فعاتبنى أبو بكر ، وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يطعننى بيده فى خاصرتى ، فلا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله ، ﷺ ، على فخذى ، فقام رسول الله ، ﷺ ، حين أصبح على غير ماء ، فأنزل الله آية التيمم، فتيمموا . فقال أسيد بن الحضير :

ما هى بأول بركتكم ، يا آل أبى بكر .

فقالت : « فبعثنا البعير الذى كنت عليه ، فأصبنا العقد تحته » .

وعن أبى أمامة ، أن رسولَ الله ، ﷺ ، قال :

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد فى المسند .

« جعلت الأرض كلها لى ، ولأمتى مسجدا وطهورا ، فأينما أدركت رجلا من أمتى الصلاة ، فعنده مسجده ، وعنده طهوره » [١] .

وعن عمار بن ياسر ، أن النبى ﷺ قال : فى التيمم ضربة للوجه واليدين . رواه أحمد وأبو داود .

وفى لفظ : أن النبى ، ﷺ ، « أمره بالتيمم للوجه والكفين » [٢] .

وعن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال :

بعثنى النبى ﷺ ، فى حاجة فأجنبت فلم أجد الماء فتمرغت فى الصعيد كما تتمرغ الدابة ثم أتيت النبى ، ﷺ ، فذكرت له ذلك فقال :

إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا ، ثم ضرب بيديه على الأرض ضربة واحدة ، ثم مسح الشمال على اليمين ، وظاهر كفيه ووجهه [٣] .

وفى رواية للبخارى :

وضرب بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

خرج رجلان فى سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء ، فتيمما صعيدا طيبا فصليا ، ثم وجدا الماء فى الوقت فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ، ولم يعد الآخر ، ثم أتيا رسول الله ﷺ ، فذكرا ذلك له ، فقال للذى لم يعد : أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للآخر : لك الأجر مرتين [٤] .

الغسل :

الغسل واجب فى حالات : الجنابة ، والحيض ، والنفاس ، ويغنى عنه التيمم ، عند عدم وجود الماء .

عن عائشة زوج النبى ، ﷺ ، أن النبى ، ﷺ ، كان إذا اغتسل من الجنابة

---

(١) رواهما أحمد .

(٢) رواه الترمذى وصححه .

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم .

(٤) رواه أبو داود والنسائى .

بدأ فغسل يديه ، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ، ثم يدخل أصابعه فى الماء فيخلل بها أصول شعره ، ثم يصب الماء على رأسه ثلاث غرف بيديه ، ثم يفيض الماء على جلده كله .

وعن أم سلمة . قالت : « جاءت أم سليم إلى رسول الله ، ﷺ ، فقالت : يا رسول الله :

إن الله لا يستحيى من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت ؟.

فقال النبى ﷺ ، « إذا رأت الماء » .

فغطت أم سلمة ، تعنى وجهها ، وقالت : يا رسول الله ، أو تحتلم المرأة ؟.

قال : « نعم تربت يمينك ، فبم يشبهها ولدها ؟ » .

وعن عبيد بن عمير ، قال «بلغ عائشة ، أن عبدالله بن عمرو ، يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رءوسهن ، فقالت : يا عجبا لابن عمرو وهو يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رءوسهن ! أو ما يأمرهن أن يحلقن رءوسهن ؟ لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ ، من إناء واحد ، وما أزيد على أن أفرغ على رأسى ثلاث إفراغات» .

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت :

« سئل رسول الله ، ﷺ ، عن الرجل يجد البلل ، ولا يذكر احتلاما .

فقال : يغتسل » .

وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ، ولا يجد البلل ، فقال : لا غسل عليه .

فقالت : أم سليم : المرأة ترى ذلك هل عليها الغسل .

قال : نعم ، إنما النساء شقائق الرجال .

طهارة الثوب من بول الطفل ومن المذى ومن دم الحيض :

عن أم الفضل : لبابة بنت الحارث ، قالت : « بال الحسين بن على فى حجر النبى ، ﷺ فقلت : يا رسول الله أعطنى ثوبك ، والبس ثوبا غيره حتى أغسله .

فقال : إنما ينضح من بول الذكر ، ويغسل من بول الأنثى [١] .

وعن سهل بن حنيف ، قال : «كنت ألقى من المذى شدة وعناء ، وكنت أكثر منه الاغتسال ، فذكرت ذلك لرسول الله ، ﷺ .

فقال : إنما يجزيك من ذلك الوضوء .

فقلت : يا رسول الله كيف بما يصيب ثوبى منه ؟ .

قال : يكفيك أن تأخذ كفا من ماء فتنضح به ثوبك حيث ترى أنه قد أصاب منه [٢] .

ورواه الأثرم ولفظه قال :

كنت ألقى من المذى عناء ، فأتيت النبى ، ﷺ ، فذكرت ذلك له ، فقال : يجزيك أن تأخذ حفنة من ماء فترش عليه .

وعن أبى هريرة : « أن خولة بنت يسار ، قالت : يا رسول الله ، ليس لى إلا ثوب واحد وأنا أحيض فيه ، قال : فإذا طهرت فاغسلى موضع الدم ، ثم صلى فيه، قالت : يا رسول الله ، إن لم يخرج أثره ؟ قال : يكفيك الماء ولا يضرك أثره [٣] ».

---

(١) رواه أحمد وأبو داود ، وابن ماجه .

(٢) رواه أبو داود ، وابن ماجه ، والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) رواه أحمد وأبو داود .

الأذان

عن محمد بن إسحاق ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله بن زيد بن عبد ربه ، قال : «لما أجمع رسول الله ﷺ ، أن يضرب بالناقوس ، وهو له كاره : لموافقته النصارى طاف بى من الليل طائف ، وأنا نائم ، رجل عليه ثوبان أخضران ، وفى يده ناقوس يحمله . قال :

فقلت : يا عبد الله أتبيع الناقوس ؟

قال : وما تصنع به ؟

قلت : ندعو به إلى الصلاة .

قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟

فقلت : بلى .

قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله لا الله .

قال : ثم استأخر غير بعيد ، قال : ثم تقول : إذا أقمت الصلاة : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة . الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ ، فأخبرته بما رأيت فقال رسول الله ﷺ : «إن هذه الرؤيا حق إن شاء الله» .

ثم أمر بالتأذين ، فكان بلال مولى أبى بكر يؤذن بذلك ويدعو رسول الله إلى الصلاة ، قال : فجاءه فدعاه ذات غداة إلى الفجر ، فقيل له : إن رسول الله ﷺ نائم ، فصرخ بلال بأعلى صوته :

الصلاة خير من النوم .

قال سعيد بن المسيب : «فأدخلت هذه الكلمة فى التأذين إلى صلاة الفجر» رواه أحمد وأبو داود من طريق محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم التيمى عن محمد بن عبد الله بن زيد ، عن أبيه وفيه :

فلما أصبحت ، أتيت رسول الله ﷺ ، فأخبرته بما رأيت .

فقال : إنها لرؤية حق ، إن شاء الله ، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت ، فإنه أندى صوتا منك ، قال : فقمت مع بلال ، فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به . قال فسمع ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو فى بيته ، فخرج يجر رداءه ، يقول :

«والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى أرى» فقال رسول الله ﷺ فلله الحمد (١) .

وعن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ، ولو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا إليه ، ولو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا» .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

«إذا قال المؤذن : الله أكبر ، الله أكبر ، فقال أحدهم : الله أكبر ، الله أكبر ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم قال : أشهد أن محمدا رسول الله ، قال : أشهد أن محمدا رسول الله ، ثم قال : حى على الصلاة ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : حى على الفلاح ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : الله أكبر ، الله أكبر ، قال : الله أكبر ، الله أكبر ، ثم قال : لا إله إلا الله قال : لا إله إلا الله ، من قلبه : دخل الجنة» (٢) .

وعن شهر بن حوشب ، عن أبى أمامة ، أو عن بعض أصحاب النبى ﷺ : «أن بلالا أخذ فى الإقامة ، فلما أن قال : قد قامت الصلاة ، قال النبى ﷺ : أقامها الله وأدامها ، وقال فى سائر الإقامة بنحو حديث عمر فى سائر الأذان» (٣) .

---

(١) روى الترمذى هذا الطرف منه بهذا الطريق وقال : حديث عبد الله بن زيد : حديث حسن صحيح .

(٢) رواه مسلم وأبو داود .

(٣) رواه أبو داود .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال : «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة» .

متناثرات خاصة بالأذان :

عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال :

قال لنا النبى ﷺ : «إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم»[1] .

وعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «من قال حين يسمع المؤذن : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد عليه الصلاة والسلام رسولا ، غفر الله له ذنوبه»[2] .

عند سماع الأذان :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

«إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىَّ فإنه من صلى علىَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة ، لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة»[3] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد»[4] .

زاد الترمذى فى رواية :

قالوا ، فماذا نقول يا رسول الله ؟

---

(١) الحديث أخرجه السبعة .

(٢) رواه مسلم والترمذى واللفظ له ، والنسائى ، وابن ماجه ، وأبو داود ولم يقل ذنوبه . وقال مسلم : غفر له ذنبه .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه أبو داود والترمذى واللفظ له ، والنسائى ، وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما ، وزاد . فادعوا .

قال : «سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة» .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ساعتان لا ترد على داع دعوته : حين تقام الصلاة ، وفى الصف فى سبيل الله»(١) .

وعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : «لا يخرج من المسجد أحد بعد النداء ، إلا منافق ، إلا لعذر ، أخرجته حاجة ، وهو يريد الرجوع»(٢) .

وعن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : « صليت مع النبى ﷺ العيدين غير مرة ، ولا مرتين بغير أذان ولا إقامة (٣) »

وعن جابر رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ ، أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء ، بأذان واحد وإقامتين .

مساجد الله :

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من بنى لله مسجدا ، بنى الله له مثله فى الجنة»(٤) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟»

قالوا : بلى يا رسول الله ،

قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط»(٥) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عنه ، عن النبى ﷺ قال :

«إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) ﴾ (٦) .

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٢) رواه أبو داود فى مراسيله .

(٣) رواه مسلم . (٤) متفق عليه .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه الترمذى وقال حديث حسن . والآية من سورة التوبة : ١٨ .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

«لا يزال أحدكم فى صلاة ما دامت الصلاة تحبسه ، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة» (١) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

«الملائكة تصلى على أحدكم ، مادام فى مصلاه الذى صلى فيه ، ما لم يحدث، تقول : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه» (٢) .

عن أبى الدرداء رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :

«من مشى فى ظلمة الليل إلى المسجد ، لقى الله عز وجل بنور يوم القيامة» رواه الطبرى فى الكبير بإسناد حسن ، وابن حبان فى صحيحه ، ولفظه قال : «من مشى فى ظلمة الليل إلى المسجد آتاه الله نورا يوم القيامة» .

متناثرات فى شئون المساجد :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : أمر رسول الله ﷺ ، ببناء المساجد فى الدور ، وأن تنظف وتطيب (٣) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن عمر رضي الله عنه عنه ، مر بحسان ينشد فى المسجد ، فلحظ إليه ، فقال : قد كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك (٤) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

«إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد، فقولوا له : لا أربح الله تجارتك» (٥) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «عرضت على أجور أمتى حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد» (٦) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذى ، وصحح إرساله .

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه النسائى والترمذى ، وحسنه .

(٦) رواه أبو داود والترمذى ، واستغربه ، وصححه ابن خزيمة .

وعن أبى قتادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين» [1] .

عن جابر رضي الله عنه قال : قال النبى ﷺ : «من أكل بصلا أو ثوما فليعتزلنا ، أو فليعتزل مساجدنا ، وليقعدن فى بيته» [2] .

فى رواية لمسلم :

«من أكل البصل ، والثوم ، والكرات ، فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم» .

صلاة الجماعة :

ومما يتصل بالمساجد اتصالا وثيقا : صلاة الجماعة .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته ، وفى سوقه خمسا وعشرين ضعفا ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحطت عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه ، ما لم يحدث ، تقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة» [3] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال :

«من سره أن يلقى الله تعالى ، غدًا مسلما ، فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم ، سنن الهدى ، إنهن من الهدى ، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف» [4] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى .

(٣) متفق على ، وهذا لفظ البخارى .

(٤) رواه مسلم .

وفى رواية له قال :

«إن رسول الله ﷺ ، علمنا سنن الهدى ، وإن من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه» .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله» (١) .

وفى رواية الترمذى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «من شهد العشاء فى جماعة كان له قيام نصف ليلة ، ومن شهد العشاء والفجر فى جماعة كان له كقيام ليلة» (٢) .

الصلاة الصلاة (٣)

الصلاة وكفارة الذنوب :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟

---

(١) رواه مسلم .

(٢) قال الترمذى حديث حسن صحيح .

(٣) سبق ان ذكرنا الأحاديث التالية متناثرة.ونعيد ذكرها هنا لأهميتها ولأنها تبين أهمية الصلاة :

عن بريدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «العهد الذى بيننا وبينهم . الصلاة ، فمن تركها فقد كفر» .

وعن عبد الله بن شقيق العقيلى ، قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة . رواه الترمذى .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوما ، فقال : «من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ، ولا برهانا ، ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون ، وهامان ، وأبى بن خلف» . رواه أحمد .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة ، الصلاة المكتوبة ، فإن أتمها وإلا قيل : انظروا ، هل له من تطوع؟ فإن كان له تطوع أكملت الفريضة تطوعه ، ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك» .

وعن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بين الرجل وبين الكفر : ترك الصلاة» .

وعن عبد الله بن الشخير قال : «رأيت رسول الله ﷺ يصلى وفى صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء» رواه أحمد، وأبو داود والنسائى .

قالوا : لا يبقى من درنه شىء .

قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[1] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، كفارة لما بينهن مالم تغش الكبائر»[2] .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها ، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله»[3] .

الصلاة ورؤية الله :

عن جرير بن عبد الله البجلى رضي الله عنه قال : كنا عند النبى ﷺ ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألاّ تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا »[4] .

وفى رواية : «فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة» .

أهمية صلاة العصر :

وعن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»[5] .

فرض الصلاة :

عن أنس بن مالك ، قال :

فرضت على النبى ﷺ : الصلوات ، ليلة أسرى به ، خمسين ، ثم نقصت حتى جعلت خمسا ، ثم نودى : يا محمد إنه ، لا يبدل القول لدى ، وأن لك بهذه الخمس خمسين»[6] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه البخارى .

(٦) رواه أحمد والنسائى والترمذى ، وصححه .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ :

« مروا صبيانكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » [١] .

أوقات الصلاة :

عن جابر بن عبد الله ، أن النبى ﷺ :

«جاءه جبريل عليه السلام (ظهرا) فقال له : قم فصله ، فصلى الظهر حين زالت الشمس . ثم جاءه العصر ، فقال : قم فصله ، فصلى العصر حين صار ظل كل شىء مثله . ثم جاءه المغرب فقال : قم فصله ، فصلى المغرب حين غابت الشمس . ثم جاءه العشاء ، فقال : قم فصله ، فصلى العشاء حين غاب الشفق . ثم جاءه الفجر ، فقال : قم فصله ، فصلى الفجر حين برق الفجر ، أو قال سطع الفجر . ثم جاءه من الغد للظهر ، فقال : قم فصله ، فصلى الظهر حين صار ظل كل شىء مثله. ثم جاءه العصر ، فقال : قم فصله ، فصلى العصر حين صار ظل كل شىء مثليه . ثم جاءه المغرب وقتا واحدا لم يزل عنه . ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل ، أو قال : ثلث الليل فصلى العشاء . ثم جاءه حين أسفر جدا ، فقال : قم فصله ، فصلى الفجر . ثم قال : ما بين هذين الوقتين وقت» [٢] .

وعن عقبة بن عامر ، أن النبى ﷺ قال : «لا تزال أمتى بخير ، أو على الفطرة ما لم يؤخروا المغرب حتى تشتبك النجوم» [٣] .

وعن ابن عمر ، أن النبى ﷺ قال : «الشفق الحمرة ، فإذا غاب الشفق وجبت الصلاة» [٤] .

وعن أبى برزة الأسلمى قال : «أن النبى ﷺ ، كان يستحب أن يؤخر العشاء التى يدعونها العتمة ، وكان يكره النوم قبلها ، والحديث بعدها» رواه الجماعة .

وعن ابن مسعود قال : «جدب لنا رسول الله ﷺ ، السمر بعد العشاء» [٥] .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود .

(٢) رواه أحمد والنسائى والترمذى بنحوه ، وقال البخارى : هو أصح شىء فى المواقيت .

(٣) رواه أحمد وأبو داود .

(٤) أى صلاة العشاء ، رواه الدارقطنى .

(٥) رواه ابن ماجه وقال جدب : يعنى زجرنا عنه ، نهانا عنه .

وعن أبى برزة الأسلمى رضي الله عنه قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصلى العصر ثم يرجع أحدنا إلى رحله فى أقصى المدينة والشمس حية ، وكان يستحب أن يؤخر العشاء ، وكان يكره النوم قبلها والحديث بعدها ، وكان ينفتل من صلاة الغداة حين يعرف الرجل جليسه ، وكان يقرأ بالستين إلى المائة» [١] .

وعندهما [٢] من حديث جابر : «والعشاء أحيانا يقدمها ، وأحيانا يؤخرها ؟ إذا رآهم اجتمعوا عجل وإذا رآهم أبطئوا أخر ، والصبح كان النبى ﷺ يصليها بغلس» .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة ، فإن شدة الحر من فيح جهنم » [٣] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ قال :

«من أدرك من الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس ، فقد أدرك الصبح ، ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس ، فقد أدرك العصر» [٤] .

أوقات لا صلاة فيها :

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس ، ولا صلاة بعد العصر حتى تغيب الشمس» [٥] .

وله عن عقبة بن عامر : «ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلى فيهن ، وأن نقبر فيهن موتانا : حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع ، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تزول الشمس ، وحين تتضيف الشمس للغروب» [٦] .

تسوية الصفوف :

عن أنس رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة» .

---

(١) متفق عليه .

(٢) أى عند البخارى ومسلم .

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

(٥) متفق عليه ، ولفظ مسلم : لا صلاة بعد صلاة الفجر .

(٦) مسلم .

وعن النعمان بن بشير ، قال : «كان رسول الله ﷺ ، يسوى صفوفنا إذا قمنا إلى الصلاة ، فإن استوينا كبر» [1] .

الاطمئنان فى الصلاة :

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ ، دخل المسجد ، فدخل رجل فصلى ، ثم جاء فسلم على النبى ﷺ ، فرده النبى ﷺ فقال : «ارجع فصل فإنك لم تصل ، فصلى ثم جاء فسلم على النبى ﷺ فقال : ارجع فصل فإنك لم تصل ، ثلاثا . قال : «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن جالسا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها».

فى كيفية الصلاة [2] :

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ قال :

«إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائما ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها» [3] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ ، إذا قام إلى الصلاة يكبر حين يقوم ، ثم يكبر حين يركع ، ثم يقول : (سمع الله لمن حمده) حين يرفع صلبه من الركوع ، ثم يقول وهو قائم : (ربنا ولك الحمد) ثم يكبر حين يهوى ، ثم يكبر حين يرفع رأسه ، ثم يكبر حين يسجد ، ثم يكبر حين يرفع رأسه ، ثم يفعل ذلك فى الصلاة كلها حتى يقضيها ، ويكبر حين يقوم من الثنتين بعد الجلوس» [4] .

ومثله فى حديث رفاعة بن رافع عن أحمد وابن حبان : «حتى تطمئن قائما» ولأحمد : «فأقم صلبك حتى ترجع العظام» .

---

(1) رواه أبو داود .

(2) هذه الأحاديث فى كيفية الصلاة يكمل بعضها بعضا ويذكر بعضها ما لم يذكره البعض الآخر وهى مجتمعة فى وضوح كيفية الصلاة .

(3) أخرجه السبعة ، واللفظ للبخارى ، ولابن ماجه بإسناد مسلم : «حتى تطمئن قائما» .

(4) متفق عليه .

وللنسائى وأبى داود من حديث رفاعة بن رافع : «إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمره الله تعالى ، ثم يكبر الله تعالى ويحمده ويثنى عليه» .

ولأبى داود : «ثم اقرأ بأم الكتاب وبما شاء الله» ولابن حبان «ثم بما شئت» .

وعن أنس ، عن النبى ﷺ قال :

«ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى صلاتهم ، فاشتد قوله فى ذلك ، حتى قال : لينتهن أو لتخطف أبصارهم» .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ ، إذا كبر فى الصلاة سكت هنية قبل القراءة ، فقلت : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة [1] ، ما تقول ؟ قال : أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى ، كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم : نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد» [2] .

وعن عمر أنه كان يقول :

«سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك» [3] .

الصلاة وفاتحة الكتاب :

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب ، فهى خداج» يقولها ثلاثا ، فقيل لأبى هريرة : إنا نكون وراء الإمام ؟ فقال : اقرأ بها فى نفسك ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين، قال الله : حمدنى عبدى، فإذا قال الرحمن الرحيم، قال الله : أثنى علىَّ عبدى ، فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدنى عبدى ، وقال مرة ، فوض إلىَّ عبدى ، وإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل» .

---

(١) أى قراءة الفاتحة .

(٢) رواه الجماعة إلا الترمذى .

(٣) رواه مسلم بسند منقطع . ورواه الدارقطنى موصولا وموقوفا .

وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن»(١) .

وفى رواية لابن حبان والدارقطنى : «لا تجزى صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب» .

وفى أخرى لأحمد وأبى داود والترمذى وابن حبان : «لعلكم تقرءون خلف إمامكم ؟ قلنا : نعم . قال : لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها» .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إذا قال الإمام - غير المغضوب عليهم ولا الضالين - فقولوا : آمين . فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» .

وضع اليمنى على اليسرى :

عن ابن مسعود ، أنه كان يصلى فوضع يده اليسرى على اليمنى ، فرآه النبى ﷺ فوضع يده اليمنى على اليسرى (٢) .

إذا أمن الإمام :

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أمن الإمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» .

متى السجود :

عن البراء بن عازب قال : كنا نصلى خلف النبى ﷺ ، فإذا قال : «سمع الله لمن حمده» لم يحن أحد منا ظهره حتى يضع النبى ﷺ جبهته على الأرض» .

لا يرفع المأموم رأسه قبل الإمام :

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : «أما يخشى أحدكم ، أو ألا يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار ، أو يجعل الله صورته صورة حمار» .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أبو داود والنسائى و ابن ماجه .

الذكر فى الركوع والسجود :

عن عقبة بن عامر قال : لما نزلت : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ : «اجعلوها فى ركوعكم» فلما نزلت ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ قال: «اجعلوها فى سجودكم» (١) .

عن حذيفة قال :

صليت مع النبى ﷺ ، فكان يقول فى ركوعه : «سبحان ربى العظيم ، وفى سجوده : سبحان ربى الأعلى ، وما مرت به آية رحمة إلا وقف عندها يسأل ، ولا آية عذاب إلا تعوذ منها» .

وعن عون بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن مسعود ، أن النبى ﷺ قال : «إذا ركع أحدكم ، فقال فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ثلاث مرات فقد تم ركوعه ، وذلك أدناه، وإذا سجد فقال فى سجوده : سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات فقد تم سجوده، وذلك أدناه» .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إذا قال الإمام : سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهم ربنا ولك الحمد ، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبى بكر ، فقال : «يا أيها الناس ، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة ، يراها المسلم ، أو ترى له ، ألا ، وإنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا ، أما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم» (٢) .

الدعاء عند الرفع من الركوع :

عن عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا رفع ظهره من الركوع قال : «اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض وملء ما شئت من

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه . والآية الأولى من سورة الواقعة ، والثانية من سورة الأعلى .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائى وأبو داود .

شيء بعد . اللهم نقني من الذنوب والخطايا ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . **اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد**»[1] .

وعن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ : «**لا ينظر الله إلى صلاة رجل ، لا يقيم** صلبه بين ركوعه وسجوده» [2] .

الدعاء بين السجدتين :

عن ابن عباس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ : «كان يقول بين السجدتين : «اللهم اغفر لي ، وارحمني واجبرني ، واهدني ، وارزقني»[3] .

في كيفية السجود :

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا سجدت فضع كفيك ، وارفع مرفقيك»[4] .

في كيفية التشهد :

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، قال : «كان رسول ﷺ ، إذا جلس في التشهد وضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ، ويده اليسرى على فخذه اليسرى ، وأشار بالسبابة ، ولم يجاوز بصره إشارته»[5] .

وعن وائل بن حجر رضي الله عنه : «أن النبي ﷺ ، كان إذا ركع فَرَّج بين أصابعه ، وإذا سجد ضم أصابعه»[6] .

صيغة التشهد :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «**علمني رسول الله** ﷺ ، التشهد كفي بين كفيه ، كما يعلمني السورة من القرآن : «**التحيات لله** ، والصلوات والطيبات ، **السلام عليك** أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله» رواه **الجماعة** .

---

(1) أخرجه مسلم .

(2) رواه أحمد .

(3) رواه الترمذي وأبو داود ، إلا أنه قال فيه : وعافني مكان : واجبرني .

(4) رواه مسلم .

(5) رواه أحمد والنسائي وأبو داود .

(6) رواه الحاكم .

وفى لفظ : أن النبىَ ﷺ قال : «إذا قعد أحدكم فى الصلاة ، فليقل : التحيات لله ، وذكره» . وفيه عند قوله : ««وعلى عباد الله الصالحين» فإنكم إذا فعلتم ذلك فقد سلمتم على كل عبد لله صالح فى السماء والأرض» وفى آخره : «ثم يتخير من المسألة ما شاء» (١) .

ولأحمد من حديث أبى عبيدة عن عبد الله ، قال : «علمه رسول الله ﷺ التشهد ، وأمره أن يعلمه الناس : التحيات لله ، وذكره . . .» .

قال الترمذى : حديث ابن مسعود : أصح حديث فى التشهد ، والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من الصحابة والتابعين .

فى صلاة فجر الجمعة :

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال :

كان رسول الله ﷺ ، يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة : « ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ سورة السجدة ، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ﴾ سورة الإنسان» (٢) .

قراءة هذه السورة فى فجر الجمعة ليس واجبا ويجوز أن يقرأ المصلى بغيرها، ويجوز أن يقرأ بجزء منها : آية أو آيتين بحسب ما يتيسر له .

وعن حذيفة رضي الله عنه قال :

«صليت مع النبى ﷺ ، فما مرت به آية رحمة إلا وقف عندها يسأل ، ولا آية عذاب إلا تعوذ منها» (٣) .

من صيغ الدعاء فى السجود :

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن عائشة رضى الله عنها قالت :

«فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو ساجد وهما منصوبتان ، وهو يقول : «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (٤) .

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .
(٣) أخرجه الخمسة ، وحسنه الترمذى .
(٤) أخرجه مسلم .

قنوت الوتر :

عن الحسن بن على رضي الله عنه أنه قال :

«علمنى رسول الله ﷺ ، كلمات أقولهن فى قنوت الوتر : «اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت» . رواه الخمسة وزاد الطبرانى والبيهقى : «ولا يعز من عاديت» زاد النسائى من وجه آخر فى آخره : «وصلى الله تعالى على النبى» .

دعاء فى الصلاة :

عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : لرسول الله ﷺ ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، قال قل : «اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم» (١) .

وعن على رضي الله عنه ، قال :

كان رسول الله ﷺ ، إذا قام إلى الصلاة يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت» (٢).

التسليم :

عن وائل بن حجر رضي الله عنه عنه قال :

«صليت مع النبى ﷺ ، فكان يسلم عن يمينه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وعن شماله : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» (٣) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

متناثرات فى شئون الصلاة

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ : «أن يصلى الرجل مختصرا» [١] .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إذا قدم العشاء فابدءوا به قبل أن تصلوا المغرب» [٢] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات فى الصلاة؟ فقال : «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» [٣] .

والترمذى وصححه : «إياك والالتفات فى الصلاة فإنه هلكة ، فإن كان لابد ففى التطوع» .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة أو لا ترجع إليهم» [٤] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : «التثاؤب من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع» [٥] .

وعن معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» [٦] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «التسبيح للرجال ، والتصفيق للنساء» [٧] . أى عندما يريد المصلى أن ينبه على أمر .

وعن أبى قتادة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يصلى وهو حامل أمامة بنت زينب ، وإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها [٨] ولمسلم : وهو يؤم الناس فى المسجد .

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم : ومعناه أن يجعل يده على خاصرته .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخارى .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه مسلم والترمذى وزاد : «فى الصلاة» .

(٦) رواه مسلم .

(٧) متفق عليه . زاد مسلم فى الصلاة .

(٨) متفق عليه .

وعن أبى جهيم بن الحارث رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لو يعلم المار بين يدى المصلى ماذا عليه من الإثم ، لكان أن يقف أربعين خيرا له من أن يمر بين يديه» [1] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا صلى أحدكم فليجعل تلقاء وجهه شيئا ، فإن لم يجد فلينصب عصا ، فإن لم يكن فليخط خطا ثم لا يضره من مر بين يديه »[2] .

دعاء رسول الله ﷺ فى الصلاة وبعدها :

ذكرنا من قبل بمناسبة افتتاح الصلاة وغيره بعض أدعية رسول الله ﷺ ، والآن نذكر ما لم نذكره من قبل من الأدعية ، ومما ينبغى التنبيه عليه أن هذه الأدعية التى ذكرناها والتى نذكرها لم يكن رسول الله ﷺ يقولها كلها فى ركعة واحدة أو فى صلاة واحدة ، وإنما كان يذكر منها فى الصلاة بحسب ما يشرح الله صدره له ، وبحسب ما يفتح الله عليه ، وللمصلى أن يحفظ منها ما يوفقه الله لحفظه ، وأن يتجه بالدعاء إلى الله كلما وجد فى نفسه انشراحا وفتحا .

عن أبى حميد وأبى سعيد قالا : قال رسول الله ﷺ : «إذا دخل أحدكم المسجد ، فليقل : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ، وإذا خرج ، فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك» [3] .

وعن فاطمة الزهراء رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد قال : «باسم الله والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج قال : باسم الله والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك» [4] .

وعن معاذ بن جبل قال : لقيت النبى ﷺ فقال : «إنى أوصيك بكلمات تقولهن فى كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك ، وشكرك وحسن عبادتك» [5] .

---

(1) متفق عليه . واللفظ للبخارى ، ووقع فى البزار من وجه آخر : أربعين خريفا .

(2) أخرجه أحمد وابن ماجه ، وصححه ابن حبان ، ولم يصب من زعم أنه مضطرب بل هو حسن .

(3) رواه أحمد والنسائى وكذا مسلم وأبو داود .

(4) رواه أحمد وابن ماجه .

(5) رواه أحمد ، والنسائى ، وأبو داود .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنها فقدت النبى ﷺ من مضجعها ، فلمسته بيدها ، فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول : «رب أعط نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها»[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ ، صلى فجعل يقول فى سجوده : «اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى سمعى نورا ، وفى بصرى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن شمالى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا، وفوقى نورا ، وتحتى نورا ، واجعل لى نورا، أو قال : واجعلنى نورا» .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «خصلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة ، وهما يسيرتان ، ومن يعمل بهما قليل ، يسبح الله فى دبر كل صلاة عشرا ، ويكبره عشرا ، ويحمده عشرا ، قال : فرأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده ، فتلك خمسون ومائة باللسان ، وألف وخمسمائة فى الميزان . وإذا آوى إلى فراشه سبح وحمد وكبر مائة مرة ، فتلك مائة باللسان وألف فى الميزان» .

وعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال : أنه كان يعلم بنيه هؤلاء الكلمات ، كما يعلم المعلم العلماء الكتابة ، ويقول : إن رسول الله ﷺ ، كان يتعوذ بهن دبر الصلاة : «اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر»[2] .

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، كان يقول فى صلاته : «اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ، وأسألك قلبا سليما ولسانا صادقا ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، واستغفرك لما تعلم»[3] .

وعن عائشة ، رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ ، يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ، ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى» يتأول القرآن .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه البخارى والترمذى وصححه .

(٣) رواه النسائى .

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال :

«وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياتى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى ، وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعا ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك» وإذا ركع قال :

«اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى» وإذا رفع رأسه قال :

«اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شىء بعد» وإذا سجد قال :

«اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره : تبارك الله أحسن الخالقين» ، ثم يكون من آخر ما يقول :

«اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت» (1) .

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا سلم من الصلاة قال :

«اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت» (2) .

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول فى دبر كل صلاة :

«اللهم ربنا ورب كل شىء ، أنا شهيد أنك أنت الرب وحدك لا شريك لك .

اللهم ربنا ورب كل شىء ، أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك .

---

(1) أخرجه الإمام أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(2) أخرجه أبو داود .

اللهم ربنا ورب كل شيء ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة .

اللهم ربنا ورب كل شيء ، اجعلني مخلصا لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة .

يا ذا الجلال والإكرام ، اسمع واستجب ، الله الأكبر ، الله الأكبر ، الله نور السموات والأرض ، رب السموات والأرض ، الله أكبر حسبي الله ونعم الوكيل ، الله أكبر»[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ليلة حين فرغ من صلاته :

«اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلم بها شعثي[2] ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها ألفتي[3] ، وتعصمني بها من كل سوء .

اللهم أعطني إيمانا صادقا ، ويقينا ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة .

اللهم إني أسألك الفوز في القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء .

اللهم إني أنزل بك حاجتي ، وإن قصر رأيي وضعف عملي افتقرت إلى رحمتك ، فأسألك يا قاضي الأمور ، ويا شافي الصدور ، كما تجير بين البحور ، أن تجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور[4] ، ومن فتنة القبور .

اللهم ما قصر عنه رأيي ، ولم تبلغه نيتي من خير وعدته أحدا من خلقك، أو خير أنت معطيه أحدا من عبادك ، فإني أرغب إليك فيه وأسألك رحمتك رب العالمين .

اللهم ذا الحبل الشديد ، والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة

---

(١) أخرجه أبو داود .

(٢) يعني وأن تجمع بهما ما تفرق من أمري .

(٣) يعني الذين ألفتهم وألفوني ، من أحببتهم .

(٤) الثبور : هو الهلاك .

يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، الركع السجود، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وإنك تفعل ما تريد .

اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، سلما لأوليائك ، وعدوا لأعدائك ، نحب بحبك من أحبك ، ونعادى بعداوتك من خالفك .

اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان [1] .

اللهم اجعل لى نورا فى قبرى . ونورا فى قلبى ، ونورا بين يدى . ونورا من خلفى ، ونورا عن يمينى . ونورا عن شمالى . ونورا من فوقى ، ونورا من تحتى ، ونورا فى سمعى ، ونورا فى بصرى . ونورا فى شعرى ، ونورا فى بشرى ، ونورا فى لحمى ، ونورا فى دمى ، ونورا فى عظامى .

اللهم أعظم لى نورا ، وأعطنى نورا ، واجعل لى نورا :

سبحان الذى تعطف بالعز وقال به [2] .

سبحان الذى لبس المجد وتكرم به .

سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له .

سبحان ذى الفضل والنعم .

سبحان ذى المجد والكرم .

سبحان ذى الجلال والإكرام» [3] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «من سبح الله فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وحمد الله ثلاثا وثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، وقال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» [4] .

وعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات : «اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من فتنة القبر» [5] .

---

(١) الجهد : هو الطاقة ، والتكلان المقصود به التوكل على الله سبحانه .

(٢) تعطف بالعز يعنى تردى به واتصف ، وذلك على طريق المجاز فى حقه تعالى .

(٣) أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن غريب لا نعرف من حديث ابن أبى ليلى إلا من هذا الوجه .

(٤) رواه مسلم .   (٥) رواه البخارى .

وعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال : «يا معاذ ، والله إنى لأحبك ، فقال : أوصيك يا معاذ ، لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» (١) .

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال : «اللهم أنت السلام . ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام» .

قيل للأوزاعى ، وهو أحد رواة الحديث : كيف الاستغفار ؟

قال : يقول : «استغفر الله ، أستغفر الله» (٢) .

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلم قال : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» (٣) .

وعن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم : «لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . . لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة والفضل، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» قال ابن الزبير : وكان رسول الله ﷺ ، يهلل بهن دبر كل صلاة (٤) .

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ كان يقول فى دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير.. اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» (٥) .

وعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بهن دبر كل صلاة : «اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أرد

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

(٢) رواه مسلم .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم .

(٥) متفق عليه .

إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر»[1] .

من مظاهر رحمته ﷺ فى الصلاة :

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

«إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف ، فإن منهم الضعيف ، والسقيم ، والكبير ، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء» .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن النبى ﷺ قال :

«إنى لأدخل فى الصلاة ، وأنا أريد إطالتها ، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى ، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه» .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ، ولا أتم من النبى ﷺ ، وإن كان ليسمع بكاء الصبى فيخفف مخافة أن تفتن أمه .

وعن أبى مسعود الأنصارى رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إنى والله لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان، مما يطيل بنا فيها .. قال : فما رأيت النبى ﷺ قط أشد غضبا فى موعظة منه يومئذ ، ثم قال :

«يا أيها الناس : إن منكم منفرين ، فأيكم صلى بالناس فليوجز فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة» .

المرأة والمساجد :

عن ابن عمر رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ : «إذا استأذنت امرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها» .

صلاة التطوع

بين رسول الله ﷺ فى بعض الأحاديث الحد الأدنى فى النوافل ، وبين فى بعضها الآخر زيادة عن الحد الأدنى لمن أراد الزيادة فى الخير .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : «حفظت عن رسول الله ﷺ ، ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعد الظهر ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء،

---

(١) رواه البخارى .

وركعتين قبل الغداة ، كانت ساعة لا أدخل على النبى ﷺ فيها فحدثتنى حفصة أنه كان إذا طلع الفجر وأذن المؤذن صلى ركعتين» [1] .

صلاة الليل :

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال :

«سئل رسول الله ﷺ : أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال : الصلاة فى جوف الليل ، قال : فأى الصيام أفضل بعد رمضان؟ قال : شهر الله المحرم» .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال :

«قام رجل فقال : يا رسول الله ، كيف صلاة الليل؟ فقال رسول الله ﷺ : صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة» . رواه الجماعة ، وزاد أحمد فى رواية : «وصلاة الليل مثنى مثنى تسلم فى كل ركعتين» وذكر الحديث .

ولمسلم : قيل لابن عمر : ما مثنى مثنى؟ قال : يسلم فى كل ركعتين .

الوتر :

عن أبى أيوب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«الوتر حق ، فمن أحب أن يوتر بخمس فليفعل ، ومن أحب أن يوتر بثلاث فليفعل ، ومن أحب أن يوتر بواحدة فليفعل» .

وفى لفظ لأبى داود : «الوتر حق كل مسلم» .

رواه ابن المنذر وقال فيه : «الوتر حق وليس بواجب» .

وعن خارجة بن حذافة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، ذات غداة فقال :

«لقد أمدكم الله بصلاة هى خير لكم من حمر النعم ، قلنا : وما هى يا رسول الله؟ قال : الوتر فيما بين صلاة العشاء إلى طلوع الفجر» .

---

(١) متفق عليه .

تطوع الفجر :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : لم يكن النبى ﷺ على شىء من النوافل أشد تعاهدا منه على ركعتى الفجر [١] .

وعنها ، عن النبى ﷺ قال : «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» [٢] .

تطوع الضحى :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ يصلى الضحى أربع ركعات ويزيد ما شاء الله [٣] .

تطوع الظهر :

عن أم حبيبة رضى الله عنها قالت : سمعت النبى ﷺ يقول : «من صلى أربع ركعات قبل الظهر ، وأربعا بعدها : حرمه الله على النار» .

تطوع العصر :

عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « رحم الله امرأ صلى قبل العصر أربعا »[٤] .

تحية المسجد :

عن أبى قتادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين » . رواه الجماعة .

وروى عنه ﷺ : «أعطوا المساجد حقها ، قالوا : ما حقها؟ قال : أن تصلوا ركعتين قبل أن تجلسوا» .

النافلة فى البيت والفريضة فى المسجد :

عن زيد بن ثابت ، أن النبى ﷺ قال :

«أفضل الصلاة صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة» .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى وصححه .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وابن ماجه .

(٤) رواه أحمد ، وأبو داود والترمذى .

الأوقات التى تكره فيها الصلاة :

عن أبى سعيد رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال :

«لا صلاة بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس ، ولا صلاة بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس»[1] .

وفى لفظ : «لا صلاة بعد صلاتين ، بعد الفجر حتى تطلع الشمس ، وبعد العصر حتى تغرب»[2] .

يوم الجمعة :

عن أبى أيوب رضي الله عنه سمعت النبى ﷺ يقول :

«من اغتسل يوم الجمعة ، ومس من طيب إن كان عنده ، ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج وعليه السكينة حتى يأتى المسجد فيركع إن بدا له ولم يؤذ أحدا ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى»[3] .

فضيلة السجود :

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء»[4] .

وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول :

«أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن»[5] .

وصلى الله على محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أحمد والبخارى .

(٣) رواه أحمد .

(٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى .

(٥) رواه الترمذى وصححه .

الركن الثالث من أركان الإسلام

الزكـــــاة



حكــم وأســرار

روى الإمام البخارى رضي الله عنه ، عن أبى هريرة نضر الله وجهه ، قال :

«لما توفى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر رضي الله عنه ، وكفر من كفر من العرب - بسبب عدم إخراجهم الزكاة وامتناعهم عن تأديتها - فقال عمر رضي الله عنه :

كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ، ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله؟» . فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقا ، كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها .

قال عمر رضي الله عنه :

«فو الله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق» .

من هذا الحديث الشريف نعلم ، أن مانع الزكاة بهذا الوضع ، وعلى هذه الصورة : كافر ، وأنه يحارب حتى يؤديها وإلا قتل .

وقد حارب سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ، مانعى الزكاة ، لأنه رأى أن الامتناع عن الزكاة إنكارا لها ، ارتداد عن الإسلام ، ولم ينفعهم - فيما رأى سيدنا أبو بكر ، وفيما رأى الصحابة معه - صلاة أو صيام ، أو غير ذلك من الشعائر الإسلامية ، ذلك أن الزكاة ركن من أركان الإسلام ، والامتناع عن أدائها إنما هو هدم ركن من أركان الدين .

إنها الركن الثالث يدفعها من تجب عليه لمستحقيها ، ليحيى بها نفوسا ، ويشبع بها بطونا ، ويمسح بها دموعا ، ويزيل بها آلاما ، وينال بها ثوابا وأجرا من الله تعالى [1] .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين للإمام الغزالى فى كتاب الزكاة .

وكأن الإسلام بفرضها أراد أن يلفت بها نظر المسلم ، ويوجه انتباهه - فى صورة من صور الواجب - إلى ضرورة شكر الله تعالى ، على ما أسدى إليه من نعمة المال ، وعلى ما وهب من نعمة الثراء .

وأراد أن يلفت نظره إلى أنه : عضو فى مجتمع يجب أن يكون متعاونا متساندا ، كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . . ،وإلى أنه عضو فى مجتمع يتكفل كل فرد فيه بالآخرين .

فالغنى متكفل بالفقير ، ، والقوى متكفل بالضعيف ، وذو الجاه متكفل بمن لا جاه له ، وذو العلم متكفل بمن لا علم له .

وقد جعل الله ، سبحانه وتعالى ، الزكاة برهانا على الإيمان ، يقول صلوات الله وسلامه عليه : «الصدقة برهان»[1] .

وكل من يخادع نفسه إذن ، فيدعى الإيمان ثم يمتنع عن زكاة ماله ، فإن هذا الامتناع نفسه برهان على كذبه .

وإذا كانت الزكاة برهانا ، فإنها أيضا : امتحان يستبين فيه من أجاب داعى الله ، ومن أعرض عنه .

ثم هى تطهير للنفس وتزكية لها ، وتطهير للمال وتزكية له ، يقول الله تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا (١٠٣) ﴾[2] .

والمال الطاهر المزكى : ينمو باستمرار ، ويجعل الله فيه البركة ، ويحفظه الله تعالى من التلف ، ويبعد عنه الآفات ، ثم يخلفه الله تعالى :

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾[3] .

وهو سبحانه وتعالى ، يعوضه أضعافا مضاعفة :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾[4] .

---

(١) كلمة الصدقة التى تشعر بالصدق والإخلاص تستعمل أحيانا بمعنى الصدقة الواجبة : أى الزكاة ، وتستعمل أحيانا أخرى بمعنى التبرع .

(٢) سورة التوبة آية : ١٠٣ .

(٣) سورة سبأ آية : ٣٩ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٦١ .

ويأتى من بعد ذلك كله الأجر والثواب ، ورضوان الله سبحانه وتعالى .

وأجر الزكاة يبدأ من عشرة أمثالها ، فالحسنة بعشر ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ماشاء الله ، من أضعاف لا يكاد يحصيها العد .

والزكاة إذن رابطة بين الإنسان وربه ، رابطة رضوان من الله ، وأجر وثواب ، ونماء وبركة ، ورابطة شكر من الإنسان لله تعالى ، على ما أنعم به ، وتفضل وأحسن وأكرم .

وهى من ناحية أخرى : رابطة بين الإنسان : وأفراد المجتمع الذى يعيش فيه ، رابطة مودة وتعاطف وتراحم .

والأساس الذى يجب أن يقوم عليه إعطاء الزكاة : أن يعطيها الإنسان طيبة بها نفسه منشرحا بها صدره ، غير منتظر شكرا ولا حمدا ، ولا معروفا يسدى ، ولا خدمة تؤدى ، يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾ [١] .

وبعض الناس يتبعون صدقاتهم بالمن والأذى فيبطل ذلك زكاتهم ، ولكن :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ﴾ [٢] .

وبعد ، فإن هذا المال الذى استخلفنا الله عليه وجعلنا مجرد مستخلفين فيه ، إنما هو مال الله سبحانه عن الفقراء مخاطبا الأغنياء :

﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) ﴾ [٣].

وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى :

«الأغنياء وكلائى ، والفقراء عيالى ، فإذا بخل وكلائى على عيالى ، أذقتهم نكالى ولا أبالى» .

---

(١) سورة الليل آية : ١٤ : ٢١ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٦٢ .

(٣) سورة الحديد آية : ٧ .

• أما هؤلاء الذى يشحون بالمال ويبخلون به ، فإن الله سبحانه وتعالى يتحدث عنهم فيقول :

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾ (١).

المعانى الإنسانية فى الزكاة :

روى الإمام أحمد رضى الله عنه بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى ذو مال كثير . وذو أهل ومال وحاضرة ، فأخبرنى كيف أصنع ، وكيف أنفق؟ فقال رسول الله ﷺ : «تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين ، والجار والسائل» .

فى هذا الحديث الشريف يبين رسول الله ﷺ : أن الزكاة تطهر المزكى ، إنها تطهره من البخل ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ (٢) .

وإن من الثلاث المهلكات التى تحدث عنها رسول الله ﷺ : الشح المطاع .

وتطهر النفس من الأنانية التى تجعل بعض النفوس يستأثر بكل شىء ، ويختص نفسه بكل خير مكتنزا له ومقترا حتى على أقربائه ، فإذا ما تعود على إخراج الزكاة فإنه بذلك يكون قد تعود على أن يمنح ما يملك ويعطى مما أعطاه الله فيخرج بذلك عن شىء من أنانيته ، ومن أجل ذلك يقول تعالى لرسوله الكريم :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٣) .

ثم هو طمأنينة للنفس : على النفس وعلى المال .

فالزكاة نوع من الفداء عن النفس ، يشعر بذلك المزكى شعورا واضحا ، أو شعورا خفيا ، إنه يشعر فى نفسه بعد أداء الزكاة بطمأنينة ، ويشعر فى قلبه برضا ، وفى ضميره بارتياح .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٨٠ .　　(٢) سورة الحشر : : ٩ .　　(٣) التوبة : ١٠٣ .

والزكاة نوع من الفداء عن المال ، ومن أجل ذلك يقول رسول الله ﷺ :

«حصنوا أموالكم بالزكاة» .

وإنه لمما يرضى النفس ويرتاح له الفؤاد ، أن يصل الإنسان بالزكاة أقرباءه ، فتكون الزكاة ، زكاة ، وصلة رحم ، ويكون ثوابها بذلك مضاعفا .

وإنه لشكر لله على النعمة، أن يخرج الإنسان بعضها لمن لم يمنحه الله الثراء.

وبعد : فإن المسلم الصادق يرى من قبل ذلك ومن بعده ، أن للزكاة غايتين :

أولاهما : أن الزكاة تأدية حق ، إنها واجب وليست منحة ، إنها واجب وليست تفضلا ، فهو يؤديها على أنها حق السائل والمحروم ، يقول الله تعالى : فى سورة الذاريات عن المتقين : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (1) .

ويقول الله تعالى فى سورة المعارج ذاكرا صفات المؤمنين الحميدة :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (2) .

أما الغاية الثانية : الغاية العليا ، الغاية السامية ، فإنها الرضا الإلهى ، يقول تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (21) ﴾ (3) .

الصــدقة

قول معروف ومغفرة : خير من صدقة يتبعها أذى :

يقول الله تعالى :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263) ﴾ (4) .

وردت هذه الآية الكريمة ، ضمن آيات عدة تحث على الصدقة ، وتذكر آدابها وثمراتها ، وقد بدأ الله سبحانه وتعالى هذه الآيات من سورة البقرة بذكر ثمرات التصدق فى سبيل الله ، ترغيبا فى الصدقة من أول الأمر .

---

(1) الذاريات : 19 .　　(2) المعارج : 24 ، 25 .

(3) الليل : 14 ، 21 .　　(4) البقرة : 263 .

مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله سبحانه : كمثل حبة غرست فى الأرض ، فنبتت وأينعت ، وأثمرت سبع سنابل ، ممتلئة موفورة ، فى كل سنبلة منها مائة حبة ، ويشير الله بذلك إلى أجر المتصدق ، ومقدار ما يخلفه الله عليه جزاء صدقته ، هذا الأجر الذى يتضاعف فيصل إلى سبعمائة مثل ، ولكنه لا يقتصر على ذلك ، فإنه بمقدار إخلاص المتصدق يضاعف الله له الأجر ، إذا شاء ، وأن فضل الله لأوسع من أن يضيق بمنح الأضعاف المضاعفة ، وهو سبحانه عليم بمن يستحق ذلك من المخلصين .

وبعد ذلك تتعرض الآيات لبعض شروط الصدقة المقبولة ، فمن ذلك أنه سبحانه :

١ - لا يقبلها من هؤلاء الذين يتبعونها بالمن .

والمن : أن يعتد المتصدق بإحسانه على من أحسن إليه ، فيقول مثلا : أنا أحسنت إليه فى كذا وكذا ، وأنا فعلت معه هذا وذاك ، يريد إظهار فضله عليه.

٢ - ومن ذلك أيضا : أنه سبحانه لا يقبلها ممن يتبعها بالأذى .

والأذى : أن يتطاول المنفق على من أنفق عليه بالكلام أو بغيره . أما الذين لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، فإن أجرهم عند الله سبحانه ، جزيل .

ومن أجل إبعاد المتصدقين عن أن يقعوا فيما يتصل بالمن والأذى من قرب أو بعد ، أفاض سلفنا الصالح فى الحديث ، عما يكون منًّا أو أذى ، فقالوا :

المن : أن يستخدمه بالعطاء ، والأذى : أن يعيره بالفقر .

وقالوا : المن : أن يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى : أن ينتهره ويوبخه بالمسألة .

ولقد قال الإمام الفقيه سفيان الثورى : «مَنْ مَنَّ فسدت صدقته ، فقيل له : كيف المن؟ فقال : أن يذكره ويتحدث به» .

ولقد كان سلفنا الصالح رقيقا فى هذه المعانى ، حتى لقد قال زيد بن أسلم رضي الله عنه : «إذا أعطيت أحدا شيئا ، وظننت أن سلامك يثقل عليه ، فكف سلامك عنه» .

على أن الكلام الحسن والرد الجميل على السائل ، والبشاشة فى وجهه ، والتجاوز عن إلحافه ، ومغفرة ذلك له - وكلها أمور سهلة التحقيق - خير عند الله وأفضل من صدقة يتبعها منٌ أو أذى للسائل .

والدين الإسلامى ، دين يحافظ على كرامة الفرد ، محافظة تامة مادام الفرد محافظا على حدود الدين وآدابه لا يتجاوزها ، وإن حث على الصدقة والإنفاق ، فليس يعنى بذلك الحط من قيمة الفقير ، بل إنه مما يؤثر عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : «ما الذى أعطى من سعة ، بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة» .

ويروى أيضا أنه قال ما معناه : «إن الصدقة تقع فى يد الله ، قبل أن تقع فى يد الفقير» .

على أن الصدقة فى الجو الإسلامى : انما تفيد المتصدق أكثر مما تفيد الآخذ ، ذلك أن فائدتها للآخذ : تكاد تكون فائدة مادية وحسب ، إنها بالنسبة له ، لا تعدو أن تكون علاجا للجوع .

أما بالنسبة للمعطى ، فإنها تفيده فى الدنيا ، وتفيده فى الآخرة .

أما فائدتها فى الدنيا ، فإن الله سبحانه ، يخلف عليه لا بالمثل فقط ، بل بأضعاف مضاعفة ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ .

والصدقة دواء من المرض ، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

«داووا مرضاكم بالصدقات» .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه ، فى إجمال ، وفى شمول :

«الصدقة تسد سبعين بابا من الشر» .

أما فائدة الصدقة فى الآخرة : فإنها كمايقول صلوات الله وسلامه عليه :

«تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

«اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة» .

ومن أجل فائدتها دنيا وأخرى ، كان سلفنا الصالح ، رضوان الله عليهم ، عندهم شعور مرهف وإحساس دقيق ، واندفاع إلى الخير ، فى صورة الصدقة ،

فلقد تصدقت السيدة عائشة رضوان الله عليها ، بخمسين ألفا ، وإن ثيابها لمرقعة .

ولقد كانت رضوان الله عليها : كغيرها من أفاضل ، ومن فضليات ذلك العهد الكريم ، إذا أرسلت صدقة إلى فقير قالت لمن ترسله بالصدقة : احفظ ما يدعو به ، ثم كانت ترد عليه مثل قوله : فتدعو له بمثل ما دعا لها ، وتقول : هذا بذاك ، حتى تخلص لنا صدقتنا ، وكانت لا تتوقع الدعاء : لأنه شبيه بالمكافأة ، وكانت تقابل الدعاء بمثله .

ولقد عرفوا رضوان الله عليهم ، قيمة الصدقة عند الله ، وقيمتها فى سبيل القرب منه سبحانه : يقول سيدنا عمر بن عبد العزيز واصفا فضل العبادات فى التقريب من الله : «الصلاة تبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلغك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه» .

عرفوا ذلك فتنافسوا فى البذل والإنفاق ، والتزموا حدود الآداب التى يحبها الله سبحانه من المنفق ، واعتبروا أن للفقير فضلا عليهم فى تطهير أموالهم وفى تزكية نفوسهم ، وفى وضعهم موضع القبول والرضا من الله سبحانه وتعالى ، فابتعدوا كل البعد عن إيذاء الفقراء على أى وضع من الأوضاع ، وإذا لم يكن عندهم ما يهدونه إلى الفقير قالوا له قولا معروفا ، وإذا ألحف غفروا له إلحافه ، وإذا فاه ببعض ألفاظ - لما يجد من الضيق الذى يحيط به - عفوا عنه .

وبعد فإن أسلافنا ممن أنار الله بصائرهم ، كانوا يتبعون الهدى الإسلامى فى أموالهم : إن هذه الأموال اشتراها الله منا فى عقد الإيمان بثمن هو الجنة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ . . . ﴾ (1) .

فالمال مال الله ، والله سبحانه استخلفنا عليه ، ثم أمرنا بأن ننفق فى سبيله وعلى عياله: أى الفقراء، مما استخلفنا فيه: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ . . ﴾(2).

وهو سبحانه المعطى للمال ، فالفضل منه وإليه ، ولو شاء الله لأغنى الفقراء ، ولكنه سبحانه فتح أمام الأغنياء بالصدقة بابا هو الصدق فى الإيمان حتى تكمل نفوسهم وتتزكى ، فيرضى عنهم ويدخلهم فى رحاب رحمته ورضوانه .

---

(1) التوبة : ١١١ .   (2) الحديد : ٧ .

الإيمان والإنفاق فى سبيل الله :

إن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه يقول : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» . وإذا وجد الإيمان وجد التآزر والتعاطف .

ونريد أن نتحدث فى هذا الجانب عن عامل واحد من عوامل التعاطف ، وهو الزكاة[1] . نريد أن نعود إلى الزكاة من جديد ، والحديث فيها لا يكاد ينفد .

إن الزكاة ، وإن كانت تزكية لمال المزكى ، فإنها تزكية وتطهير لنفسه . وهى تزكية وتطهير لنفس الآخذ ، فإنها تبعث فيه الرضا والاطمئنان ، وهى تربط بين أفراد المجتمع برباط محكم لأنها مودة وشكر .

والزكاة فى أوسع معانيها ، إنما هى بذل وتضحية : فمعاونة الضعيف زكاة ، وزيارة المريض زكاة ، وكظم الغيظ زكاة ، والعفو عند المقدرة زكاة ، والصدقة ولو بشق تمرة زكاة ، والكلمة الطيبة زكاة ، وكل إنفاق من القوة أو الذكاء أو المال فى سبيل الله ، إنما هو زكاة ، وقد وعد الله بأن يخلفه ، يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ [2] .

يخلفه فى الدنيا ، ويجزل العطاء عليه فى الآخرة .

والإسلام من أجل ذلك يشجع البذل والإنفاق ، والعبارات التى استعملها القرآن فى ذلك بلغت حدا من الروعة لا يجارى .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) ﴾ [3] .

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [4] .

ولقد قال رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه البخارى :

---

(١) نستعمل كلمة الزكاة هنا فى هذا المكان من الكتاب - بمعنى ما يزكى النفس ، غير ناظرين فى دقة إلى المعنى الاصطلاحى الفقهى ، الذى سنحدده إن شاء الله فيما بعد .

(٢) سبأ : ٣٩ . (٣) البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢ . (٤) الحديد : ١١ .

«على كل مسلم صدقة» . .

فقالوا : يا نبى الله ، فمن لم يجد؟

قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق .

قالوا : فإن لم يجد؟

فقال : يعين ذا الحاجة الملهوف .

قالوا : فإن لم يجد؟ قال : فليعمل بالمعروف ، وليمسك عن الشر فإنها له صدقة» .

ولأهمية الزكاة البالغة - سواء نظرنا إليها باعتبارها جزءا من الدين ، أو نظرنا إليها باعتبار أهميتها للمجتمع - حارب سيدنا أبو بكر هؤلاء الذين امتنعوا عن أدائها قائلا : «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» .

الزكاة حق المال ، وهى أيضا من حقوق لا إله إلا الله .

وسواء كنا بصدد الزكاة ، أو بصدد الصدقة فإن منزلتهما فى الدين ، وأهميتهما بالنسبة للمجتمع بينة واضحة ، والأحاديث فى الحث عليهما كثيرة يقول رسول الله ﷺ : «تصدقوا ولو بتمرة فإنها تسد من الجائع ، وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» .

وقال عليه الصلاة والسلام :

«اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة» .

«ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا طيبا - إلا كان الله آخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد» .

وقال ﷺ : « كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » . « والصدقة تسد سبعين بابا من الشر » .

الربـــــا

(١)

والطرف المعارض للصدقة ، الطرف الذى يبغضه الله ، ويبغض المتعاملين به ، هو الربا .

وقد حارب الإسلام الربا حربا لا هوادة فيها ، حاربه لأنه مبدأ ليس بإنسانى، واستعمل فى محاربته من التعبير أقساه ، لقد حاربه فى جملته ، وتفصيله ، يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾[١]

والمتعاملون بالربا : ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [٢] .

ويقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ [٣] .

ومما لاشك فيه : أن الربا على أية صورة من صوره يتعارض مع الروح الدينية العامة ، التى هى الرحمة والتعاون .

وإذا أردنا إذن أن تسود الثقة بين الناس فى المجتمع ، وأن يوجد التعاون ، والتآزر ، والتعاطف ، بين أفراده ، فالسبيل أمامنا واضحة : إنها إحياء الإيمان فى النفوس بشتى الوسائل ، وبمختلف الطرق حتى يستمر إيجابيا فعالا ، فنحقق بذلك قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [٤] .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٧٥ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٧٦ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٤) سورة آل عمران الآية : ١١٠ .

الربـــــا

(٢)

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (١) .

إن القاعدة الأساسية فى بيان حقيقة الربا هى : أن كل قرض جر نفعا فهو ربا . وقد بين الشرع الحكيم أن من أعطى غيره مقدارا من القمح أو من النقود فليس له أن يسترد إلا المقدار نفسه ، يقول تعالى :

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ .

وصاحب المال إذن ليس له إلا المقدار الذى أعطاه .

وقد كان عند سلفنا الصالح رضوان الله عليهم إحساس دقيق بهذه المعانى ، لدرجة أن الواحد منهم كان يتحرج من أن يستظل بظل شجرة المقترض أو حائطه .

وعلى هذا الأساس الدينى من القرآن والسنة، فإن كل محاولة لإخراج الفائدة، مهما قلت عن محيط الربا ، تكون منافية للكتاب والسنة وعمل السلف الصالح .

والآية القرآنية الكريمة التى بين أيدينا تتحدث عن حالة الذى يأكل الربا فى نفسه ، وتتحدث عن هؤلاء الذين يجادلون ويمارون فى أوامر الله ونواهيه من أجل تحليل ما حرم ، وتتحدث عن ثمرة استعمال الربا وثمرة الجانب المقابل له ، وهو الصدقة .

أما حالة من يأكل الربا فإنها كحالة المجنون الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك أنه إذا كان هذا الذى أصابه خبل ، يقوم ويسقط ويسير ويهوى إلى الأرض فهو متخبط بجسمه المادى .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٧٥ .

فإن الذى يقيس الربا على البيع ، ويجعل الربا حلالا ، لأن البيع حلال ، متخبط فى تفكيره العقلى ، بل إن هذا شر من الذى يتخبط بجسمه .

قال المعارضون لصراط الله المستقيم : إنما البيع مثل الربا ، وقصدوا بذلك المبالغة ، حيث جعلوا الربا أصلا ، وقاسوا عليه البيع .

وكان أهل الجاهلية إذا حل مال أحدهم على غريمه ، يقول الغريم : زدنى فى الأجل أزدك فى المال ، فيفعلان ، ويقولان : سواء علينا الزيادة فى أول البيع بالربح أو عند محل الدين هو مراضاة .

فأنكر الله سبحانه وتعالى عليهم ذلك وكذبهم وبين لهم ما يجب أن يلتزموه دون معارضة أو نقاش أو شك ، وهو الخضوع لحكم الله سبحانه وتعالى خضوعا لا يجدون معه فى أنفسهم حرجا ولا ضيقا ، قال الله تعالى لهم :

﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾

فكل قياس بعد ذلك يريد أن يخرج على هذا النص فإنه قياس فاسد ، وكل محاولة تريد أن تبرر حل الربا فإنها محاولة خاسرة .

وهؤلاء الذين يتجهون هذا الاتجاه ليس مثلهم فى تخبط منطقهم إلا كمثل تخبط المجنون الذى لا يكاد يخطو حتى يهوى إلى الأرض متعثرا مصروعا .

وموقف أكلة الربا ، بعد بيان الله سبحانه هذا وموعظته، إنما هو أحد أمرين:

إما أن ينتهى المرابى ويستجيب لله سبحانه وتعالى بترك الربا ، فهذا يكون أمره راجعا إلى الله وله رأس ماله فقط .

وإما أن يستمر على الربا ويتمادى بعد بلوغه النهى ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

على أن الله سبحانه وتعالى يذهب ببركة الربا فيحول بين المرابى وبين ما كان يطمح إليه من الزيادة أضعافا مضاعفة .

وإذا كان الله سبحانه يمحق الربا ويذهب ببركته ، فإنه سبحانه يبارك فى المال الذى أخرجت منه الصدقة .

وإن الرسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، يقول :

«ما نقص مال من صدقة» .

ويختم الله آيات الربا بهذا التهديد العنيف وبهذا الوعيد الشديد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

والمفهوم من هذه الآية الكريمة : أن المرابى الذى لم يتب لا يحل له شىء من ماله .

وقد وردت آيات الربا التى معنا بعد آيات رائعات تتحدث عن الصدقة ، وعن هؤلاء الذين يستجيبون لله تعالى فيسارعون إلى مرضاته بالصدقة وبالزكاة ، فيرعاهم ويكلؤهم بعنايته ويحفظهم بحفظه :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢) .

وإذا ذكرت قصص المرابين فى بشاعة واشمئزاز ، فإن قصص أصحاب الصدقات ، والمؤثرين على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، لا تكاد تحصى ولا تعد .

وإذا كان المرابون تسعر بهم نار جهنم ، فإن أصحاب الصدقات وأصحاب القرض الحسن على هدى من الله ، وفى رحاب رضوانه ، فإن من أنظر معسرا أو وضع عنه : «أظله الله بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» .

هذا ولم يكن موقف السنة النبوية الشريفة فيما يتعلق بالربا بأقل صرامة من موقف القرآن الكريم ، فقد روى البخارى ومسلم وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال :

«اجتنبوا السبع الموبقات – أى المهلكات – قالوا : يا رسول الله ، وما هن؟ قال: الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» .

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ، وقال : «هم سواء» .

---

(١) سورة البقرة الآيات : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٧٤ .

وقد تتساءل عن السر فى تحريم الربا بهذه الصرامة الصارمة ، ولكن هذا السر سافر ظاهر لا يغيب عن ذوى البصائر الرشيدة ، فإن الأساس الذى يتخذه الدين الإسلامى لبناء العلاقات بين أفراد المجتمع بعضهم مع بعض إنما هو الأخوة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴾ [1] .

«والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ولا يخذله» .

والأخوة تتنافى تنافيا مطلقا مع أى نظام استغلالى ، إنها تتنافى إذن تنافيا تاما مع التعامل بالربا .

ثم إن طابع الرسالة الإسلامية إنما هو الرحمة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [2] .

والمسلمون فيما بينهم إذن إخوة متراحمون ، إنهم فيما بينهم عطف وتعاون ، ومودة ورحمة ، وكل هذا طريق غير طريق المرابين .

وبعد ، فإن رسول الله ﷺ يقول فيما رواه الحاكم :

«أربع حق على الله ألا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها : مدمن الخمر ، وآكل الربا ، وآكل مال اليتيم ، والعاق لوالديه» .

وجـــوب الـزكـاة

الزكاة فرض على الأغنياء المسلمين [3] :

عن على رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ، ويعذبهم عذابا أليما» [4] .

الأمر بإيتاء الزكاة :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [5] .

---

(١) الحجرات : ١٠ .   (٢) الأنبياء : ١٠٧ .

(٣) الغنى فى العرف الإسلامى هو من امتلك النصاب .

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير .   (٥) سورة البقرة آية : ١١٠ .

ويقول سبحانه : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (١) .

ويقول تعالى :

﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

وقال تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

محاربة المنكرين للزكاة :

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، فيما رواه البخارى أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : «لما توفى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر رضي الله عنه ، وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر رضي الله عنه : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا

---

(١) سورة الحج آية : ٧٨ .

(٢) سورة المجادلة آية : ١٣ .

(٣) سورة المزمل آية : ٢٠ .

(٤) سورة التوبة آية : ١٠٣ .

بحقه وحسابه على الله» ، فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال . والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم على منعها .

قال عمر رضي الله عنه : فو الله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر ، رضى الله عنه ، فعرفت أنه الحق» .

الزكاة مما بنى عليه الإسلام :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان» (١) .

البيعة على إيتاء الزكاة :

يقول الإمام البخارى : بباب البيعة على إيتاء الزكاة : «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين» .

عن قيس قال : قال جرير بن عبد الله : بايعت النبى ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم .

وحينما أرسل رسول الله ﷺ سيدنا معاذا إلى اليمن أوصاه عدة توصيات كان منها : «إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

«إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك ، ومن جمع مالا حراما ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه» (٢) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٢) رواه ابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

المماطل فى الزكاة ملعون :

عن مسروق رضي الله عنه قال : قال عبد الله : «آكل الربا ، وموكله ، وشاهداه ، إذا عاماه ، والواشمة ، والمؤتشمة ، ولاوى الصدقة ، والمرتد أعرابيا بعد الهجرة ، ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة» . رواه ابن خزيمة فى صحيحه ، واللفظ له .

ورواه أحمد ، وأبو يعلى ، وابن حبان فى صحيحه ، عن الحارث الأعور ، عن ابن مسعود رضي الله عنه . (لاوى الصدقة : هو المماطل بها الممتنع من أدائها) .

جزاء الكانزين :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [1] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه يقول : قال النبى ﷺ : «تأتى الإبل على صاحبها على خير ما كانت إذا هو لم يعط فيها حقها تطؤه بأخفافها ، وتأتى الغنم على صاحبها على خير ما كانت ، إذا لم يعط فيها حقها تطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها» .

قال : «ومن حقها أن تحلب على الماء» ، قال : «ولا يأتى أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يعار [2] ، فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد بلغت .. ولا يأتى ببعير يحمله على رقبته له رغاء فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد بلغت» أ هـ .

إثم مانع الزكاة :

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمى عليها فى نار جهنم ، فيكوى بها جنبه ، وجبينه ، وظهره ، كلما بردت أعيدت له فى

---

(١) سورة التوبة آية : ٣٤ : ٣٥ .

(٢) وقوله : لها يعار ، بتحتانية مضمومة ثم مهملة : صوت ، وفى رواية المستملى والكشميهنى لها ثغاء بضم المثلثة ، ثم معجمة بغير راء ، ورجحه ابن التين ، وهو صياح الغنم .

يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة ، وإما إلى النار» .

قيل : يا رسول الله ، فالإبل؟ قال : «ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حقها - ومن حقها حلبها يوم وردها - إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع [1] قرقر [2] أوفر ما كانت ، لا يفقد منها فصيلا واحداً ، تطؤه بأخفافها ، وتعضه بأفواهها ، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله : إما إلى الجنة ، وإما إلى النار» .

قيل : يا رسول الله ، فالبقر والغنم؟ قال : «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر ، لا يفقد منها شيئا ، ليس منها عقصاء [3]، ولا جلحاء [4]، ولا عضباء [5]، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها [6]، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة ، وإما إلى النار» .

قيل : يا رسول الله ، فالخيل؟ قال : «الخيل ثلاثة : هى لرجل وزر ، وهى لرجل ستر ، وهى لرجل أجر . فأما التى هى له وزر ، فرجل ربطها رياء وفخرا ، ونواء [7] على أهل الإسلام ، فهى له وزر ، وأما التى هى له ستر ، فرجل ربطها فى سبيل الله ، ثم لم ينس حق الله فى ظهورها ، ولا رقابها ، فهى له ستر . وأما التى هى له أجر : فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام فى مرج وروضة فما أكلت من ذلك المرج ، أو الروضة من شىء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات ، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات ، ولا تقطع طولها [8] فاستنت [9] شرفا [10] أو شرفين إلا

---

(١) القاع : المكان المستوى من الأرض .

(٢) القرقر : بقافين مفتوحتين ، وراءين مهمملتين : هو الأملس .

(٣) العقصاء : هى المقلوبة القرن .

(٤) الجلحاء : هى التى ليس لها قرن .

(٥) العضباء : بالضاد المعجمة هى المكسورة القرن .

(٦) الظلف : للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس .

(٧) النواء : بكسر النون وبالمد - هو المعاداة .

(٨) الطول : بكسر الطاء وفتح الواو - هو حبل تشد به قائمة الدابة وترسلها ترعى ، أو تمسك طرفه وترسلها .

(٩) استنت : بتشديد النون - أى جرت بقوة .

(١٠) شرفا : بفتح الشين المعجمة والراء أى شوطا ، وقيل نحو ميل .

كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات ، ولا مر بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات» .

قيل : يا رسول الله ، فالحمر ؟ قال : «ما أنزل على فى الحمر شىء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [١] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «ما من أحد لا يؤدى زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع حتى يطوق به عنقه» . ثم قرأ علينا النبى ﷺ مصداقه من كتاب الله : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [٢] .

مصير مانعى الزكاة :

عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين» .

رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورواته ثقات ، والحاكم والبيهقى فى حديث إلا أنهما قالا : «ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر» [٣] .

خمس بخمس :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «خمس بخمس ، قيل : يا رسول الله ، ما خمس بخمس؟ قال : ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الموت ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر ، ولا طففوا المكيال إلا حبس عنهم النبات وأخذوا بالسنين» [٤] .

---

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة ، والحديث رواه البخارى ومسلم ، واللفظ له .

(٢) رواه ابن ماجه ، واللفظ له ، والنسائى بإسناد صحيح ، وابن خزيمة فى صحيحه .

(٣) السنين : جمع سنة ، وهى العام القحط الذى لم تنبت الأرض فيه ينتهى معناهما إلى شىء واحد وهو : القحط والجدب .

(٤) السنين : جمع سنة ، وهى العام القحط الذى لم تنبت الأرض فيه شيئا ، سواء وقع القطر أو لم يقع ، والحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، وسنده قريب من الحسن وله شواهد .

رواه ابن ماجه والبزار والبيهقى من حديث ابن عمر ، ولفظ البيهقى ، أن رسول الله ﷺ قال : «يا معشر المهاجرين ، خصال خمس إن ابتليتم بهن ، ونزلن بكم، أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفحشاء فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المؤنة ، وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله ، إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما فى أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم» .

الأنواع والمقادير الواجبة فى الزكاة

زكاة الزروع :

نبتدىء فى ذلك والله المستعان ، بالآيات والأحاديث التالية :

يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٢) .

وعن عتاب بن أسيد رضي الله عنه قال : أمر رسول الله ﷺ ، أن يخرص العنب كما يخرص النخل ، وتؤخذ زكاته زبيبا (٣) .

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ ، يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذى نعده للبيع (٤) .

---

(١) سورة الانعام آية : ١٤١ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٦٧ .

(٣) رواه غير واحد من كتب الصحاح .

(٤) رواه أبو داود

ونرجو بعد ذلك أن يتدبر القارئ قصة أصحاب الجنة التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى سورة القلم حيث يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١) .

ونرجو أيضا أن يتدبر القارئ قصة قارون :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٢) .

والجو القرآنى كله وجو الأحاديث ، والروح الإسلامية على وجه العموم ترشد إلى أن كل ما حصل عليه الإنسان من ثمار ، وكل ما اكتسبه من تجارة يؤدى زكاته .

---

(١) سورة القلم ١٧ : ٣٣ .

(٢) سورة القصص آية : ٧٦ - ٨١ .

يقول الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق : «وأحب أن أقرر فى هذا المقام وبمناسبة دخول الزراع فى موسم الحصاد : ان الشريعة الإسلامية أوجبت زكاة الزروع والثمار فى كل ما تخرجه الأرض باستنبات الإنسان وعمله كيفما كان الزرع ، وكانت الثمار» .

ويقول : «والتعميم فى زكاة الزروع على هذا الوجه . هو الذى يحقق معنى التكافل الاجتماعى الذى يقصده الإسلام من مشروعية الزكاة الذى يقضى بعدم استثناء طائفة من الناس بنوع من نعم الأرض التى أعدها الله للزراع وامتن بها على جميع عباده» أ هـ .

وهذا معناه أن الزكاة واجبة فى القليل والكثير على حد سواء ، وفى جميع الأنواع التى تخرجها الأرض ، وليس لذلك حد أدنى . أما مقدار زكاة الزروع فإنه يختلف باختلاف الجهد المبذول فى الاستنبات .

والأحاديث التالية توضح المقدار .

أخبرنا عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث أن أبا الزبير حدثه أنه سمع جابر بن عبد الله يذكر أنه سمع النبى ﷺ يقول : «فيما سقت الأنهار والغيم [١] ، العشور [٢] ، وفيما سقى بالسانية [٣] نصف العشر»[٤] .

وعن سالم بن عبد الله ، عن أبيه رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر ، وفيما سقى بالنضح نصف العشر» .

رواه البخارى ، ولأبى داود : «إذا كان بعلا العشر ، وفيما سقى بالسوانى أو النضح نصف العشر» .

ومعنى ذلك أنه إذا كانت الأرض تروى بدون جهد ، ففيها العشر ، أما إذا كانت تروى بالسانية ، أو بجهد على أى وضع كان ففيها نصف العشر .

---

(١) الغيم : أى المطر .

(٢) أى العشر .

(٣) السانية : هو البعير الذى يسقى به الماء من البئر ، ويسمى أيضا الناضح ، والحديث يدل على أن ما سقى بسهولة ويسر فيه العشر ، أما ما سقى بتعب وتكلف ففيه نصف العشر .

(٤) رواه مسلم فى صحيحه .

زكاة عروض التجارة :

والتجارة تقوم كل عام فى موعد محدد ، ويقدر ثمنها ، فإذا بلغ نصابا ففيها ربع العشر .

زكاة العمارات :

وما من شك فى أن مال العمارات الذى يؤخذ من إيجارها الشهرى يدخل تحت قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ .

وهو داخل فى المفهوم العام لقوله تعالى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ... ﴾ [1].

وفيه أيضا ربع العشر .

زكاة المرتب :

وإذا كان نصف قيراط من فجل أو كراث ، مثلا ، تجب فيه الزكاة ، فإن هذه المرتبات الشهرية ما دامت تبلغ النصاب فإنه يجب فيها الزكاة ، وهى داخلة أيضا فى نطاق قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ .

وهى أيضا داخلة فى المفهوم العام لقوله تعالى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ .

وفيه أيضا ربع العشر .

زكاة الكنز :

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «وفى الركاز الخمس» [2] .

والركاز هو الكنز الذى يجده الإنسان مدفونا ، ويتمثل فى ذهب أو فضة أو جواهر قد دفنه الأقدمون ، وتطاول عليه الدهر .

زكاة البترول :

وزكاة البترول كزكاة الركاز فيها الخمس ، وعلى الدول الثرية بالبترول أن تجنب خمس أرباحها لتنفقه فى مصارف الزكاة المحددة .

---

(١) الأنعام : ١٤١ .

(٢) متفق عليه .

زكاة الأنعام :

روى الإمام البخارى بسنده عن ثمامة بن عبد الله بن أنس أن أنسا حدثه أن أبا بكر ﷺ كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«هذه فريضة الصدقة التى فرض رسول الله ﷺ على المسلمين والتى أمر الله بها رسوله ، فمن سئلها من المسلمين على وجهها فليعطها ، ومن سئل فوقها فلا يعطى . فى أربع وعشرين من الإبل فما دونها فى كل خمس شاة [١] .

فإذا بلغت خمسا وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثى [٢] .

فإذا بلغت ستا وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون أنثى [٣] .

فإذا بلغت ستا وأربعين إلى ستين ففيها حقة [٤] طروقة الجمل .

فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة [٥] .

فإذا بلغت ستا وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون [٦] .

فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ، ففيها حقتان طروقة الجمل [٧].

فإذا زادت على عشرين ومائة ، ففى كل أربعين بنت لبون ، وفى كل خمسين حقة [٨] .

ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها [٩] .

---

(١) الشاة : من الضأن وهى : ما لها سنة وطعنت فى الثانية .

(٢) بنت مخاض : أنثى من ولد الناقة وهى ما لها سنة وطعنت فى الثانية .

(٣) بنت لبون : أنثى الجمل وهى الناقة التى مضى عليها سنتان ودخلت فى الثالثة .

(٤) الحقة : أنثى الجمل وهى ما مضى عليها ثلاث سنين ودخلت فى الرابعة ، واستحقت أن يطرقها الفحل .

(٥) الجذعة : هى أنثى الجمل التى أتى عليها أربع سنوات ، ودخلت فى الخامسة ، وأسقطت مقدم أسنانها .

(٦) بنتا لبون : تقدم تعريف لبنت لبون .

(٧) حقتان طروقة الجمل ، سبق تعريف الحقة الطروق.

(٨) معنى هذه العبارة أن نصاب زكاة الإبل إذا بلغت مائة وعشرين إلى تسع وأربعين ففيها ثلاث بنات لبون ، فإذا بلغت مائة وخمسين ففيها ثلاث حقات . وعن أبى حنيفة إذا زادت الإبل عن عشرين ومائة ، رجعت إلى فريضة الغنم فيكون فى خمس وعشرين ومائة ثلاث بنات لبون وشاة .

(٩) معنى ليس فيها صدقة ، أى زكاة واجبة ، ولكن إن شاء صاحبها الصدقة نفلا لا فرضا فعل .

فإذا بلغت خمسا من الإبل ففيها شاة (١) .

وفى صدقة الغنم فى سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة (٢) .

فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين شاتان (٣) .

فإذا زادت على مائتين إلى ثلاث مائة ففيها ثلاث (٤) .

فإذا زادت على ثلاث مائة ، ففى كل مائة شاة (٥) .

فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة من أربعين شاة واحدة ، فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها (٦) .

وفى الرقة ربع العشر (٧) .

فإن لم تكن إلا تسعين ومائة ، فليس فيها شىء إلا أن يشاء ربها» (٨) .

زكاة الحلى :

وقد اختلف العلماء فى ذلك، فروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه أوجب فى الحلى الزكاة ، وهو مذهب عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وعبدالله بن عمرو ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وعبد الله بن شداد ، وميمون بن مهران ، وابن سيرين ، ومجاهد ، وجابر بن زيد ، والزهرى ، وسفيان الثورى ، وأبى حنيفة وأصحابه ، واختاره ابن المنذر .

وممن أسقط الزكاة فيه :

عبدالله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأسماء بنت أبى بكر ، وعائشة ، والشعبى ، والقاسم بن محمد ، ومالك ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو عبيدة .

---

(١) إذا بلغت الإبل خمسا فزكاتها شاة ، وقد سبق تعريف الشاة .

(٢) زكاة الغنم التى ترعى فى كلأ مباح إذا بلغت أربعين إلى عشرين ومائة ، شاة .

(٣) زكاة الغنم التى ترعى فى كلأ مباح إذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين فزكاتها شاتان .

(٤) زكاة الغنم التى ترعى فى كلأ مباح إذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة فزكاتها ثلاث شياه .

(٥) زكاة الغنم التى ترعى فى كلأ مباح إذا زادت على ثلاثمائة فزكاتها فى كل مائة شاه .

(٦) فإذا كانت الغنم ترعى فى كلأ مباح وكانت تسعا وثلاثين فما دونها فليس فيها زكاة إلا أن يشاء صاحبها .

(٧) الرقة هى المال البالغ من خالص الذهب ما قيمته مائتا درهم فضة خالصة ، زكاته ربع العشر ، إذا مضى عليه حول ، بذلك يعلم أن الفضة البالغة مائتى درهم ، فيها ربع العشر كذلك .

(٨) فإذا لم تبلغ الرقة - ذهبا أو فضة ، مائتى درهم ، بأن كانت مائة وتسعين أو دون ذلك ، فليس فيها زكاة واجبة ، إلا أن يتطوع صاحبها بالتصدق منها .

قال ابن المنذر :

وقد كان الشافعى قال بهذا ، إذ هو بالعراق ، ثم وقف عنه بمصر ، وقال : هذا مما أستخير الله تعالى فيه .

وقال الخطابى وهو الرأى الذى نراه : «الظاهر من الآيات يشهد لقول من أوجبها ، والأثر يؤيده ، ومن أسقطها ذهب إلى النظر ، ومعه طرف من الأثر ، والاحتياط أداؤها والله أعلم» (1) أ . هـ .

مصارف الزكاة والصدقة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (2) .

الزكاة والإنفاق فى سبيل الله :

ذكر القرآن الكريم أن الإنفاق فى سبيل الله أحد مصارف الزكاة ، فهل سبيل الله يتضمن الإنفاق فى الجهاد؟

إن الإنفاق فى الجهاد إنفاق فى سبيل الله ، وحسناته وثوابه يضاعف ، يقول تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ (3) .

والآية الكريمة تفيد أن الله سبحانه وتعالى يضاعف لمن يشاء ، فيزيد عن سبعمائة ضعف ، وذلك تبعا لإخلاص المنفق وصدق نيته وإرادته بعمله وجه الله سبحانه .

وهل سبيل الله قاصر على الإنفاق فى الجهاد؟

---

(1) عن الترغيب والترهيب .

(2) التوبة آية : ٦٠ .

(3) البقرة : ٢٦١ .

وإذا كان الإنفاق فى الجهاد من أوائل الأمور التى يمكن أن يعبر عنها بسبيل الله ، فإن بناء المساجد إنفاق فى سبيل الله ، وإصلاحها ، وعمارتها ، وترميمها ، والقيام عليها بكل أنواع القيام والإشراف ، إنفاق فى سبيل الله ، وبناء المدارس والمساهمة فى النهوض بها تثقيفا لأبناء الوطن واستزادة من العلم الذى طلب رسول الإسلام الزيادة منه ، فقال ﷺ : «ربى ذدنى علما» .

العلم الذى يرفع الله درجات أصحابه مصورا ذلك بقوله :

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ... ﴾ (١) .

نقول إن بناء المدارس إنفاق فى سبيل الله .

وبناء المستشفيات إنفاق فى سبيل الله ، ومن أجمل ما يروى فى الآداب العالمية ما أخبر به رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه ، أن الله عز وجل يقول يوم القيامة :

«يا بن آدم مرضت فلم تعدنى ، قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده؟ يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا استطعمك فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى؟ قال : يار ب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه؟ أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى؟» (٢) .

وإذا كان الله تعالى يحثنا فى هذه الصورة الجميلة على عيادة المريض فما بالك بمن يبنى المستشفيات أو يساهم فيها علاجا للمرضى ، وتخفيفا للآلام؟

ومن أوائل الذين ذكرهم الله تعالى كمصارف للزكاة الفقراء ، ويقول الله تعالى فيهم أيضا : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) المجادلة : ١١ . (٢) رواه الإمام مسلم .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٧٢ .

الصدقة على الأقارب :

يقول تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

ويروى الإمام البخارى بسنده ، عن حكيم بن حزام رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :

«اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله» أ هـ .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

«أتى رجل من تميم ، رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى ذو مال كثير ، وذو أهل ومال ، وحاضرة فأخبرنى كيف أصنع ، وكيف أنفق؟ فقال رسول الله ﷺ : تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك وتعرف حق المسكين ، والجار ، والسائل» (٢) .

الصدقة على الأقارب ، صدقة وصلة رحم :

روى الإمام مسلم بسنده عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : «أفضل دينار ينفقه الرجل ، دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله» .

قال أبو قلابة : وبدأ بالعيال ، ثم قال أبو قلابة : وأى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم ، أو ينفعهم الله به ويغنيهم .

وعن عبد الله يزيد بن أبى مسعود البدرى ، عن النبى ﷺ قال : «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها ، كانت له صدقة» (٣) .

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن عبد الله بن أبى طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول : كان أبو طلحة أكثر أنصارى فى المدينة مالا ، كان أحب أمواله إليه

---

(١) سورة البقرة آية : ٢١٥ .

(٢) للحديث رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه .

بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ ، يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب .

قال أنس : فلما نزلت هذه الآية :

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ... ﴾ [1] .

قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : إن الله يقول فى كتابه :

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ... ﴾ .

وإن أحب أموالى إلىَّ بيرحاء ، وإنها صدقة لله أرجو برها ، وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله ، حيث شئت . قال رسول ﷺ :

«بخ ، ذلك مال رابح ، قد سمعت ما قلت فيها ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين» ، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه [2] .

وروى الإمام مسلم بسنده عن زينب امرأة عبد الله ، قالت : قال رسول الله ﷺ : «تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن ، قالت :

فرجعت إلى عبد الله فقلت : إنك رجل خفيف ذات اليد ، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة ، فأته ، فاسأله ، فإن كان ذلك يجزى عنى وإلا صرفتها إلى غيركم قالت :

فقال لى عبد الله ، بل ائتيه أنت ، قالت :

فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ ، حاجتى حاجتها ، قالت : وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة ، قالت : فخرج علينا بلال فقلنا له : ائت رسول الله ﷺ ، فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك ، أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما ، وعلى أيتام فى حجورهما ، ولا تخبره من نحن؟ قالت : فدخل بلال على رسول الله ﷺ ، فسأله فقال له رسول الله ﷺ : من هما؟ فقال : امرأة من الأنصار ، وزينب ، فقال رسول الله ﷺ : أى الزيانب؟

---

(١) آل عمران : ٩٢ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

قال : امرأة عبد الله ، فقال له رسول الله ﷺ : لهما أجران ، أجر القرابة ، وأجر الصدقة» [1] .

وروى الإمام البخارى بسنده عن أسماء بنت أبى بكر قالت : قدمتْ علىَّ أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدهم ، فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ﷺ قدمتْ علىَّ أمى وهى راغبة، أفأصل أمى؟ قال : «نعم صلى أمك».

وعن زينب بنت أبى سلمة عن أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله ، هل لى أجر فى بنى أبى سلمة أنفق عليهم ، ولست بتاركتهم هكذا ، وهكذا ، إنما هم بنى؟ فقال : «نعم لك فيهم أجر ما أنفقت عليهم» [2] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : جاءت زينب امرأة ابن مسعود ، فقالت : يا رسول الله ، إنك أمرت اليوم بالصدقة ، وكان عندى حلى لى ، فأردت أن أتصدق به ، فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من أتصدق به عليهم . فقال النبى ﷺ : «صدق ابن مسعود هو وولده أحق من تصدقت به عليهم» [3] .

الصدقــة

(أ) فضلها .　　　(ب) آدابها .

(جـ) أبواب منها .　　　(د) مسائل تتعلق بها .

فضــل الصدقــة [4]

الغنى يتصدق والفقير أيضا :

يقول سبحانه وتعالى :﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [5] .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

(٢) رواه مسلم بسنده فى صحيحه .

(٣) رواه الإمام البخارى .

(٤) نستعمل فى هذا الباب لفظ الصدقة بمعنى الزكاة الواجبة ، وبمعنى صدقة التطوع .

(٥) سورة الطلاق آية : ٧ .

من يبخل فإنما يبخل عن نفسه :

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ (١) .

وما تنفقوا من خير فلأنفسكم :

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وكلا وعد الله الحسنى :

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٣) .

والله يعلم ويخلف :

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (٤) .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة محمد آية : ٣٨ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٧٢ .

(٣) سورة الحديد آية : ١٠ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٧٠ .

(٥) سورة سبأ آية : ٣٩ .

إن الله هو الذى يأخذ الصدقة [1] :

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [2] .

الصدقة والربا :

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [3] .

فضل الصدقة [4]

(٢)

عن سعيد بن يسار أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ :

«ما تصدق أحد بصدقة من طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت تمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله» .

ويروى الإمام مسلم بسنده ، عن أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ قال :

«قال الله تبارك وتعالى : «يا ابن آدم أنفق أنفق عليك» . وقال : «يمين الله ملأى ، سحاء لا يغيضها شىء الليل والنهار» .

وعن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع» [5] .

---

(١) فى هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ ما معناه : «إن الصدقة تقع فى يمين الله قبل أن تقع فى يد الفقير» .

(٢) سورة التوبة آية : ١٠٤ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٧٦ .

(٤) ونقول مرة أخرى : إن الصدقة هنا نستعملها بمعنى الصدقة الواجبة (الزكاة) وبمعنى صدقة التطوع .

(٥) رواه أبو داود فى المراسيل ، ورواه الطبرانى والبيهقى ، وغيرهما عن جماعة من الصحابة مرفوعا متصلا . والمرسل أشبه .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رجل :

يا رسول الله ، أرأيت إن أدى الرجل زكاة ماله؟

قال رسول الله ﷺ : «من أدى زكاة ماله ، فقد ذهب عنه شره» .

رواه الطبرانى فى الأوسط ، واللفظ له ، وابن خزيمة فى صحيحه ، والحاكم مختصرا : «إذا أديت زكاة مالك ، فقد أذهب عنك شره» وقال : صحيح على شرط مسلم .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ ، فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار . قال : «لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ، ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت» (١) .

وعن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ ، فى صدر النهار فقال : فجاءه قوم حفاة عراة ، مجتابى النمار (٢) أو العباء ، متقلدى السيوف ، عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتمعر (٣) وجه رسول الله ﷺ ، لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالا ، فأذن وأقام ، فصلى ، ثم خطب فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ (٤) .

والآية التى فى الحشر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمرة ، قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز

---

(١) الحديث رواه أحمد والترمذى ، وصححه ، والنسائى ، وابن ماجه .

(٢) (مجتابى النمار أو العباء) النمار بكسر النون جمع نمرة بفتحها وهى ثياب صوف فيها تنمير ، والمعنى أنهم خرقوها وقوروا وسطها .

(٣) تمعر وجهه : تغير . (٤) النساء : ١ . (٥) الحشر : ١٨ .

عنها ، بل لقد عجزت ، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ : «من سن في الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها ، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ، ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1] .

وعن عدى بن حاتم قال : ذكر رسول الله ﷺ النار ، فأعرض ، وأشاح ثم قال: «اتقو النار» ثم أعرض وأشاح ، حتى ظننا أنه كأنما ينظر إليها ، ثم قال : «اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[2] .

وعن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «والذى نفسى بيده - ثلاث مرات - ثم أكب فأكب كل رجل منا يبكى ، لايدرى على ماذا حلف؟ ثم رفع رأسه ، وفى وجهه البشرى ، فكانت أحب إلينا من حمر النعم ، قال : «ما من عبد يصلى الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة ، وقيل له : ادخل بسلام»[3] .

وعن عبد الله بن معقل عن عدى بن حاتم ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمر فليفعل»[4] .

باب صدقة التطوع :

وروى الإمام البخارى قال :

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» ، فذكر الحديث وفيه : «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[5] .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كل امرئ فى ظل صدقته حتى يفصل بين الناس»[6] .

---

(١) الحديث بطوله رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

(٢) رواه الإمام مسلم .

(٣) رواه النسائى واللفظ له ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد.

(٤) رواه الإمام مسلم . (٥) متفق عليه .

(٦) رواه ابن حبان والحاكم .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله ، أى الصدقة أفضل؟ قال : «جهد المقل ، وابدأ بمن تعول»[1] .

من آداب الصدقة

عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يا أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾[2] .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ... ﴾[3] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء ، يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك»[4] .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾[5] .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[6] .

ويقول جل ذكره :

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[7] .

ويقول عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم .

(٢) المؤمنون : ٥١ . (٣) البقرة : ١٧٢ .

(٤) رواه الإمام مسلم فى صحيحه . (٥) سورة البقرة : ٢٦٣ .

(٦) سورة البقرة : ٢٦٧ . (٧) سورة البقرة : ٢٦٢ .

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٣) .

ويقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (٤) .

أبواب الصدقة

عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا به أبو هريرة، عن محمد رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها : وقال رسول الله ﷺ : «كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس ، قال : تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، قال : والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة» (٥) .

وعن سعيد بن أبى بردة ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ﷺ قال : «على كل مسلم صدقة ، قيل : أرأيت إن لم يجد؟ قال : يعمل بيديه ، فينفع نفسه ويتصدق ،

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٤ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٧١ .

(٣) سورة الرعد آية : ٢٢ .

(٤) سورة فاطر آية : ٢٩ .

(٥) رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

قيل : أرأيت إن لم يستطع؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف ، قال : قيل له : أرأيت إن لم يستطع؟ قال : يأمر بالمعروف أو الخير ، قيل : أرأيت إن لم يفعل؟ قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة»[1] .

وعن أبى الأسود الديلى ، عن أبى ذر ، أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قالوا للنبى ﷺ : «يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضل أموالهم ، قال ﷺ : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ إن لكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله ، يأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام ، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر»[2] .

مسائل من الصدقة

يقول الإمام البخارى :

باب : لا صدقة إلا عن ظهر غنى :

ومن تصدق وهو محتاج ، أو أهله محتاج ، أو عليه دين ، فالدين أحق أن يقضى من الصدقة ، والعتق والهبة ، وهو رد عليه ليس له أن يتلف أموال الناس .

وقال النبى ﷺ : «من أخذ أموال الناس يريد إتلافها ، أتلفه الله» إلا أن يكون معروفا بالصبر ، فيؤثر على نفسه ، ولو كان به خصاصة كفعل أبى بكر رضي الله عنه حين تصدق بماله .

وكذلك آثر الأنصار المهاجرين ، ونهى النبى ﷺ ، عن إضاعة المال ، فليس له أن يضيع أموال الناس بعلة الصدقة .

وقال كعب رضي الله عنه : قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » .

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

قلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر [1] أ . هـ .

باب : إذا تصدق على غنى وهو لا يعلم :

روى الإمام البخارى بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«قال رجل : لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق . فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج فوضعها فى يد غنى ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق على غنى . فقال : اللهم لك الحمد ، على سارق ، وعلى زانية ، وعلى غنى . فأتى ، فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله» [2] .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمر رضى الله عنهم ، أن رسول الله ﷺ قال : «من ولى يتيما له مال فيتجر له ، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة» [3] .

وعن على رضي الله عنه ، أن العباس رضي الله عنه ، سأل النبي ﷺ فى تعجيل صدقته قبل أن تحل فرخص له فى ذلك [4] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى ﷺ : «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها أجره بما اكتسب ، وللخادم مثل ذلك لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئا» [5]

---

(١) رواه الإمام البخارى .

(٢) رواه الإمام البخارى .

(٣) رواه الترمذى والدارقطنى . وإسناده ضعيف . وله شاهد مرسل عند الشافعى .

(٤) رواه الترمذى والحاكم .

(٥) متفق عليه .

صدقة الفطر

وزكاة الفطر واجبة على كل مسلم وجد لديه من المال ما يزيد عن حاجته ، وحاجة من تلزمه نفقته ، يوم العيد وليلته ، ويخرجها عن نفسه ، وعن كل من تلزمه نفقته من ذكر وأنثى من المسلمين .

يقول ابن عمر رضي الله عنهما ، فيما رواه البخارى ومسلم :

«فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعا من تمر ، أو صاعا من شعير ، على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين» .

وعن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ ، أمر بزكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة [1] .

وروى الإمام مسلم بسنده ، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ ، أمر بإخراج زكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة .

وروى الإمام مسلم بسنده ، عن أبى سعيد الخدرى ، أن معاوية لما جعل نصف الصاع من الحنطة عدل صاع من تمر ، أنكر ذلك أبو سعيد وقال :

لا أخرج فيها إلا الذى كنت أخرج فى عهد رسول الله ﷺ صاعا من تمر ، أو صاعا من زبيب ، أو صاعا من شعير ، أو صاعا من أقط .

وتيسيرا لأهل الريف نعرفهم أن الكيلة من القمح تكفى عن ستة أفراد .

وتيسيرا لأهل المدن نعرفهم أن خمسة عشر قرشا [2] تكفى فى سعة عن الفرد الواحد ، ويجوز أن يخرجها الإنسان بمجرد الدخول فى شهر رمضان ، ويكون عنده شهر رمضان كله فرصة لإخراجها ، والوقت المستحب للإخراج هو يوم العيد ، قبل صلاة العيد .

فقد روى البيهقى والدارقطنى ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر وقال : «أغنوهم فى هذا اليوم» .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) كان هذا المبلغ فى وقت تأليف الكتاب، والقاعدة فى اى وقت يمكن إخراج ثمن كيلة القمح بسعر يومها عن ستة أفراد ، بمعنى أن تكون زكاة الفطر للفرد الواحد ما يساوى ثمن سُدس كيلة القمح .

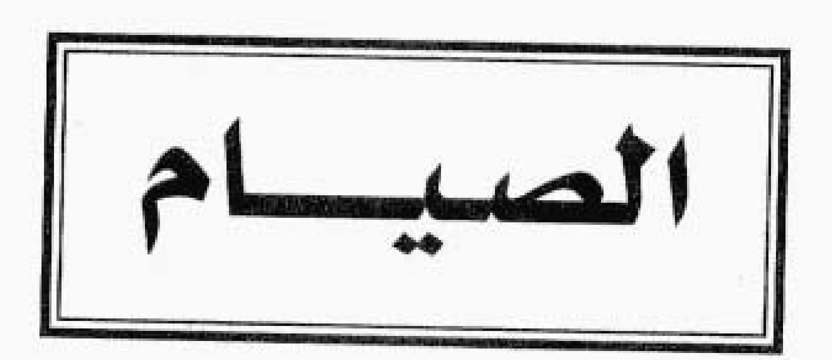
وفى رواية للبيهقى : «اغنوهم عن طواف هذا اليوم» .

وصدقة الفطر حق الله سبحانه وتعالى ، وهى كأى حق من حقوق الله ، لا تسقط بفوات وقتها ، وإنما تستمر دينا على من لم يؤدها ، ويكون فى تأخيرها إثم على من أخرها ، وعليه أن يعجل بأدائها .

وهى على كل حال دين فى ذمته ، يستمر حتى تؤدى ، ولو فى آخر العمر ، وإذا مات قبل أدائها فعلى ورثته أن تخرجها من تركته قبل تقسيمها .

فعلى كل من لم يؤد زكاة الفطر من المسلمين ، أن يخرجها فورًا فهى دين فى رقبته ، وهى طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وثوابها عند الله عظيم .

* * *


الصيام

شهــر رمضــان

فرض صيامه ، وحكمة الصيام

« شهر » و « رمضان » :

والشهر ، فيما قيل ، أصله من «الشهرة» يقال منه :

قد شهر فلان «سيفه» - إذا أخرجه من غمده ، فاعترض به من أراد ضربه - «يشهره شهرا» وكذلك «شهر الشهر» إذا طلع هلاله «وأشهرنا نحن» إذا دخلنا فى الشهر ، هذا عن كلمة : شهر .

أما عن كلمة رمضان : فإنها من الرمض ، يقول صاحب مختار الصحاح :

(الرمض) بفتحتين شدة وقع الشمس على الرمل وغيره ، والأرض (رمضاء) بوزن حمراء ، وقد (رمض) يومنا : اشتد حره ، وبابه طرب ، وأرض (رمضة) الحجارة .

و(رمضت) قدمه أيضا من الرمضاء أى احترقت .

وفى الحديث «صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال من الضحا» ، أى إذا وجد الفصيل حر الشمس من الرمض ، يقول صلاة الضحا تلك الساعة ، و(أرمضته) الرمضاء أحرقته .

و(رمضان) جمعه (رمضانات) و (أرمضان) بوزن أصفياء ، قيل : إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمى بذلك» [1] أ هـ .

وكان مجاهد ﷺ يكره أن يقال : «رمضان» ومن كلامه : لكن نقول كما قال الله «شهر رمضان» .

---

(١) مختار الصحاح .

فرض صيام رمضان :

فرض صيام رمضان فى السنة الثانية من الهجرة .

روى ابن سعد فى طبقاته الكبرى بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال :

نزل فرض شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر ، فى شعبان ، على رأس ثمانية عشر شهرا من مهاجر رسول الله ﷺ .

والآيات القرآنية التى نزلت فى شأن الصيام من حيث فرضيته ، ومن حيث الحكمة التى فرض من أجلها والتى تذكر بعض أحكامه ، قد جمعت متتالية فى سورة البقرة يتخللها آية من آيات الدعاء . والآيات هى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ (١) .

وهذه الآيات الكريمة تحدثت عن أمور سنأخذ فى الحديث عنها إن شاء الله مبتدئين بحكمة الصوم .

---

(١) البقرة : ١٨٥ - ١٨٧ .

لعلكـــم تتقـــون

(١)

والناس يتحدثون عن صيام رمضان ، وفوائده ، وحكمة مشروعيته ، منذ أن فرضه الله تعالى إلى الآن .

وحينما يحل هذا الشهر المبارك ، يكثر الحديث عنه فى الصحف ، والمجلات والكتب .

وصحافتنا المصرية تتبارى فى اجتذاب أكبر عدد من الكتاب ليكتبوا : «حديث رمضان» أو «حديث الصيام» .

ويتنافس كتابنا فى استنتاج الهدف من فرض الصيام .

ومن الحق أن نقول :

إن التوفيق يصاحبهم فى كثير من الأحايين : بيد أن هذه الآراء التى تذكر فى حكمة الصوم : محدودة معينة ، ولذلك كانت دائما ، موضع تكرار ، ولو لم يكرر القول لنفد كما يقولون .

لذلك كان تفاوت كتابنا ، إنما هو ، على الخصوص ، فى كيفية العرض ، وجمال الأسلوب .

ومن الأراء التى ذكرت فى حكمة الصيام :

١ - أن الإنسان تحكمه عاداته ، ويصل به الأمر إلى أن يصبح مجموعة من العادات وتتحكم فيه العادات إلى درجة يصبح معها ، كأنه آلة من الآلات ، تسير على نسق معين ، تؤدى أعمالا محدودة ، فيبتعد كل الابتعاد عن المرونة التى تفرق بينه وبين الآلات . والإنسان الذى تحكمه عاداته : يصبح عبدا لها ويتخلى عن شيم الأحرار الذين يعملون فى حرية واختيار . وفرض الله الصيام ، ليحرر الإنسان من هذه العبودية ، فإن الصيام يقلب العادات رأسا على عقب ، ويعلم الإنسان نوعا من المرونة حتى لا يتصرف تصرف الآلة .

٢ - وقد كتب الكاتبون كثيرا عن فائدة الصوم من الناحية الطبية ، وقد عبر عن ذلك خير تعبير ، المرحوم الأستاذ «فريد وجدى» إذ يقول :

كان الناس إلى زمان قريب يحسبون أن الصيام من الشئون الخاصة بالأديان ، ولكن لم يكد ينشر تاريخ الطب بين الناس ، حتى علموا أن الصيام قد اعتبر فى كثير من الأمراض : من مقومات الصحة الجسمانية ، كما علموا من عهد : «أبوقراط» أنه عامل قوى من العوامل المنقية للجسم من سموم الأغذية ، فإن المواد الحيوانية التى نتناولها بشراهة : تحتوى على مواد دهنية ، ومواد رباعية العناصر لا تطيق البنية البشرية أن تختزن مقدارا يزيد عن الحاجة منها ، وإطلاق الحرية للإنسان يجعله يتناول كل ما يقع تحت يده ، وكثيرا ما يصاب بسبب هذه الحرية بآفات مرضية تكون وبالا عليه .

والصوم ذو تأثير بالغ فى تخفيف الأمراض التى تنتاب الأعضاء الظاهرة والباطنة ، ،وتحويل محمود فى حالة المريض يتأدى منه إلى التخلص مما أصابه من الآلام والانحرافات ، وحصة الروح من هذا التحويل لا تقل قيمة عن حصة الجسم ، وقد استفاد الطب من ناحية الصوم ما لم يستفده من ناحية العلاج بالعقاقير» أ هـ .

٣ – وقد فرض الله الصوم ليحس الغنى بألم الجوع ، فيحسن إلى الفقير ، وبذلك يتم العطف والمودة ، وينشأ عنهما تماسك المجتمع وسعادته .

٤ – وقد فرض الله الصوم كذلك : تربية للإرادة ، وتقوية للعزيمة ، وتدريبا على الصبر .

٥ – وكذلك فرض الله الصوم ، تهذيبا للنفس ، وتصفية للروح .

هذه الآراء وغيرها قد قيلت فى حكمة الصوم ، وكررت ولكن الذى لاحظه الكثيرون من ذوى البصائر : أن الأمم الإسلامية فى وضعها الحالى ، أقل مرونة من الأمم الغربية وعلى الأخص من قطر كأمريكا الشمالية مثلا .

ويلاحظون أن هذه الأمم الإسلامية ، أقل فى مستواها الصحى من الأمم الغربية، كما يلاحظون أننا فى بيئاتنا الحاضرة وفى وضعنا الراهن ، نعانى الأمرين: من شح الأغنياء ، ولا نكاد نرى من يتبرع لمعهد علمى ، لتعليم أولاد الفقراء ، أو لمبرة خيرية ، وبيوتهم مغلقة لا يكاد الفقير يجرؤ حتى على التطلع إليها ، ومع أنهم يسرفون فى ملاذهم ، وينفقون الآلاف فى أوربا وغيرها على موائد القمار ،

وحفلات السباق ، وعلى الغانيات والراقصات ، فإنهم لا ينفقون شروى نقير فى وجه من وجوه الخير .

ومن دقة الإمام الشافعى رضي الله عنه أنه لم يقل : إن الصوم يعلم الجود أو يبسط الأيدى ، وإنما تمنى أن يكون الصائم كذلك ، فقال فى أسلوبه الدقيق «أحب للصائم الزيادة بالجود فى شهر رمضان ، اقتداء برسول الله ﷺ ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم ، ولتشاغل كثير منهم بالعبادة عن مكاسبهم» .

ولاحظ ذوو البصائر أيضا :

أن الصبر لا يكاد يوجد عند الصائم ، بل يتخذ الناس الصوم عذرا للصائم ، إذا تجاوز الحد ، وكثيرا ما تجاوزه .

★ ★ ★

لهذا كان رأى بعض المفكرين ، أن حكمة الصوم لا نعلمها ، ذلك ؛ لأنه عبادة ، والعبادة فى كثير من تفاصيلها ، لا نعلم لها حكمة .

هل نعلم مثلا حكمة الصلاة فى أن تكون ركعتين فى الصبح وقت النشاط ، وأربعا فى الظهر وهو وقت يكون الإنسان فيه عادة ، مجهدا؟

إن الصوم ، حسبما يرون ، من هذا النمط ، فرضه الله تعالى ، لحكمة لاشك فى ذلك ، ولكننا لا نعلمها .

ونحن هنا لا نتمشى مع النظرة الأخيرة ، التى تنفض يدها من بيان الحكمة فى الصوم ، لا نريد أن نكرر ما قالوه سابقا .

ذلك : أننا نتجه إلى الآيات القرآنية التى تحدثت عن الصوم ، فنستلهمها الحكمة ، وفيها لو تأملنا ، الحكمة واضحة ، فى تعبير غاية فى الدقة ، يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

فى هذه الآية حدثنا الله سبحانه وتعالى ، أنه كتب علينا الصوم ، وفرضه لغاية معينة ، ذكرها فى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وعبر القرآن بكلمة «لعل» ولم يقطع ، ولم يجزم ، بأن ثمرة الصوم لا محالة ، تحقق التقوى ، لأن الصوم : يعد الصائم للتقوى .

إنه إعداد وتهيئة ، إن مثله بالنسبة للصائم : كمثل زارع تعد له الأرض وتهيأ ، وتعطى له محروثة ، لا حشائش فيها ، مهيأة تمام التهيئة ، وما عليه إلا أن يتصرف حسبما يريد .

فإن شاء ألقى فيها البذر ثم تركه ، يذبل ويموت ، وإن شاء تركها مهملة ، تنمو فيها الحشائش الخبيثة من جديد ، وتعود تربة غير صالحة ، وإن شاء ألقى فيها البذر وتعهده حتى يترعرع ويستوى على سوقه ويؤتى أكله ، كل هذا منطوٍ فى كلمة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

فإذا ما تعهد الإنسان نفسه ، التى أعدت بالصوم ، وانتهى إلى التقوى ، كان جزاؤه حقيقة عند الله عظيما .

ومن هنا مفتاح فهم الأحاديث التى رويت فى الصوم ، والتى لا تفهم فهما حقيقيا إلا إذا راعينا أن الصائم ، يتعهد نفسه التى مهدت وأعدت بالصوم .

طلب أبو أمامة من رسول الله ﷺ ، يوما أن يأمره بعمل ينفعه الله تعالى به ، فقال ﷺ : «عليك بالصوم ، فإنه لا عدل له» فكرر له أبو أمامه الطلب فقال ﷺ : «عليك بالصوم فإنه لا مثل له» وطلب أبو أمامة للمرة الثالثة نفس الطلب ، فقال عليه الصلاة والسلام أيضا نفس ما قاله فى المرة الثانية» .

ولاشك أن الصوم لا عدل له ، ولا مثل له ، فى تهيئة النفوس للتقوى ، ومن انتهى بهذه التهيئة ، إلى غايتها ، و«صام رمضان إيمانا واحتسابا : غفرله ما تقدم من ذنبه» .

ومن هنا كان المعنى العميق ، للحديث المشهور :

«كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به» .

وهذا الحديث رواه البخارى ومسلم وبقية الكتب الستة ، وهو متناسق مع حديث آخر قدسى ، رواه البخارى وغيره : «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لى وأنا أجزى به» .

وقد فهم الناس أن الله يجازي الصوم ، باستمرار جزاء يزيد على سبعمائة ضعف ، وهذا صحيح فيما يتعلق بمن تعهد نفسه واتقى .

أما من لم يتعهد نفسه ، ولم يتق ، فتصدق فيه الأحاديث الأخرى التى لا تفهم فهما صحيحا إلا على ضوء ما قدمنا ، يقول الرسول ﷺ : «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش» (١) .

ويقول ﷺ : «من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه» (٢) .

ولا ينتهى الصوم إلى ثمرته التى أرادها الله تعالى منه ، إلا إذا صدقت النية وقويت العزيمة ، وصام الإنسان إيمانا واحتسابا ، أى صام على التصديق والرغبة ، طيبة بالصوم نفسه ، غير كاره له ، ولا مستثقل لأيامه ، وصام طلبا لوجه الله تعالى، وصدقت نيته فى النجاة ، واستشرفت نفسه لرضوان الله .

فإذا ما توافر كل ذلك تحقق ما قاله السابقون والمعاصرون فى فائدة الصوم .

أما بغير ذلك ، فليس للصوم من فائدة ، إلا الجوع والعطش ، عافانا الله واياكم من ذلك أ هـ .

لعلكم تتقون
(٢)

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وإن القيم الروحية فى الصوم ، لتتركز أسسا ومبادئ فى هذه الكلمة التى ختم الله سبحانه وتعالى بها الآية الكريمة وهى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

فالتقوى تتألف من عنصرين :

عنصر إيجابى هو القيام بما أمر الله سبحانه به من فروض وواجبات ، فى

---

(١) رواه النسائى وابن ماجه .

(٢) رواه البخارى .

القول : كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى كان مع الإيمان مناط خيرية الأمة الإسلامية .

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... ﴾ (١) .

وكذلك القيام بما أمر الله سبحانه وتعالى به ، فى الفعل ، كالصلاة على وجهها الصادق الذى يترتب عليه الانتهاء عن الفحشاء والمنكر .

أما العنصر الثانى من عناصر التقوى ، فإنه الانتهاء عما نهى الله سبحانه وتعالى عنه فى القول : كالغيبة التى يمثل الله فاعلها بمن يأكل لحم أخيه ميتا ، وكالكذب بجميع ألوانه ، يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾ (٢) .

والانتهاء كذلك فى الفعل عما نهى الله عنه ، مثل الغش فى المكاييل والموازين، الذى يقول الله سبحانه فيه :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾ (٣) .

هذا الغش الذى كان من الأسباب التى من أجلها دمر الله أمة من الأمم ، يقول تعالى فى سورة هود :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ (٤) .

---

(١) آل عمران : ١١٠ . (٢) الحجرات : ١١ .

(٣) المطففين : ١ - ٦ . (٤) هود : ٨٤ - ٨٦ .

ولكن أهل مدين لم يستجيبوا لشعيب ، وسخروا به ، ولم يُجْدِ فيهم أسلوب الرغبة أو الرهبة ، فكانت النتيجة ما عبر الله سبحانه وتعالى عنه بقول :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾[١].

فإذا تحققت التقوى بالصوم ، فقد تحققت القيم الروحية التى أحبها الله سبحانه للصائم ، يقول رسول الله ﷺ : «إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائما، فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله ، أو شاتمه ، فليقل : إنى صائم ، إنى صائم» .

وفى هذا الحديث الشريف ، يبين رسول الله ﷺ ما ينبغى للصائم ، وهو أن يكون صومه جنة ، أى وقاية له : وقاية عن إهمال ما أمر الله تعالى به ، ووقاية عن إتيان ما نهى الله تعالى عنه .

وإنه وقاية عن ذلك فى القول : فإنه ينبغى للصائم ألاَّ يتحدث بأسلوب لا يحبه الله سبحانه ، وهذا معنى قوله ﷺ : «فلا يرفث» هذا فى القول .

أما ما ينبغى فى الفعل : فقد عبر رسول الله ﷺ عنه بهذه الكلمة الجامعة :

«ولا يجهل» أى لا يتعدى حدود الفعل الذى أحبه الله ، ثم ذكر رسول الله ﷺ مثالا لذلك بقوله : «وإن امرؤ قاتله أو شاتمه ، فليقل : إنى صائم ، إنى صائم» .

لعلكم تتقون

(٣)

يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

فإذا ما وطن الإنسان نفسه على الخير والصلاح بعد أن مهد له الصوم السبيل إلى ذلك وأعده ليسير فى سهولة ويسر على الصراط المستقيم ، فقد فاز بثمرة الصوم المرجوة ، وهى : التقوى . والتقوى هى تجنب المعصية الكبرى ، التى لا

---

(١) هود : ٩٤ - ٩٥ .

يغفرها الله قط ، وهى الشرك بالله ، وكذلك تجنب ما دونها من المعاصى ، وهذا جانبها السلبى ، أما جانبها الإيجابى : فإنه القيام بكل واجب افترضه الله تعالى .

وإذا ما حقق الإنسان التقوى، فقد فاز ودخل فى نطاق الآية القرآنية الكريمة:

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾[١]

وقد روى فى الحديث : أن الله ينادى يوم القيامة :

«يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ، ولا أنتم تحزنون» فترفع الخلائق رءوسهم ويقولون : نحن عباد الله عز وجل ، ثم ينادى الثانية : «الذى آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين» . فينكس الكفار رءوسهم ، ويبقى الموحدون رافعى رءوسهم ، ثم ينادى الثالثة : «الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكس أهل الكبائر رءوسهم ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم ، قد أزال الكريم عنهم الخوف والحزن كما وعدهم [٢] .

أما الحكمة الثانية التى من أجلها فرض الصوم فهى ما يمكننا أن نلتمسه فى قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ .

فقد أمر الله تعالى بالصوم بعد أن ذكر أن هذا الشهر الكريم نزلت فيه الهداية الكاملة ممثلة فى القرآن فكان لابد أن نحتفل به - والاحتفال بشىء ما ، إنما يكون بما يتناسب معه ، فالاحتفال بالهداية ممثلة فى القرآن إنما يكون بما يعد النفس ويمهدها لاستقبال هذه الهداية على خير ما ينبغى : وذلك بالصوم ، فكأننا بالصوم إيمانا واحتسابا نصل إلى مستويات من شفافية النفس وتطهيرها وتزكيتها فتتنسم هدى السماء وتتشربه وتمتزج به فرحة مغتبطة ، فتفهم ، فى عمق ، قول الله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا . . . ﴾[٣].

أما الحكمة الثالثة لفرض الصيام ، فإننا نتلمسها فى قوله تعالى مختتما بعض آيات الصوم :

---

(١) يونس : ٦٢ - ٦٤ .   (٢) كتاب الرعاية لحقوق الله .

(٣) المائدة : ٣ .

﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾ .

فقد فرض الصوم لننتهى منه ونحن فى رحاب الله مغتبطين مستبشرين ، قد تزكت منا النفوس ، وتطهرت منا الأفئدة ، فيترتب على ذلك أن نكبر الله ونحمده على هدايته السماوية أولا ، وعلى توفيقه لنا بإتمام الصوم ثانيا ، ونشكره على كل ذلك فيزيدنا سبحانه بهذا الشكر هداية وتوفيقا ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ... ﴾ [١] .

ومما له مغزاه العميق ، أنه فى ثنايا هذه الآيات الكريمة التى تتحدث عن الصوم وتوجهنا إلى التقوى ، وإلى تكبير الله وإلى الشكر يخاطب الله رسوله ﷺ فجأة فيقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ .

ولا ريب أن النفوس التى صامت إيمانا واحتسابا ، وتزكت وتطهرت ، والتزمت التقوى ، وكبرت الله وشكرته : إنما هى نفوس قريبة من الله ، إذا دعته استجاب ، وإذا استلهمته الرشد والصواب ألهم ، وإذا استهدته هدى .

على أن الارتباط وثيق بين هذه النسمات الروحية التى نتحدث عنها الآن ، وبين ليلة القدر التى أنزل فيها القرآن ، والتى تنزل فيها الملائكة ، وتنزل فيها الروح على من يصطفيهم الله فى هذا الشهر المبارك ليكونوا من خاصة عباده ، فيسعدون فى الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

أما إذا تساءلنا الآن عن العبادة التى نشغل بها أنفسنا على العموم فى شهر رمضان ، والتى تهيئنا لليلة القدر والشرف ، فإنها فيما ينبغى : تلاوة القرآن وتدبره، ومحاولة فهمه ، والاسترشاد به ، وجعله نبراسا نسير على ضوئه فى كل أمورنا .

وإذا ما فهمنا رمضان على هذا الوضع، واستقبلناه بهذه الروح التى تستشرف رحمة الله ومغفرته فى هذا الشهر المبارك ، وتلقيناه بقلوب ملؤها العزم المصمم على التقوى والرشاد ، وصمناه إيمانا واحتسابا ، فإننا ننعم بمغفرة الله لنا ما تقدم من ذنوبنا حسبما روى عن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه .

---

(١) إبراهيم : ٧ .

وفضلا عن ذلك فإن الله يجزل لنا العطاء والثواب ، يقول الله تعالى فى حديث قدسى : «كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به» .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه البخارى ومسلم :

«كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به» .

وإذا كان جزاء الصوم عظيما ، فإن له آدابا منها ما ذكره رسول الله ﷺ فيما روى البخارى قال : «انما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما ، فلا يرفث، ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم ، إنى ، صائم» .

فضـل شـــهر رمضـــان

شهر عظيم :

حينمـا كـان يهل شـهـر رمـضـان ، كـان رسـول الله ﷺ يخطب فى المسلمين خطبة ، يبين فيها فضل هذا الشهر المبارك .

فعن سلمان رضى الله عنه قال :

خطبنا رسول الله ﷺ ، فى آخر يوم من شعبان ، قال :

« يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، شهر جعل الله صيامه فريضة ، وقيامه تطوعا ، من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير ، كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه ، كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه .

وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد فى رزق المؤمن فيه ، من فطر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه ، وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء » .

قالوا : يا رسول الله ، ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم، فقال رسول الله ﷺ:

« يعطى الله هذا الثواب من فطر صائما ، على تمرة ، أو على شربة ماء ، أو مذقة لبن » .

وهو شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار .

من خفف عن مملوكه [1] فيه ، غفر الله له ، وأعتقه من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خصال :

خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لاغناء بكم عنهما .

---

(1) يقابل المملوك فى العصر الحاضر : الخادم ، فالتخفيف عن الخادم فى رمضان من أسباب مغفرة الذنوب .

فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم :

فشهادة أن لا إله إلا الله ، وتستغفرونه .

وأما الخصلتان اللتان لاغناء بكم عنهما :

فتسألون الله الجنة ، وتعوذون به من النار .

ومن سقى صائما ، سقاه الله من حوضى شربة لا يظمأ (1) حتى يدخل الجنة ».

رواه ابن خزيمة فى صحيحه ، ثم قال : صح الخبر .

كل عمل ابن آدم له إلا الصوم :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

قال الله عز وجل :

« كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

« والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم ، فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد ، أو قاتله ، فليقل إنى صائم ، إنى صائم .

والذى نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم ، أطيب من ريح المسك .

للصائم فرحتان يفرحهما :

إذا أفطر فرح بفطوره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » (2) .

الرفث - بفتح الراء والفاء - يطلق ، ويراد به الجماع ، ويطلق ويراد به الفحش ، ويطلق ويراد به خطاب الرجل المرأة ، فيما يتعلق بالجماع (3) .

وقال كثير من العلماء :

إن المراد به فى هذا الحديث الفحش ، ورديء الكلام .

والجنة - بضم الجيم وهو ما يجنك : أى يسترك ويقيك مما تخاف .

---

(1) أى أن الله سبحانه وتعالى ييسر له دائما الرى فى سهولة، فلا يأتى عليه ظرف يكون فيه فى أزمة، لشدة الظمأ .

(2) رواه البخاري .

(3) الحديث الشريف ، والشرح عن كتاب « الترغيب والترهيب » .

ومعنى الحديث :

إن الصوم يستر صاحبه ويحفظه من الوقوع فى المعاصى .

وسئل سفيان بن عيينة عن قوله تعالى :

« كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم فإنه لى » فقال :

« إذا كان يوم القيامة يحاسب الله عز وجل عبده ، ويؤدى ما عليه من المظالم من سائر عمله ، حتى لا يبقى إلا الصوم ، فيتحمل الله ما بقى عليه من المظالم ، ويدخله بالصوم الجنة » .

الصوم لى وأنا أجزى به :

قال الشيخ [1] رحمه الله : روى عن النبى ﷺ ، أنه قال :

يقول الله تبارك وتعالى :

« الصوم لى وأنا أجزى به » .

فإن قال قائل :

ما معنى تخصيص الصوم من بين سائر العبادات ، وقد علمنا أن جميع الأعمال له ، وهو يجزى بها ، فما معنى قوله : « الصوم لى وأنا أجزى به » ؟

فيقال : له معنيان :

أحدهما : أن للصوم تخصيصا من بين سائر العبادات المفترضات ، لأن جميع المفترضات حركات جوارح ، يتهيأ للخلق ، أن ينظروا إليها ، إلا الصوم ، فإنه عبادة بغير حركة الجوارح .

فمن أجل ذلك قال تعالى : « الصوم لى » .

والمعنى الآخر فى قوله « لى » بمعنى أن الصمدية لى ، لأن « الصمد » هو الذى لا جوف له ، ولا يحتاج إلى الطعام أو الشراب « فمن تخلق بأخلاقى أجزيه مالا يخطر على قلب بشر » .

وأما معنى قوله : « وأنا أجزى به » فإن الله تعالى ، وعد على (جميع) فعل

---

(١) صاحب كتاب اللمع فى التصوف .

الحسنات ، الثواب المعدود من الواحدة إلى عشر أمثالها (من العشرة) إلى السبعمائة إلا الصائمين و (الصائمون) هم الصابرون .

(وقد) قال الله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) .

فخرج الصوم من الحسنات المعدودات وثوابها ، لأن الصوم هو : صبر النفس عن مألوفاتها وإمساك الجوارح عن جميع شهواتها ، والصائمون هم الصابرون .

وقد روى فى معنى ذلك عن النبى ﷺ أنه قال :

« إذا صمت فليصم سمعك ، وبصرك ، ولسانك ، ويدك » .

وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال :

« إذا صام أحدكم فلا يرفث ، ولا يفسق ، فإن شتمه إنسان فليقل : إنى صائم » .

وصحة الصوم ، وحسن أدب الصائم فى صومه ، صحة مقاصده ، ومباينة شهواته ، وحفظ جوارحه ، وصفاء مطعمه ، ورعاية قلبه ، ودوام ذكره ، وقلة اهتمامه بالمضمون من رزقه ، وقلة ملاحظته لصومه ، ووجله من تقصيره ، والاستعانة بالله تعالى ، على تأديته ، فذلك أدب الصائم فى صومه (2) .

هل من تائب ؟

عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال :

« إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ، فتحت أبواب الجنان ، فلم يغلق منها باب واحد ، الشهر كله ، وغلقت أبواب النار ، فلم يفتح منها باب واحد الشهر كله، وغلغلت عتاة الجن . ونادى مناد من السماء كل ليلة إلى انفجار الصبح :

يا باغى الخير يمم وأبشر ، ويا باغى الشر أقصر وأبصر .

هل من مستغفر يغفر له ؟

---

(1) سورة الزمر الآية : ١٠ .

(2) من كتاب اللمع .

هل من تائب يتوب الله عليه ؟

هل من داع يستجاب له ؟

هن من سائل يعطى سؤاله ؟

ولله عز وجل عند كل فطر من شهر رمضان كل ليلة عتقاء من النار ستون ألفا ، فإذا كان يوم الفطر أعتق الله مثل ما أعتق فى جميع الشهر ، ثلاثين مرة ، ستين ألفا ، ستين ألفا » [١] .

أبواب الرحمة فى شهر رمضان :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين » [٢] .

وفى رواية لمسلم :

« فتحت أبواب الرحمة ، وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين » .

ورواه الترمذى ، وابن ماجه ، وابن خزيمة فى صحيحه ، والبيهقى ، كلهم من رواية أبى بكر بن عياش عن الأعمش ، عن أبى صالح عن أبى هريرة ، ولفظهم قال:

« إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ، ومردة الجن » .

وقال ابن خزيمة :

« الشياطين مردة الجن » بغير واو ، « وغلقت أبواب النار ، فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة ، فلم يغلق منها باب ، وينادى مناد :

« يا باغى الخير أقبل ، ويا باغى الشر أقصر ، ولله عتقاء من النار ، وذلك كل ليلة » [٣] .

---

(١) رواه البيهقى .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه النسائى والحاكم ، بنحو هذا اللفظ ، وقال الحاكم صحيح على شرطهما .

باب الريان :

عن سهل بن سعد رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال :

« إن فى الجنة بابا يقال له : الريان ، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لايدخل منه أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد »[1].

من لا ترد دعوتهم :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء . ويقول الرب :

« وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

رواه أحمد فى حديث ، والترمذى ، وحسنه ، وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحهما ، والبزار ، ولفظه :

« ثلاثة حق على الله أن لا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمظلوم حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع » .

وعن كعب بن عجرة رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ :

« احضروا المنبر ، فحضرنا ، فلما ارتقى درجة قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثانية قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال : آمين .

فلما نزل قلنا : يا رسول الله ؟

لقد سمعنا منك اليوم شيئا ماكنا نسمعه ، قال :

إن جبريل عليه السلام ، عرض لى ، فقال :

بعد من أدرك رمضان فلم يغفر له ، قلت : آمين .

فلما رقيت الثانية قال :

بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فقلت : آمين .

---

(١) رواه البخارى .

فلما رقيت الثالثة قال :

بعد من أدرك أبويه لكبر عنده أو أحدهما ، فلم يدخلاه الجنة ، قلت : آمين »[1] .

صيام رمضان فرض ، وقيامه سنة :

وفى رواية للنسائى أن رسول الله ، ﷺ قال :

« إن الله فرض صيام رمضان ، وسننت لكم قيامه ».

فمن صامه وقامه إيمانا واحتسابا ، خرج من ذنوبه ، كيوم ولدته أمه .

رمضان ومغفرة الذنوب :

لقد كان رسول الله ﷺ ، يرغب فى قيام رمضان من غير أن يأمرهم بعزيمة ثم يقول :

« من قام رمضان إيمانا واحتسابا ، غفر له ما تقدم من ذنبه »[2] .

معنى إيمانا واحتسابا :

قال الخطابى : قوله « إيمانا واحتسابا » أى نية وعزيمة ، وهو أن يصوم على التصديق والرغبة فى ثوابه طيبة بها نفسه ، غير كاره له ، ولا مستثقل لصيامه ، ولا مستطيل لأيامه ، لكن يغتنم طول أيامه لعظم الثواب .

وقال البغوى :

قوله : « احتسابا » أى طلبا لوجه الله تعالى وثوابه .

يقال : فلان يحتسب الأخبار ، ويتحسبها : أى يتطلبها .

ومما هو داخل فى « إيمانا واحتسابا » :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال :

« من صام رمضان ، وعرف حدوده ، وتحفظ مما ينبغى له أن يتحفظ ، كفر ما قبله »[3] .

---

(١) رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود ، والترمذى والنسائى .

(٣) رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى .

- **الصيام جنة :**

روى عن النبى ﷺ قال :

« الصيام جنة ، وحصن حصين من النار »[1] .

وعن معاذ بن جبل رضى الله ، أن النبى ﷺ قال له :

ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال :

« الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار » :

من ثمار الصيام والقرآن :

عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام :

أى رب ، منعته الطعام والشهوة ، فشفعنى فيه .

ويقول القرآن :

منعته النوم بالليل ، فشفعنى فيه .

قال : فيشفعان[2] .

رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب : الجوع ، وغيره بإسناد حسن ، والحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم .

الصالحون وشهر رمضان

والصالحون دائما يتأسون برسول الله ﷺ :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[3] .

والتأسى برسول الله ﷺ إنما هو اتباع للقرآن .

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح .

(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ، ورجاله محتج لهم فى الصحيح .

(٣) الأحزاب : ٢١ .

فلقد كان رسول الله ﷺ الصورة الواقعية للقرآن .

لقد كان خلقه القرآن ، كما تقول السيدة عائشة رضوان الله عليها .

وشهر رمضان موسم من أسمى المواسم الروحية ، فى الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى ، وفى الاندماج فى عباده الصالحين .

والخطوة الأولى فى هذا الطريق ، واللبنة الأولى فى بناء صرح التقوى ، إنما هى التوبة : إنها أول قدم فى طريق الصلح مع الله .

ولقد دعانا الله سبحانه وتعالى إلى التوبة فى أساليب تأتى تارة رقيقة ، كأرق ما يكون الأسلوب ، رحيمة تنبض بالرأفة :

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم »[1] .

ولقد عبر رسول الله ﷺ ، عن موقف الله تعالى بالنسبة للتائب بكلمة «الفرح» إن الله سبحانه وتعالى ، يفرح بتوبة عبده المؤمن .

وتارة يدعونا الله سبحانه وتعالى إلى التوبة فى أسلوب رهيب شديد الرهبة، وقد جمع بين الرحمة والرهبة فى الدعوة إلى التوبة ، قوله سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ(٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2] .

---

(١) وردت هذه العبارة فى حديث قدسى صحيح .

(٢) سورة الزمر آية : ٥٣ : ٦١ .

واختلفت الأساليب ، فى الدعوة إلى التوبة ، لتتناسب مع مختلف الطبائع والفطر .

والصالحون وإن كانوا يتوبون إلى الله تعالى دائما ، ويرجعون إليه فى اليسير من أمرهم ، والعظيم منه ، فإنهم يبدأون شهر رمضان بتجديد العهد مع الله بالتوبة الخالصة النصوح .

التوبة التى تكون فيصلا حاسما ، فى حياة الإنسان ، فيستأنف عهدا مع الله كله صدق ، ويبدأ حياة كلها تقوى .

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب ... ﴾ (١) .

إن الله سبحانه وتعالى يجعل له مخرجا من كل ضيق ، ومن كل أزمة ، يفرج همه ، ويكشف كربه ، ويزيل غمه .

إن كلمة « يجعل له مخرجا » مطلقة لا يقيدها قيد ، ولا تحدها حدود ، وشرطها الأساسى : التقوى .

التقوى بمعناها الصادق ، الصحيح ، المستقيم .

إن الله سبحانه وتعالى بالتقوى ، ييسر له من أمره ما تعسر ، وهو سبحانه بالتقوى يرزقه من حيث لا يحتسب .

يرزقه ماديا ، ويرزقه روحيا ، ويرزقه من حيث يدرى ، ومن حيث لا يدرى .

إن الصالحين فى ابتداء رمضان يجددون عهدهم مع الله ، ويلتزمون بتجديد هذا العهد الصادق ، التقوى .

وتتألق تقواهم - تأسيا برسول الله ، ﷺ فى أمرين :

الأمر الأول :

الإكثار من قراءة القرآن .

الأمر الثانى :

الإكثار من الصدقة .

---

(١) الطلاق : ٢ ، ٣ .

القــرآن

وما من شك فى أن ميزة رمضان الضخمة ، أنه أنزل فيه القرآن .

والقرآن هو دستور المسلمين ، إن قراءته ، والتفكير فيه عبادة ، واتباعه واجب ، وكلما اقترب الإنسان من تحقيق الأخلاق التى رسمها ، كان أقرب من الله ورسوله ، وأحب إلى الله ورسوله .

يقول الله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ .

فميزة شهر رمضان الضخمة ، أنه أنزل فيه القرآن ، ولقد كان رسول اللهﷺ معنيا دائما بالقرآن ، ولكنه كان يعنى عناية خاصة به فى هذا الشهر المبارك ، وكان يلقاه جبريل فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن .

ودراسة القرآن وتلاوته من أسمى القربات ، ومن أنفس العبادات ، يقول ﷺ فيما رواه البخارى :

« خيركم من تعلم القرآن ، وعلمه » .

وروى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » .

وثواب قراءة القرآن جزيل ، فالحرف منه بحسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، يقول ﷺ فيما رواه الترمذى :

« من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول: الم حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » . وقد وردت الآثار فى الحث على سور وآيات مخصصة ، فالفاتحة أعظم سورة فى القرآن ، وقل هو الله أحد تعدل نصفه ، والمعوذتان لم ير مثلهما قط ، ومن القرآن سورة ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى : تبارك الذى بيده الملك .

وقد روى البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال :

من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه ، ويعقب الإمام النووى على ذلك بقوله : كفتاه المكروه تلك الليلة ، وقيل : كفتاه من قيام الليل .

أما أعظم آية فى كتاب الله فإنها آية الكرسى ، وروى الإمام البخارى رضى الله عنه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبى ، ﷺ ، سمع نقيضا : (أى صوتا) من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ، ولم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض ولم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم: (أى الملك) وقال : مخاطبا رسول الله ﷺ أبشر بنورين أوتيتهما ، لم يؤتهما نبى قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته.

من كل ذلك نتبين فضل تلاوة القرآن ، وعلى الخصوص فى شهر نزوله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

الصــدقة

أما الأمر الثانى الذى كان يتألق فيه الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه ، فى شهر رمضان فهو الجود ، لقد بنيت طبيعته ﷺ ، على الكرم ، ولكنه فى شهر رمضان كان فى الجود كالريح المرسلة : روى البخارى ومسلم ، رضى الله عنهما ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما قال :

كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان : حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل فى كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ - حين يلقاه جبريل - أجود بالخير من الريح المرسلة .

وفى هذا الحديث الشريف ربط بين رمضان والقرآن ، وكثرة الصدقة .

والواقع أن كثرة الصدقة فى رمضان هى الدليل الواضح الصحيح على أن الصوم وقراءة القرآن قد أثمر الثمرة المرجوة .

أما هذا الذى يصوم رمضان ، ويتلو كتاب الله ، وهو رحمة ونور . فلا يشرق قلبه بنور الرحمة ، ولا تتألق نفسه بضياء الكرم . ولم يوق شح نفسه فإن ذلك إذا دل على شىء فإنما يدل على أن وسائل النور هذه لم تتغلغل فى نفسه . فتصل إلى أعماقها مختلطة بلحمه ودمه ، فتقوده إلى الجود والإحسان .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (١) .

---

(١) التوبة : ١١١ .

وشهر رمضان من المواسم التى يتضوع فيها الإيمان . ويشرق فى النفس . فتتذكر عهدها مع الله : عهد الإيمان . فتجود بالنفس فى سبيله . إذا لزم الأمر . والجود بالنفس ، أسمى غايات الجود ، وتجود بالمال فى سبيله مستبشرة بالوفاء بالعهد فى صورته الهينة السمحة : إن الصدقة برهان . على حد إخبار رسول الله ﷺ .

أما الشح المطاع ، فإنه من الثلاث المهلكات ، يقول الله تعالى :

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [1] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[2].

مع أن الرجل الذى يتصدق بصدقة ، فلم تعلم شماله ما أعطت يمينه : داخل فى نطاق السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله .

كان صلوات الله وسلامه عليه يكثر من تلاوة القرآن وكان جوادا ، حتى إذا ما أتت العشر الأواخر من رمضان : أحيا الليل كله .

وإذا كان يجتهد فى رمضان فى العبادات مالا يجتهد فى غيره ، فإنه فى العشر الأواخر منه ، كان يجتهد مالا يجتهد فى غيرها .

أما بعد .. فيقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

قال الله عز وجل « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب . فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إنى صائم ، إنى صائم ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره . وإذا لقى ربه فرح بصومه » .

---

(١) الحشر : ٩ . (٢) آل عمران : ٨٠ .

أحكـــام

واجبات ، ومنهيات ، وسنن ، ومباحات

شروط الصيام الصحيح :

شروط الصيام الصحيح : الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمدا ، مع ذكر الصوم فيفسد بالأكل أو الشرب عمدا ، أما إذا أكل أو شرب ناسيا ، فلا يفسد ذلك صومه .

وكذلك الإمساك من الناحية الجنسية .

هذه هي شروط الصيام الصحيح من الناحية المادية ، وهي على كل حال تسقط الفرض .

بيد أن هذه الشروط مع إسقاطها الفرض ، لا تكفي مطلقا في نظر الصالحين ، وللصالحين شروط أخرى منها :

١ - غض البصر عما حرم الله تعالى ، يقول الله تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ... ﴾ (١) .

ويقول رسول الله ﷺ :

« النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله ، فمن تركها خوفا من الله آتاه عز وجل إيمانا يجد حلاوته في قلبه » .

٢ - حفظ اللسان من الغيبة والنميمة والكذب ، وقد نهى القرآن عن كل ذلك.

ويقول رسول الله ﷺ ، فيما رواه الشيخان :

« إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ، ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه ، فليقل إني صائم » .

٣ - كف السمع عن المحرم حتى لا يدخل فيمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ (٢) .

---

(١) النور : ٣٠ ، ٣١ .   (٢) المائدة : ٤٢ .

وبالجملة كف الجوارح كلها عما حرم الله تعالى .

وما من شك فى أن كف الجوارح عما حرم الله تعالى درجة أرقى من درجة مجرد الامتناع عن الأكل والشرب والناحية الجنسية .

أما الدرجة العليا فى الصوم ، فإنها صوم القلب عما سوى الله تعالى .

يقول أبو سعيد الخراز :

كل ما فاتك من الله سوى الله يسير ، وكل حظ لك سوى الله قليل .

رمضان وقول الزور :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه ، وشرابه » [1] .

الزور : هو الباطل ، هو اللهو ، هو العبث ، هو الإثم بجميع ألوانه .

إنه الإثم قولا يتمثل فى الغيبة والنميمة والكذب ، وغير ذلك من آثام اللسان الذى قالت العرب فيه :

« مقتل الرجل بين فكيه » .

وهو الإثم فعلا، ويتمثل فى كل ما يأتيه الإنسان من أفعال على خلاف السنن الشرعى ، مما نهى الله سبحانه ورسوله ﷺ عنه :

وإن من الأوصاف الجميلة التى مدح الله سبحانه وتعالى بها عباد الرحمن الصادقين ، أنهم لا يشهدون الزور ، وإذا كانوا لا يشهدونه ، ولا يشاهدونه ، فإنهم من باب أولى لا يقولونه ، ولا يفعلونه ، ولا يأتونه بوجه من الوجوه .

والحديث الشريف يقول صراحة لهؤلاء ، الذين ينغمسون فى الزور قولا ، وينغمسون فيه فعلا على خلاف ما أحب الله لعباده ، وما رضيه للمؤمنين ..

يقول تعالى لهم :

إن الله لا حاجة له فى أن يدعوا طعامهم وشرابهم ، مع إتيانهم ما نهى عنه،

---

(١) رواه البخارى وأبو داود ومسلم .

أى أنه لا فائدة لهم من ثواب من قبله ، أو من رضى منه ، أو من حب لهم منه ، فإنهم أخلوا بقواعد الثواب ، ومبادئ الرضا وأسس المحبة.

وما من شك فى أن الحديث ، مع هذا دعوة قوية فى توجيه المؤمنين إلى الرجوع إلى الله ، مؤتمرين بأمره ، منتهين عما نهى الله عنه ، تعرضا للرضا الإلهى، ورجاء فى قبول الصوم وكسب الثواب .

صوم يوم الشك :

عن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال :

« من صام اليوم الذى يشك فيه ، فقد عصى أبا القاسم » .

ذكره البخارى تعليقا ووصله الخمسة ، وصححه ابن خزيمة ، وابن حبان، أ هـ.

تعجيل الفطر :

عن سهل بن سعد رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » (١) .

السحور :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تسحروا فإن فى السحور بركة » (٢) .

إن تأخير السحور مستحب : ذكر ذلك رسول الله ﷺ ، بيد أنه ينبغى أن يكون السحور قبل الفجر بوقت كاف .

فإذا استيقظ للسحور متأخرا وأدركه أذان الفجر ، والطعام فى فمه ، فإن الأحوط بالنسبة له ، أن يمسك عن الطعام إلى نهاية النهار ، ثم يقضى اليوم بعد رمضان ، وذلك أن المؤذنين عادة يتثبتون من حلول الوقت ، فيؤخرون الأذان ولو نصف دقيقة .

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

ومن أفضل العادات فى رمضان ، أن يجعل الإنسان مدفع الإمساك حدا فاصلا بين إباحة الأكل والإمساك عنه .

وهو عادة ينطلق قبل الفجر بثلث ساعة .

من أكل ناسيا :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه » [1] .

وللحاكم :

« من أفطر فى رمضان ناسيا ، فلا قضاء عليه ولا كفارة » وهو صحيح .

القىء :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « من ذرعه[2] القىء فلا قضاء عليه ، ومن استقاء فعليه القضاء » .

إذا أصبح جنبا :

عن مالك عن سمى ، مولى أبى بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، أنه سمع أبا بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام يقول :

كنت أنا وأبى عند مروان بن الحكم ، وهو أمير المدينة ، فذكر له أن أبا هريرة يقول :

من أصبح جنبا أفطر ذلك اليوم ، فقال مروان :

أقسمت عليك يا عبدالرحمن لتذهبن إلى أم المؤمنين : عائشة وأم سلمة ، فلتسألنهما عن ذلك !

فذهب عبدالرحمن ، وذهبت معه ، حتى دخلنا على عائشة فسلم عليها ، ثم قال :

---

(١) متفق عليه .

(٢) ذرعه : أى غلبه .

يا أم المؤمنين : إنا كنا عند مروان بن الحكم ، فذكر له أن أبا هريرة يقول : من أصبح جنبا أفطر ذلك اليوم ، قالت عائشة :

ليس كما قال أبو هريرة يا عبدالرحمن .

أترغب عما كان رسول الله ﷺ يصنع ؟

فقال عبدالرحمن : لا والله .

قالت عائشة :

فأشهد على رسول الله ﷺ ، أنه كان يصبح جنبا من جماع غير احتلام ، ثم يصوم ذلك اليوم .

قال : ثم خرجنا حتى دخلنا على أم سلمة ، فسألها عن ذلك ، فقالت : مثل ما قالت عائشة .

قال : فخرجنا حتى جئنا مروان بن الحكم ، فذكر له عبدالرحمن ما قالتا ، فقال مروان :

أقسمت عليك يا أبا محمد لتركبن دابتى ، فإنها بالباب ، فلتذهبن إلى أبى هريرة فإنه بأرضه بالعقيق ، فلتخبرنه بذلك .

فركب عبد الرحمن ، وركبت معه ، حتى أتينا أبا هريرة ، فتحدث معه عبدالرحمن ساعة ، ثم ذكر له ذلك ، فقال له أبو هريرة :

« لا علم لى بذاك ، إنما أخبرنيه مخبر » .

الاتصال الجنسى فى رمضان :

إذا كان الاتصال الجنسى ليلا ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول :﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ .

أما الاتصال الجنسى فى نهار رمضان ، فإنه محرم تحريما باتا .

ومن طريف ما يروى فى هذا ، ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال :

جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : هلكت يا رسول الله :

قال : وما أهلكك ؟

قال : وقعت على امرأتى فى رمضان . فقال :

هل تجد ما تعتق رقبة ؟ قال : لا ..

قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : لا ..

قال : فهل تجد ما تطعم به ستين مسكينا ؟

قال : لا ، ثم جلس .

فأتى النبى ﷺ بعرق فيه تمر ، فقال : تصدق بهذا .

فقال : على أفقر منا ؟! فما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا .

فضحك النبى ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال :

« اذهب فأطعمه أهلك » (١) .

وكفارة الاتصال الجنسى فى نهار رمضان : عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ستين مسكينا .

الحكم فى القبلة فى رمضان :

عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رجلا قبل امرأته وهو صائم ، فوجد من ذلك وجدا شديدا ، فأرسل امرأته تسأل له عن ذلك ، فدخلت على أم سلمة ، زوج النبى ﷺ ، فذكرت ذلك لها ، فأخبرتها أم سلمة أن رسول الله ﷺ : يقبل وهو صائم .

فرجعت فأخبرت زوجها بذلك ، فزاده ذلك شرا وقال :

لسنا مثل رسول الله ﷺ ، يحل لرسول الله ﷺ ما شاء ، ثم رجعت امرأته إلى أم سلمة فوجدت عندها رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ :

ما بال هذه المرأة ؟

فأخبرته أم سلمة ، فقال رسول الله ﷺ :

ألا أخبرتيها أنى أفعل ذلك ؟

---

(١) رواه السبعة واللفظ لمسلم ، ويبدو أن الرسول ﷺ اعتبر أهل الرجل أهلا للصدقة ، فكان ذلك كفارة .

فقالت : لقد أخبرتها ، فذهبت إلى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شرا وقال : لسنا مثل رسول الله ﷺ ، الله يحل لرسوله ﷺ ما شاء ، فغضب رسول الله ﷺ وقال :

« والله إنى لأتقاكم لله ، وأعلمكم لحدوده » .

التشديد فى القبلة للصائم :

عن مالك أنه بلغه أن عائشة زوج النبى ﷺ ، كانت إذا ذكرت ، أن رسول الله ﷺ ، يقبل وهو صائم ، تقول :

وأيكم أملك لنفسه من رسول الله ﷺ ؟

قال يحيى : قال مالك ، قال هشام بن عروة ، قال عروة بن الزبير : « لم أر القبلة للصائم تدعو إلى خير » .

والرأى الذى نراه هو ما رواه الإمام مالك عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، أن عبدالله بن عباس سئل عن القبلة للصائم فأرخص فيها للشيخ ، وكرهها للشاب .

الصيام والسفر :

عن مالك : عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، أنه كان يسافر فى رمضان ، ونسافر معه ، فيصوم عروة ونفطر نحن ، فلا يأمرنا بالصيام .

وعن حمزة بن عمرو الأسلمى ، رضى الله عنه ، قال : يا رسول الله ، إنى أجد فىَّ قوة على الصيام فى السفر ، فهل على جناح ؟

فقال رسول الله ﷺ « هى رخصة من الله ، فمن أخذ بها فحسن ومن أحب الصوم فلا جناح عليه » (1) .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال :

« رخص للشيخ الكبير أن يفطر عن كل يوم مسكينا ، ولا قضاء عليه » (2) .

---

(1) رواه مسلم وأصله فى المتفق عليه ، من حديث عائشة أن حمزة بن عمرو سأل .

(2) رواه الدار قطنى والحاكم وصححاه .

وعن مالك ، عن هشام بن عروة عن أبيه ، أن حمزة بن عمرو الأسلمى ، قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله !

إنى رجل أصوم ، أفأصوم فى السفر ؟

فقال له رسول الله ﷺ : « إن شئت فصم ، وإن شئت فافطر » .

وعن مالك عن حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، أنه قال :

سافرنا مع رسول الله ﷺ فى رمضان ، فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم .

من قدم من سفر أو أراده فى رمضان :

عن مالك ، أنه بلغه أن عمر بن الخطاب كان إذا كان فى سفر فى رمضان فعلم أنه داخل المدينة من أول يومه دخل وهو صائم .

قال يحيى ، قال مالك : من كان فى سفر فعلم أنه داخل على أهله من أول يومه ، وطلع له الفجر ، قبل أن يدخل ، دخل وهو صائم .

قال مالك : وإذا أراد أن يخرج فى رمضان فطلع له الفجر ، وهو بأرضه ، قبل أن يخرج فإنه يصوم ذلك اليوم .

قال مالك فى الرجل يقدم من سفر ، وهو مفطر ، وامرأته مفطرة ، حين طهرت من حيضها فى رمضان : أن لزوجها أن يصيبها إن شاء .

الوصال فى الصيام :

روى الإمام البخارى عن أنس ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، قال :

« لا تواصلوا » .

قالوا : إنك تواصل ، قال :

« لست كأحد منكم ، إنى أبيت أطعم وأسقى » .

وفى رواية لهذا الحديث :

« إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » .

ويرشدنا هذا الحديث الشريف إلى أن الوصال فى الصيام : منهى عنه .

ولكن بعض الصحابة حاول الوصال ، تأسيا برسول الله ﷺ وألح فى طلب الإذن من رسول الله بذلك ، فأراد صلوات الله وسلامه عليه أن يقسو عليهم ليزدجروا ، وكان ذلك فى رمضان فواصل بهم يوما ، ثم يوما ، ثم رأوا الهلال ، فقال صلوات الله وسلامه عليه « لو تأخر - أعنى الهلال - لزدتكم » أى لواصل بهم بعد ذلك يوما ثالثا .

قال أبو هريرة : وذلك كالتنكيل لهم ، لما أبوا أن ينتهوا عن الوصال .

الوصال إذن : منهى عنه نهى تحريم ، إذا أضر الإنسان ، ونهى كراهية إذا لم يضر ، لأنه وإن لم يضر فإنه يبعث فى الإنسان فتورا عن العمل .

على أن رسول الله ﷺ ، رخص فى الوصال إلى السحر .

فعنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال :

« لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر » . أى إلى ما قبل الفجر بوقت كاف لتناول الطعام والشراب .

يؤخذ من ذلك : أن الوصال ، خاص بالرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .

وأن الترخيص بالوصال : إنما هو إلى السحر فقط .

وأن بعض الصحابة . رضوان الله عليهم : كانوا يودون أن يواصلوا ولكنهم عدلوا عن ذلك اتباعا لأمره صلوات الله عليه وسلامه .

وأما الطريقة المثلى : فإنها تعجيل الفطر ، وتأخير السحور كما ورد عن رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه من قوله :

« لا تزال أمتى بخير ما عجلوا الفطور وأخروا السحور » .

والإنسان يمكنه - بالرياضة - أن يواصل ثلاثة أيام ، ولكن ذلك فى الإسلام حرام .

ستة أيام من شوال :

عن ثوبان رضى الله عنه مولى رسول الله ﷺ : عن رسول الله ﷺ قال :

« من صام ستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة » .

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (١) .

رواه ابن ماجة والنسائى ولفظه :

« جعل الله الحسنة بعشر أمثالها ، فشهر بعشرة أشهر ، وصيام ستة أيام بعد الفطر تمام السنة » .

وابن خزيمة فى صحيحه ولفظه - وهو رواية النسائى - قال :

صيام شهر رمضان بعشرة أشهر ، وصيام ستة أيام بشهرين ، فذلك صيام السنة . وابن حبان فى صحيحه ولفظه :

« من صام رمضان وستا من شوال فقد صام السنة » .

رواه أحمد والبزار والطبرانى من حديث جابر بن عبدالله .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أن النبى ﷺ قال :

« من مات وعليه صيام ، صام عنه وليه » (٢) .

وقال يحيى :

« سمعت مالكا يقول فيمن فرق قضاء رمضان : فليس عليه إعادة ، وذلك مجزئ عنه ، وأحب ذلك إلىَّ أن يتابعه » .

ما يتحلى به الصائم من سلوك :

يتخذ بعض الناس الصوم تعلة يتعللون بها ، فى أنواع من السلوك لا يحبها الله ورسوله :

منها ضيق الخلق الذى يتمثل فى الغضب ، فيتشاحن الموظف مع زملائه والعامل فى عمله ، ورب الأسرة فى أسرته ، وهو خلق يبغضه الله ورسوله .

وقد طلب رجل النصيحة مرة من رسول الله ﷺ فقال له :

« لا تغضب » .

وإن من آثار الصوم الصحيح الصبر ، بل إن الصوم نفسه نوع من الصبر ، بل هو نصف الصبر على حد تعبير رسول الله ﷺ .

---

(١) الأنعام : ١٦٠ .   (٢) متفق عليه .

فإذا لم يتحل الإنسان بالصبر ، فى رمضان ، فإن فى صيامه خللا :

والصائم الصادق فرح بصومه ، متفائل به راج به المغفرة .

فإذا تفاءل الصائم بصومه ، ورجا به المغفرة من الله ، تحلى بحسن الخلق ، وبمكارم الأخلاق ، وقد قال رسول الله ﷺ :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

بعض مالا يفطر الصائم

يقول النبى ﷺ :

« إذا توضأ فليستنشق بمنخره الماء » ولم يميز بين الصائم وغيره .

وقال الحسن :

« لا بأس بالسعوط للصائم إن لم يصل إلى حلقه ، ويكتحل » .

وقال عطاء :

« إن تمضمض ، ثم أفرغ ما فى فيه من الماء ، لا يضره إن لم يزدرد ريقه ، وماذا بقى فى فيه ، ولا يمضغ العلك ، فإذا ازدرد ريق العلك ، لا أقول إنه يفطر ، ولكن ينهى عنه ، فإذا استنثر ، فدخل الماء فى حلقه لا بأس إن لم يملك » .

وقال عطاء :

« إن استنثر ، فدخل الماء فى حلقه ، لا بأس إن لم يملك » .

وقال الحسن :

« إن دخل حلقه الذباب ، فلا شىء عليه » .

ويغتسل الصائم .

وبلَّ ابن عمر ، رضى الله عنهما ثوبا فألقاه عليه وهو صائم . ودخل الشعبى الحمام وهو صائم .

وقال ابن عباس : لا بأس أن يتطعم [1] القدر أو الشىء .

---

(١) يتذوقه من غير أن يبتلعه .

وقال الحسن :

لا بأس بالمضمضة ، والتبرد للصائم .

وقال ابن مسعود :

إذا كان صوم أحدكم ، فليصبح دهينا مترجلا .

وقال أنس :

إن لى أبزن (يشبه البانيو للاستحمام) أتقحم فيه وأنا صائم .

ويذكر عن النبى ، ﷺ ، أنه استاك وهو صائم .

وقال ابن عمر :

يستاك أول النهار وآخره ، ولا يبلع ريقه .

وقال عطاء :

إذا ازدرد ريقه ، لا أقول يفطر .

وقال ابن سيرين :

لا بأس بالسواك الرطب ، قيل : له طعم ؟

قال : والماء له طعم ، وأنت تتمضمض به ؟

ولم ير أنس ، والحسن ، وإبراهيم بالكحل للصائم بأسا .

شهر رمضان وليلة القدر

وفى هذا الشهر المبارك ، أنزل القرآن الكريم ، يقول سبحانه :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ .

ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾

كيف أنزل القرآن الكريم ؟

إن وثيقة فريدة فى العالم كله ، لا مثيل لها فى تراث الإنسانية تحدثنا عن هذه الكيفية .

ونعنى بذلك : الحديث الشريف الذى رواه الإمام البخارى ، وروته كتب السنة عن كيفية بدء الوحى :

يقول الإمام البخارى نضر الله وجهه :

حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت :

« أول ما بدئ به رسول الله ﷺ ، من الوحى ، الرؤيا الصالحة ، فى النوم ، فإنه لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق ، وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال :

اقرأ !!

قال : ما أنا بقارئ .

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

اقرأ !!

قلت : ما أنا بقارئ .

فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

اقرأ !!

فقلت : ما أنا بقارئ .

فأخذنى ، فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) ﴾

فرجع بها رسول الله ﷺ ، يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال :

زملونى ، زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى !

فقالت خديجة :

« كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضعيف ، وتعين على نوائب الحق » .

فانطلقت به خديجة ، حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ، ابن عم خديجة ، وكان امرءا تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ، ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا ، قد عمى ، فقالت له خديجة :

يا ابن عم اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة :

يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ ، خبر ما رأى .

فقال له ورقة :

هذا الناموس الذى نزّل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ :

أو مخرجىّ هم ؟

قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا .

إن هذا الحديث الشريف يوضح كيفية نزول الوحى .

ولقد سمي القرآن الليلة التى نزل فيها القرآن : ليلة القدر ، أى ليلة الشرف والرفعة ، ووصفها بأنها مباركة ، يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ [1] .

وما دام القرآن الكريم قد أنزل فى ليلة القدر ، وأنه سبحانه قد أنزله فى شهر رمضان ، فإنه يتعين أن تكون ليلة القدر فى شهر رمضان .

ويتساءل الناس : أى ليلة هى فى شهر رمضان ؟

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم ، فإننا نجد أنه لم يحددها ، ولم يحددها الرسول ﷺ تحديدا تاما ، وإنما حددها على التقريب ، فإنه صلوات الله عليه وسلامه ، يقول فيما رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما :

« تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر » أى فى العشر الأواخر من رمضان.

وتحروا أى اطلبوها بجد فى العبادة ، ثم يقرب الرسول ﷺ الأمر أكثر من ذلك فيقول فيما رواه الإمام البخارى :

« تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » .

ولقد رآها كثير من الصحابة فى السبع الأواخر من رمضان .

ويحددها أبى بن كعب ، وابن عباس رضى الله عنهما ، وكثير غيرهما ، بأنها ليلة السابع والعشرين .

عن زر بن حبيش قال : سألت أبى بن كعب فقلت :

إن أخاك ابن مسعود يقول :

«من يقم الحول يصب ليلة القدر» فقال رحمه الله «أراد أن لا يتكل الناس».

أما إنه قد علم أنها فى رمضان ، وأنها فى العشر الأواخر ، وأنها ليلة سبع وعشرين ، ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين . فقلت :

بأى شىء تقول ذلك ، يا أبا المنذر ؟

قال : « بالعلامة - أو بالآية - التى أخبرنا عنها رسول الله ﷺ أنها تطلع يومئذ لاشعاع لها » [2] .

---

(١) الدخان : ٣ - ٦ .

(٢) رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان ثم اعتكف العشر الأوسط فى قبة تركية ، ثم أطلع رأسه فقال :

إنى أعتكف العشر الأول ألتمس هذه الليلة ، ثم اعتكف العشر الأوسط ، ثم أتيت فقيل لى :

إنها فى العشر الأواخر ، فمن كان اعتكف معى فليعتكف العشر الأواخر ، فقد أريت هذه الليلة ، ثم أنسيتها ، وقد رأيتنى أسجد فى ماء وطين من صبيحتها، فالتمسوها فى العشر الأواخر ، والتمسوها فى كل وتر .

قال : فمطرت السماء تلك الليلة ، وكان المسجد على عريش ، فوكف المسجد، فبصرت عيناى رسول الله ﷺ ، وعلى جبهته أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين .

متفق عليه فى المعنى ، واللفظ لمسلم إلى قوله : « فقيل لى إنها فى العشر الأواخر » والباقى للبخارى .

على أن المحاولات فى سبيل تحديد ليلة القدر كثيرة وطريفة :

منها مثلا ما قال بعضهم : من أن عدد كلمات سورة القدر ثلاثون كلمة كعدد أيام رمضان ، وكلمة « هى » التى تشير إلى ليلة القدر فى قوله تعالى فى السورة نفسها « سلام هى » : هذه الكلمة تمام سبعة وعشرين . هذه محاولة .

ومحاولة أخرى هى :

أن حروف ليلة القدر تسعة حروف ، وقد ذكرت ليلة القدر فى السورة ثلاث مرات ، وثلاثة فى تسع ، بسبع وعشرين .

أما الشيخ أحمد زروق رضى الله تعالى عنه فإنه يقول فيها :

إنها لا تفارق ليلة جمعة من أوتار آخر الشهر ، وقد روى هذا أيضا عن ابن العربى .

هذه محاولات ، أما الثابت اليقين ، فهو : أن القرآن لم يعينها تعيينا واضحا، وأن الرسول ﷺ ، لم يحددها تحديدا تاما .

وقد قال أسلافنا رضى الله عنهم :

أخفى الرب أمورا فى أمور لحكم :

ليلة القدر فى الليالى لتحيى جميعها ،

وساعة الإجابة فى الجمعة ، ليدعوا فى جميعها ،

والصلاة الوسطى فى الصلوات ، ليحافظ على الكل ،

والاسم الأعظم فى أسمائه ليدعى بالجميع .

ورضاه فى طاعته ، ليحرص العبد على جميع الطاعات ،

وغضبه فى معاصيه ، لينزجر عن الكل ،

والولى فى المؤمنين ليحسن الظن بكل منهم ،

ومجىء الساعة فى الأوقات ، للخوف منها دائما ،

وأجل الإنسان عنه ، ليكون دائما على أهبة .

ويعقب الشيخ أحمد الصاوى على ذلك فى حاشيته ، على الجلالين فيقول :

فعلى هذا يحصل ثوابها لمن قامها ، ولو لم يعلمها ، نعم العالم بها أكمل ، هذا الأظهر .

أما فضلها فإنه هائل ضخم ، فهى فيها نزل القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان .

ومعنى نزول القرآن ، نزول رسالة الرحمة العامة ، الرحمة بكل العوالم ، فإن الله سبحانه وتعالى قد حدد سبب الرسالة الإسلامية ، وحدد أساسها ، وحدد غايتها ، وهدفها بأنه الرحمة يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [1].

ويقول سبحانه :

﴿ حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [2] .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .　　(٢) الدخان : ١ - ٦ .

ثم إنه تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم .

فعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

إذا كان ليلة القدر نزل جبريل (عليه السلام) فى كبكبة من الملائكة ، يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل ، فإذا كان يوم عيدهم ، يعنى يوم فطرهم - باهى بهم ملائكته ، فقال :

يا ملائكتى ! ما جزاء أجير وفَّى عمله ؟ قالوا :

ربنا ، جزاؤه أن يوفى أجره . قال :

ملائكتى ، عبيدى وإمائى قضوا فريضتى عليهم ، ثم خرجوا يعجون إلى بالدعاء ، وعزتى وجلالى ، وكرمى ، وعلوى ، وارتفاع مكانى لأجيبنهم ، فيقول :

ارجعوا فقد غفرت لكم ، وبدلت سيئاتكم حسنات . قال : فيرجعون مغفورا لهم [1] .

ثم هى سلام من أولها حتى مطلع الفجر : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

ومن أجل ذلك كانت خيرا من ألف شهر .

والألف شهر هى : ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، وذلك عادة عمر الإنسان ، فهى خير من عمر الإنسان ، من عمر كل إنسان : فى الماضى وفى المستقبل ، أى أنها خير من الدهر .

ومن فضل الله سبحانه وتعالى على المسلمين ، أن من قامها ، إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

وفى فضلها نروى الأحاديث التالية :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

دخل رمضان فقال رسول الله ﷺ :

« إن هذا الشهر قد حضركم ، وفيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرمها فقد حرم الخير كله ، ولا يحرم خيرها إلا محروم » [2] .

---

(١) رواه البيهقى فى « شعب الإيمان » .

(٢) رواه ابن ماجه . وإسناده حسن إن شاء الله تعالى .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه »[1] .

وتقدم فى رواية لمسلم قال :

« من يقم ليلة فيوافقها - وأراه قال : إيمانا واحتسابا - غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وروى أحمد عن طريق عبدالله بن محمد بن عقيل عن عمرو بن عبدالرحمن عن عبادة بن الصامت قال :

أخبرنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر قال :

« هى فى شهر رمضان فى العشر الأواخر ، ليلة إحدى وعشرين ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ، أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين ، أو آخر ليلة من رمضان ، من قامها إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »[2] .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى ﷺ قال :

« من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه »[3] .

يقول الإمام الصاوى فى حاشيته على الجلالين :

« وأحسن ما يدعى به فى تلك الليلة العفو والعافية كما ورد » .

وينبغى لمن شق عليه طول القيام ، أن يتخير ما ورد فى قراءته ، كثرة الثواب: كآية الكرسى :

فقد ورد أنها أفضل آية فى القرآن .

وكأواخر البقرة لما ورد : « من قام بهما فى ليلة كفتاه » .

وكسورة ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ لما ورد : أنها تعدل نصف القرآن .

---

(١) أخرجه فى الصحيحين .

(٢) أى من صدقت توبته فيها واستقام على الجادة ولم ينكث عهده مع الله سبحانه : العهد الذى التزمه فى توبته الصادقة النصوح بأن يستقيم ويحقق « قل آمنت بالله ثم استقم » غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه مختصرا .

وكسورة ﴿ الْكَافِرُون ﴾ لما ورد : أنها تعدل ربع القرآن .

والإخلاص تعدل ثلثه .

ويس ، لما ورد : أنها قلب القرآن ، وأنها لما قرئت له .

ويكثر من الاستغفار ، والتسبيح والتحميد ، والتهليل ، وأنواع الذكر : والصلاة على النبى ﷺ .

ويدعو بما أحب لنفسه ، ولأحبابه ، أحياء وأمواتا .

ويتصدق بما تيسر له .

ويحفظ جوارحه عن المعاصى .

ويكفى فى قيامها صلاة العشاء والصبح فى جماعة .

وورد : من صلى المغرب والعشاء . فى جماعة ، فقد أخذ بحظ وافر من ليلة القدر .

وورد من صلى العشاء فى جماعة ، فكأنما قام شطر الليل ، فإذا صلى الصبح فى جماعة ، فكأنما قام شطره الآخر .

وقد ورد : « من قال لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ثلاث مرات ، كان كمن أدرك ليلة القدر [1] ، فينبغى الإتيان بذلك كل ليلة » .

هل هى حقا ليلة تفتح فيها أبواب السماء لإجابة الدعاء ؟

نعم ، ولا ريب ، إنها ليلة تفتح فيها أبواب السماء لإجابة الدعاء للموعودين .

والموعودون هم الذين استجابوا لله سبحانه وتعالى ، فاستجاب الله لهم ، هم الذين استقاموا كما أمروا ، هم الذين أسلموا وجوههم إليه ، فتكفل بهم .

إن هؤلاء إذا سألوا الله أعطاهم ، وإذا استعاذوا به أعاذهم ، ورب أشعث اغبر لو أقسم على الله لأبره .

---

(١) إن هذا وما يشبهه مما ورد في قول لا إله إلا الله مثلا ، إنما يراد منه القول فى إخلاص ، بحيث يخرج صادقا من أعماق القلب ، وبحيث يكون فيه انتفاضة التوحيد الصادق الذى لا يدع فى القلب مجالا للشرك أو للرياء ، أو للانغماس فيما حرم الله ، وإذا ما خرجت هذه الكلمات على هذا الوضع ، فإنها تكون ليالى قدر بفضل الله تعالى .

الاعتكاف وليلة القدر

ومن وسائل التأهيل لليلة القدر : الاعتكاف .

وسنة الاعتكاف : أن يبدأ الذى عزم على الاعتكاف ، اعتكافه بعد صلاة الفجر مباشرة .

عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت :

« كان رسول الله ﷺ ، إذا دخل العشر (أى العشر الأخيرة من رمضان) شد مئزره ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله » [١] .

وفى رواية لمسلم :

« كان يجتهد فى العشر الأواخر مالا يجتهد فى غيره » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت :

« كان رسول الله ﷺ ، إذا أراد أن يعتكف . صلى الفجر ، ثم دخل فى معتكفه » [٢] .

وتوضح السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها سلوك المعتكف فتقول :

« السنة على المعتكف : أن لا يعود مريضا ، ولا يشهد جنازة ، ولا يمس المرأة ، ولا يباشرها ، ولا يخرج لحاجة إلا لما لابد منه . ولا اعتكاف إلا بصوم ، ولا اعتكاف إلا فى مسجد جامع » [٣] .

والمعتكف يستعد للاعتكاف بالفراش ، والغطاء ، وبما يلزمه . عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ « أنه كان إذا اعتكف طرح له فراشه ، أو يوضع له سريره وراء اسطوانة التوبة » [٤] .

وبعد :

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت صاحب هذا القبر يقول:

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه .

(٣) رواه أبو داود .

(٤) رواه ابن ماجه .

« من مشى فى حاجة أخيه ، وبلغ فيها (أى حتى قضى له أمره) كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين .

ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى ، جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق أبعد مما بين الخافقين » [1] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال فى المعتكف .

« هو يعكف الذنوب ، ويجرى له من الحسنات كعامل الحسنات كلها » [2].

وعن عائشة رضى الله عنها قالت :

« قلت : يا رسول الله ، أرأيت إن علمت أى ليلة ، ليلة القدر ، ما أقول فيها؟ قال : قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى » [3] .

ليلة القدر
إيجاز ، وتلخيص ، وتفصيل

يقول الله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ .

ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .

وليلة القدر إذن : هى فى شهر رمضان ، أخذا من هذه النصوص الكريمة .

ويخبر سبحانه ، عن هذه الليلة : أنها خير من ألف شهر ، إذ تنزل الملائكة والروح فيها ، بإذن ربهم من كل أمر .

وهى فضلا عن ذلك : سلام يستمر من غروب الشمس حتى مطلع الفجر .

---

(١) رواه الحاكم وصححه .

(٢) أى أن المعتكف قد اتخذ الأسباب بالاعتكاف ، لحفظ نفسه من الذنوب ، فيكتب الله تعالى له من الثواب ما يماثل ثواب فاعل الطاعات كلها ، وذلك أنه وقف نفسه فى بيت الله على طاعة الله تعالى .

(٣) رواه أحمد ، وابن ماجه ، والترمذى وصححه .

ومن أجل هذا الفضل العظيم ، كان رسول الله ﷺ ، يستعد لها بالعبادة ، ويهيئ الجو الروحى المناسب لنزول الملائكة والروح ، والمناسب للسلام القلبى ، الذى هو ثمرة التوبة ، والإنابة والتقوى ، والذى هو اطمئنان النفس إلى الله ، فيخاطبها سبحانه خطابا تفهمه :

يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك - فى هذه الدنيا وفى الآخرة - راضية عن الله ، مرضية منه ، فادخلى فى عبادى - عاجلا - وادخلى جنتى - آجلا .

وكانت التهيئة التى يقوم بها ، ﷺ ، استعدادا لشروق نور هذه الليلة الشريفة ، إنما هى الاعتكاف .

كان ﷺ يعتكف عادة فى العشر الأواخر من رمضان ، فيدخل المسجد قبل غروب شمس اليوم العشرين من الشهر المبارك : يدخل متفرغا للعبادة ، متجها إلى الله بكل كيانه .

وما من شك فى أن الاعتكاف فى المسجد ، يهيئ الجو لجمع الخواطر ، ويهيئ الصفاء القلبى ، فيتفرغ الإنسان للطاعة ، متشبها بالملائكة ، ويتعرض بذلك لليلة القدر .

وقد كان ﷺ يحث الصحابة على هذا الاعتكاف ، ويشجعهم عليه ، التماسا لمرضاة الله ، وتعرضا لإشراق ليلة القدر .

وهى ليلة يكون فيها انتشار الروحانية بقراءة القرآن والصلاة والذكر ، وتنزل فيها الملائكة طائفة بالذاكرين ، مستغفرة لهم ، ومصلية عليهم ، مبشرة لهم .

عن أنس رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا كان ليلة القدر ، نزل جبريل فى كبكبة من الملائكة ، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد ، يذكر الله تعالى » .

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا

وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (١) .

إن أنوار المؤمنين المتبتلين فى تلك الليلة ، تتلألأ متعاكسة فيما بينهم ، وتمتزج فتجذب بلألائها الأرواح الملائكية ، فتقترب من المتعبدين ، فتزيد فى الصفاء ، فيكون انشراح الصدر ، ووضع الأوزار التى تنقض الظهور ، ويكون غسل القلب بالماء والثلج والبرد ، وتتوافر بكل ذلك وسائل التعرض لنفحات الله .

« إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

وليلة القدر من نفحات الله التى يستجاب فيها الدعاء وتغفر الذنوب للتائبين المنيبين ، وهى فى أوتار العشر الأواخر من رمضان .

يقول ﷺ ، فيما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه :

« تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » .

وكان رسول الله ﷺ ، إذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا الليل كله ، وأيقظ أهله ، وجد وشد المئزر .

ولكن أى ليلة هى ؟

لقد أخفاها الله سبحانه لحكمة هى : إحياء عدد من الليالى فى طاعة الله ، التماسا لها ، أما هذا الذى وهبه الله التوفيق ، فأحياها ملتمسا مرضاة الله ، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه .

يقول ﷺ ، فيما رواه الإمام البخارى رضى الله تعالى عنه :

« من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا : غفر له ما تقدم من ذنبه » .

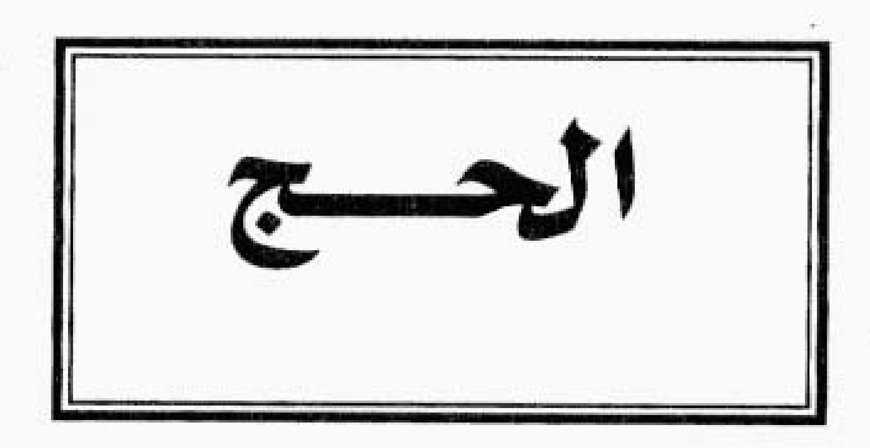
وبعد :

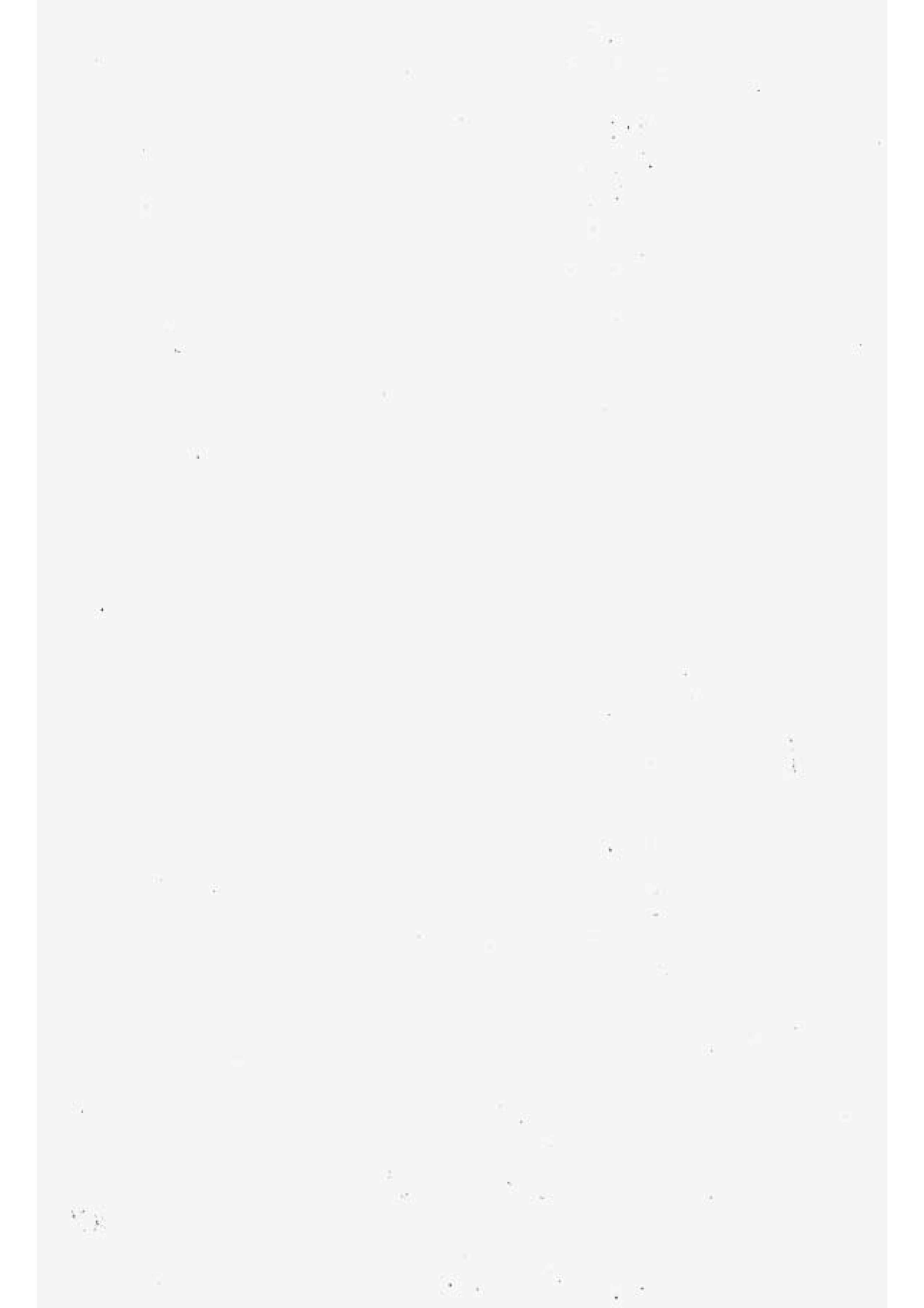
فقد روى الإمام الترمذى ، عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت :

« قلت : يا رسول الله ، أرأيت إن علمت أى ليلة ، ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال ﷺ : قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو ، فاعف عنى » .

---

(١) سورة فصلت : آية ٣١ : ٣٢ .


الحج



الحج والاستطاعة

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وأشهر الحج هذه إنما هى : شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، وهى أشهر الحج عزما وإرادة ، وهى أشهره تنفيذا وتحقيقا .

والحج : هو أحد أركان الإسلام الخمسة ، وهو تمامها ، وقد فرض على كل مسلم ومسلمة مرة فى العمر عند الاستطاعة .

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (٢) .

أما هذه الاستطاعة فإن أمرها ، فى الواقع الصحيح ، سهل ميسر فى زماننا الراهن ، فسبل المواصلات مريحة ، والأمن مستتب ، والنفقات ليست من الكثرة بحيث تعجز ، إنها عند العزم المصمم ، لا تلبث أن توجد فى يسر نسبى .

وإنه إذا لمن الخداع الزائف ، أن يتعلل الإنسان بالاستطاعة ، فإن هذه الاستطاعة تتبع حرارة الإيمان ارتفاعا أو انخفاضا ، والناس فى الأغلب الأعم مستطيعون قادرون ، ولكن الأمل فى امتداد العمر ، والانغماس فى غمرات المادة والاستغراق فى شئون الدنيا ، يجعل الإنسان - وهو مستطيع - يمهل ويهمل ، حتى تنتهى به الحياة . وفى مثل ذلك يقول سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وطاووس ، رضى الله عنهم :

« لو علمت رجلا غنيا وجب عليه الحج ، ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه » .

---

(١) البقرة : ١٩٧ .   (٢) آل عمران : ٩٧ .

العيد الكبير

فى يوم من الأيام استدعى ، سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ابنه ليسير معه قليلا ، وبينما هما سائران خاطبه فى صراحة قائلا :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (١) .

فى هذا الإقليم الذى كانت الوالدة الحنون تسعى فيه محزونة حيرى مشفقة، تبحث عن قطرات من الماء تحمى بها نفس الغلام - الذى كان طفلا إذ ذاك ، حتى لا يموت بين يديها ظمأ ...

فى هذا الإقليم الذى أنقذ الله الطفل وأمه فيه ، فـفجر الماء نبعا صافيا فشرب الطفل ، وشربت أمه وحمدت الله وشكرته ، فى هذا الإقليم حاولت الأم جاهدة أن تحمى ابنها ، وفى هذا الإقليم نفسه حاول الأب ذبحه استجابة للنداء فى الرؤيا .

سبحانك ربى !! أتنقذه صغيرا وتستبقيه قرة عين والديه ، حتى إذا تغلغلت محبته فى القلوب وغمرت كيان والديه ، تأمر بذبحه ؟! أشد ما يكون الوالدان حرصا عليه ومحبة له ؟!

وما ذنب هذا الغلام البرىء ؟!

وما ذنب أمه ؟!

وماذا جنى والده حتى يختطف منه وقد أتاه على كبر ، وبشر به من لدن الله ، بشر به مع وصفه بالحلم ، والحلم سيد الأخلاق ، فقال تعالى عنه :

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (٢) .

إن حكمة الله فوق كل حكمة ، وتقديره سبحانه ، فوق كل تقدير ، وما ذلك الأمر فى الرؤيا إلا سنة من سننه ، سبحانه ، فى التربية يخص بها الذين اصطفى من عباده : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ... ﴾ (٣) .

وهذا الاصطفاء يقتضى صفاء وتصفية وإسلاما كاملا لله سبحانه ، ولقد أسلم إبراهيم عليه السلام نفسه وقلبه ، وجميع كيانه ، لله سبحانه ، ونجح نجاحا

---

(١) الصافات : ١٠٢ .   (٢) الصافات : ١٠١ .   (٣) آل عمران : ٣٣ .

كاملا فيما امتحنه الله به : من ألا يشرك مع الله أحدا فى الحب ، حتى ولو كان ابنه ، حتى لو كان هذا الابن قد أتى على لهفة وشوق إليه .

ها هو ذا يفرد الله بالمحبة ، ويستعد للتضحية بابنه لا يتردد ، ولا يتباطأ ، وإذا كان قد قال لابنه : ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ [1] .

فما كان ذلك تخييرا للابن ، وإنما هو رغبة من الشيخ المؤمن فى أن يستجيب ابنه ، طوعا لا كرها ، فيكون الثواب والجزاء الحسن ، لقد استجاب الشيخ وأسلم وجهه لله ، فكان بذلك مسلما ، فما موقف الابن ؟

لقد حقق الابن أمل والده ، فأجاب فى غير تردد ولا تباطؤ :

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [2] .

لقد أسلم الابن ، أسلم وجهه لله ، طمعا فى رضائه ، وأحب رضاء الله ، فوق حبه لنفسه وللحياة الدنيا بأسرها.. فلما أسلما إسلاما خالصا صافيا مطلقا: جاء الفداء من الله سبحانه ، فناداه أن :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) ﴾ [3] .

هذا الإسلام منهما إنما هو لله سبحانه وتعالى وحده هذا هو الإسلام الذى استتبع الفداء ، هذا هو الإسلام الذى يستتبع حتما الفداء فى كل عصر ، وفى كل مصر ، هذا الإسلام الذى يستظل فيه الإنسان بصورة كلية تحت الراية الإلهية ، فيكون فى حماية الله، ورعايته وعنايته : هو الذى يسجل بحفل تذبح فيه الذبائح، يأكل منها البائس والفقير ، وتصنع منها موائد شهية تقدم للآكلين شكرا لله على هذه الهداية وهذا التوفيق الذى كانت نتيجته : « الإسلام » .

إن هذا الدين الذى كمل فى القلب فغمره بالنور ، وهذه النعمة التى أتمها الله ، وهذا الإسلام الذى رضيه سبحانه .. إن كل ذلك لابد له من عيد ، بل أعياد تعبر عن الشكر وعن الحمد ، وبمقدار قرب الإنسان من معنى الإسلام يكون عيده الأكبر .

ولكل إنسان عيده بمقدار إخلاصه لله تعالى ، وخشيته منه ، وخضوعه له ، وعبوديته الصافية أو المشوبة .

---

(١) الصافات : ١٠٢ .　　(٢) الصافات : ١٠٢ .　　(٣) الصافات : ١٠٥ .

ما هى الوسيلة الكبرى التى تنتهى بنا إلى العيد الأكبر ؟

إن من بين الوسائل الكثيرة التى بينها الله تعالى ، لتنتهى بالإنسان إلى الإسلام .. ثم إلى الصبر - إن أسلم حقا - وسيلة كبرى هى : « الحج » .

وما من شك فى أن العيد هو أولا وبالذات ، لحجاج بيت الله الكرام ، وهو على الخصوص لمن أسلم - فى الحج - إسلاما صحيحا منهم ، وبمقدار تصحيح الدين ، وتصحيح الإسلام : يكون العيد .

وإذا كانت الأمة الإسلامية كلها ، تحتفل فرحا بعيدها ، فإن ذلك : إنما هو احتفال بهذه النخبة النادرة القليلة ، التى كمل دينها ، وتمت نعمة الله عليها ، وغمرها نور الإسلام .

أما هذه الوسيلة الكبرى للإسلام الخالص ، وبالتالى للعيد أعنى الحج - فإنها تبدأ أول ما تبدأ بالتوبة النصوح الصادقة ، ودعاء الله أن يجعل حجه خالصا لوجهه الكريم ، ومنذ هذه اللحظة يقطع صلته بالماضى الآثم : ليبدأ مستقبلا صالحا كريما . وتبدأ شعائر الله فى الحج بالإحرام : فيغتسل الإنسان ، وينوى غسل الإحرام ، ويتم له بذلك الاغتسال الباطنى بالتوبة النصوح ، والاغتسال الظاهرى : أنه أصبح من المتطهرين ، وتثبيتا لذلك ، وعلامة على انقطاع صلته بالماضى ، وتجردا إلى الله : يفارق الثياب المخيطة ، ويلبس ثياب الإحرام ، بيضاء ناصعة ، ثم ينوى : « الإحرام بالحج » ومعنى ذلك أنه أصبح خالصا لله ، مستجيبا إلى ندائه الكريم بأن : لا يتجه إلى سواه ، فينطق فؤاده ، وتنطق جوارحه :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك » .

ها هو ذا الآن قد لبى ، أى : استجاب لله ، ونفى الشريك عنه ، سبحانه ، وقصر الحمد عليه واستقر فى كيانه : أن ما به من نعمة فمن الله ، وأن الملك كله لله ، والدنيا والآخرة ، الملك والملكوت له سبحانه ، لا شريك له .

هذه التلبية هى شعاره الدائم ، هى سنته المستقرة ، ينطق بها إذا صعد ، وينطق بها إذا هبط وينطق بها إذا ركب ، وينطق بها إذا نزل ، إنها ذكره فى كل لحظة ، فتصبح بذلك يقينا تاما .

حتى إذا ما انتهت به الأسفار إلى بيت الله الحرام ، ودخل المسجد قال هذه الكلمات التى تعبر عن التلبية بصورة أخرى وهى :

« بسم الله ، وبالله ، ومن الله ، وإلى الله ، وفى سبيل الله وعلى ملة رسول الله ﷺ » .

ويبدأ الطواف ببسم الله والله أكبر .

ها هو ذا يطوف بالبيت راجيا أن ينال نظرة من رب البيت، لعل الباب يفتح، لعل الأستار ترتفع ، لعل الأقنعة تتكشف فتزول ، لعل نسمات الرحمة تهب ، لعل رب البيت يأذن بالدخول ، لعل الرضاء الكريم يغمر الأجواء والآفاق ، لعل الله يتقبل :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) ﴾ (١) .

ويبدأ السعى بين الصفا والمروة ، يبدأ ببسم الله ، والله أكبر ، إنه يسعى امتثالا لأمر الله ، ويسعى وهو متذكر تلك السيدة الكريمة ، التى كانت تسعى فى طلب الماء رحمة بابنها : إنه يسعى طلبا للنبع الصافى الذى يتفجر من قلبه رحمة وإخلاصا ، إنه يسعى ليشرب من الكأس التى يشرب منها الأبرار ، إنه يسعى ليشرب من العين التى يشرب بها عباد الله ، إنه يسعى فيمتلئ قلبه بالرحمة، فيجد العين الصافية التى وجدها كل من حقق هدف الرسالة المحمدية .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ (٢) .

ويجدها كل من قبل هدية الله إلى العالم ، وهدية الله إلى العالم ، إنما هى سيدنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، ورحمته وبركاته ، فقد قال :

« إنما أنا رحمة مهداة »

إنه صلوات الله وسلامه عليه ، يمتزج بهذه الصفة الكريمة ، فيكون معها وحدة ، فهو رحمة مهداة . قبلها من قبلها ، ففاز فى الدنيا والآخرة .

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ (٣) .

والحج عرفة ، كما يقول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وفى عرفة تجتمع الأرواح وقد تزكت بالتوبة والإحرام والطواف والسعى : تتجه إلى الله فى ضراعة

---

(١) البقرة : ٢٠١ . (٢) الأنبياء : ١٠٧ . (٣) الكهف : ١٠ .

وتدعوه ، سبحانه ، فى خضوع وتقف شاخصة ببصرها إلى السماء فى خشوع، طالبة من الله الرحمة العامة الشاملة . والرحمة الخاصة المنجية .

﴿ إن ربى قريب مجيب ﴾ .. ﴿ إن ربى رحيم ودود ﴾ ..

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ [(١)] .

أما بعد : فإن أعمال الحج فى أشهر الحج : تنتهى بهذه الصورة الرائعة : صورة العزم المصمم على الابتعاد المطلق عن الإثم والمعصية . ممثلة هذه الصورة فى رجم إبليس : مصدر الشر والإثم .

إن الحج ينتهى بقتل إبليس بالرجم - أو بتعبير أدق - ينتهى بقتل الشر حتى لا يتسلل مرة أخرى إلى النفس .

وأما بعد : فيقول صلوات الله عليه وسلامه :

« من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » فإذا ما خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه : استحق أن يحتفل بالعيد . وأن يهنأ بالعيد ..

وها نحن أولاء ، قد عرفنا الطريق إلى العيد : فهيا بنا نسلكه أيها المسلمون:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [(٢)] .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [(٣)] .

- ٣ -

المبادئ الإنسانية فى الحج

« لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك » .

« بهذه الكلمات الإيمانية التى تشرق فى الكيان الإنسانى كله نورا فينفعل معها هداية : يبتدئ تسجيل الحج فى الصورة السافرة المعلنة . وهى كلمات تعبر أبلغ التعبير عن مبدأ دينى إنسانى عالمى هو الإخلاص .

(١) البقرة : ١٨٦ .　　(٢) آل عمران : ٨٥ .　　(٣) المائدة : ٣ .

فالإنسان بهذه الكلمات يسجل على نفسه الاتجاه الخالص لله وحده، ويسجل على نفسه العزم الوطيد على ألا يشرك به شيئا : إنه سبحانه مصدر النعمة .. ذلك أنه : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1] .

والملك كله بيده يؤتيه من يشاء ، وهو وحده المعطى ، وهو وحده المعز ، ولذلك فإن الحمد - كل الحمد - لله سبحانه ، وحده .

وهذا الإخلاص يبدأ فى أعمال الحج بالتوبة النصوح الخالصة. والتوبة ليست كلمة تقال ، أو ألفاظا تتردد ، وإنما لها شروط محددة : أولها أن يقلع عن المعصية، ويتخلى عنها .

والشرط الثانى : إنما هو الندم على فعلها .

أما ثالث الشروط : فإنه العزم المصمم على ألا يعود إلى المعصية أبدا ... فإذا فقد أحد هذه الشروط فإن التوبة لا تصح .

وهذا كله فيما إذا كانت المعصية ، لا تتعلق بحق آدمى ، أما إذا تعلقت بحق آدمى فلها شرط رابع وهو أن يبرئ ذمته من الحق الذى عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وإذا كانت التوبة هى الخطوة الأولى فى سبيل الإخلاص ، وهى عمل فى جوهره قلبى .. فإن الاغتسال والتطهر ، وارتداء الثياب البيض مظاهر تعلن الاستجابة إلى النداء الإلهى .

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[2] .

وتعلن الطاعة للأمر الربانى :

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴾[3] .

وعند الوصول إلى مكة المكرمة تبدأ الأعمال بالطواف حول البيت الحرام .

والإنسان يطوف بالبيت قاصدا رب البيت ، متجها إليه ، فاراً بدينه من جميع ألوان الشرك ، وجميع ألوان المعاصى ، ما ظهر منها ، وما بطن ، مقبلا على

---

(١) فاطر : ٢ . (٢) غافر : ١٤ . (٣) الزمر : ٢ .

الله بدينه ، لا يريد بجميع أعماله إلا الله سبحانه فلا يرجو غيره ، ولا يخاف سواه ولا تأخذه فى الله لومة لائم .

وكل ذلك إنما : هو توطين للإخلاص فى قرارة نفسه ، وتمكين له بين جوانحه ، ثم يذهب إلى السعى : وهنا نصل إلى المبدأ الثانى من المبادئ الدينية الإلهية العامة ، وهو مبدأ الرحمة . ذلك أن أصل هذا السعى ، إنما هو عمل السيدة الكريمة أم إسماعيل ، حينما اشتد العطش بابنها ، فقامت تسعى رحمة بابنها وحنانا عليه ، وشفقة به .

ويتمثل الساعى هذا الشعور طيلة سبعة أشواط ، فينغرس فى كيانه ، ويشيع فى أرجاء ذاته .

وهدف الإسلام من الحث على الرحمة فى أكثر من مناسبة ، وفى أكثر من عمل ومن قول إنما هو أن يصبح المسلم رحمة ينثرها أينما كان ، ينثرها مصبحا وينثرها ممسيا ، وينثرها بعمله ، وينثرها بقوله .. فيتحقق فى المحيط الإنسانى قول الله تعالى ، عن الرسالة ، والرسول ، صلوات الله وسلامه عليه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [١] .

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾[٢]

وتوجب هذه الآية الكريمة ، أن يتخلى من فرض على نفسه الحج عن الفحش كله : قولا كان أو عملا ، بل إن مجرد الجدال فى الحج ممنوع .

إنها إذن فترة من الصيام عن كل شر ، ومن الإمساك عن كل معصية ، بل إن الله سبحانه وتعالى ، يحاسب فى الحرم على مجرد إرادة الشر ، وإن لم يقدم الإنسان على الفعل ، يقول سبحانه :

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) ﴾ [٣] .

فالله ، سبحانه ، لم يقل : ومن يلحد فيه بظلم ، وإنما قال : ومن يرد فيه .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .   (٢) البقرة : ١٩٧ .   (٣) الحج : ٢٥ .

فرتب سبحانه العذاب الأليم على الإرادة ، مجرد الإرادة ، وإذا زال الشر من النفس استعدت وتهيأت للنور والخير .

ولذلك فإن الله سبحانه : بعد أن نهى عن الرفث ، والفسوق والجدال فى الحج ، قال حاثا على عمل الخير : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ (١) .

ويحب الله أن نفعل الخير ، بل وأن نتزود منه ، أى أن نتخذ من الخير زادا نعبر به إلى مرضاته وإلى لقائه ، وإلى الإقبال عليه : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾(٢)

وخير زاد فى سبيل مرضاته ، إنما هو التقوى :

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ (٣) .

وبعد : فإن أعمال الحج تختتم برجم مصدر من أهم مصادر الشر والإثم والمعصية ، وهو « إبليس » رجمه مرارا وتكرارا .

وذلك تسجيل مؤكد ، وإعلان مشهود ، وإشهاد سافر ، على أن الحاج : قد عزم عزما ، لا تزعزعه أعاصير الشهوة أو مغريات الفتنة ، على أن يصبح خيرا كله لا مجال لنزعات الشيطان للتسلل إلى نفسه ، فقد أصبح بتطهير نفسه ، وبرجم الشيطان ، من عباد الله المخلصين الذين لا سلطان للشيطان عليهم .

وأما بعد : فإن رسول الله ﷺ ، يقول ، فيما رواه الشيخان ، البخارى ومسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه » .

-٤-
بعد الحج

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، فيما رواه البخارى ومسلم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه » .

---

(١) البقرة : ١٩٧ .   (٢) الشعراء : ٨٨ .   (٣) البقرة : ١٩٧ .

وعنه صلوات الله وسلامه عليه قال :

« الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

والحج المبرور هو الذى لا يرتكب صاحبه فيه معصية ، وهذا الحديث الأخير مما اتفق عليه البخارى ومسلم أيضا .

والواقع أنه من فضل الله على الأمة الإسلامية : أن جعل لها منافذ لتطهير النفس وتزكيتها حتى تنال رضاء الله ، وتنعم بثوابه .

ومن النوافذ الكبرى : الحج المبرور .

وليس من العسير على الإنسان ، أن يخلص وجهه لله ، فى أيام معدودات يصبح الإنسان بعدها من البراءة والطهر : كيوم ولدته أمه ، خالصا من الدنس مبرأ من الآثام .

هذه التزكية ، وهذا الطهر : يجب أن يستمر فيما يستقبله الحاج من عمره ، وإذا كان الله قد هيأ للمسلم هذه الفرصة الكبرى ، ليصل بسببها إلى المستوى الملائكى فى الطهر ، فإن على المسلم ، أن يحافظ عليها محافظة تامة .

إن الإنسان فى مفتتح أعمال الحج يتوب إلى الله توبة نصوحا . ويعاهده عهدا، يعزم ألا ينقضه ، على أن يسير فى حياته متبعا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وهو بهذه التوبة ، يتطهر باطنيا ، ويشفع التطهير الباطنى بتطهير ظاهرى ، وهو : غسل الإحرام ، ويعلن عن إخلاصه فى الطهر الباطن ، والطهر الظاهر ، بالصورة الجميلة : صورة ملابس الإحرام نقية طاهرة بيضاء ، صافية ، خلت خلوا تاما من الدنس والخبائث .

ويثبت كل ذلك بالشعار القوى الدائم فى الحج :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك » .

وهو إذن منذ البدء ، يتطهر باطنا ، ويتطهر ظاهرا ، ويتطهر بالقول ، ويتطهر بالسلوك .

هذا الصفاء ، هذا الطهر : يجب أن يستمرا بعد الحج ، ويجب أن يدوما مدى الحياة ، والعهد الذى عاهد الله عليه من الإخلاص والتقوى : يجب أن يلتزمه طيلة حياته ، يقول الله تعالى ، موجها المسلمين إلى التزام عهودهم :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ (١) .

أما هذه التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، فإنها كل امرأة خرقاء ناقصة العقل تغزل طول يومها ، مثابرة دائبة ، وتحكم غزلها ثم تنقضه آخر النهار ومثل كل من يعاهد الله ، ثم لا يوفى بعهده ، مثل هؤلاء النسوة الحمقاوات اللواتى ينقضن آخر اليوم ، ما غزلن فى أوله .

على أن الإخلال بالعهد مع الناس : يعتبر عند الله من علامات النفاق .. فما بالك بالإخلال بالعهد الذي بين الإنسان وربه ؟ لقد بين صلوات الله وسلامه عليه علامات المنافق :

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فيما رواه البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال :

« أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن : كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه فيما رواه الإمامان البخارى ومسلم ، أن رسول الله ﷺ قال :

« آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد خلف ، وإذا اؤتمن خان » .

على أن هذا الذى يعاهد الله ، ثم ينقض عهده ، إنما يقول مالا يفعل وقد هدد الله سبحانه من يفعل ذلك وتوعده ومقته :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) النحل : ٩١ ، ٩٢ .   (٢) الصف : ٢ .

أما إذا تزكى المسلم بالحج ، ثم حافظ على هذه التزكية بعد الحج : فإنه ينال السعادة الحقة : إنه ينال سعادة الدنيا ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى ، كفل لمن انضوى تحت لوائه ، واهتدى بهديه واتقاه ، طيب الحياة يقول سبحانه :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

وقد تكفل سبحانه وتعالى بإخراج المتقى من كل ما يصادفه من المآزق ، وبأن يرزقه من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (2) .

على أنه بمجرد الابتداء فى السير إلى الله تبدأ رعاية الله غامرة عامة شاملة.

وهذا الابتداء فى التوجه إلى الله إنما يكون فى صورة الاستغفار ، والله سبحانه يقول :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (3) .

ويقول تعالى ، فيما قصه حكاية عن سيدنا هود عليه السلام :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ (4) .

هذه الرعاية من الله إنما هى فى الدنيا ، بيد أن رعايته سبحانه لا تقتصر عليها وإنما تشملها ، وتتعداها إلى رعاية أجل وأعظم ، وهى رعايته سبحانه فى الآخرة ، لمن حافظ على عهده ، وأوفى بعقده ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ (5) .

وبعد : فإن أكرم الناس على الله ، هو أتقاهم له سبحانه ، والأتقى هو الذى

---

(1) النحل : ٩٧ . (2) الطلاق : ٣ . (3) نوح : ١٠ - ١٢ .
(4) هود : ٥٢ . (5) الأنفال : ٥٩ .

تزكى ثم حافظ على التزكية . ولن يضيع الله أكرم الناس عليه ، وكيف ؟ وهو سبحانه أكرم الأكرمين .

الحج والإسلام :

عن ابن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ فى سؤال جبرائيل عليه السلام إياه عن الإسلام ؟ فقال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتحج وتعتمر ، وتغتسل من الجنابة ، وأن تتم الوضوء وتصوم رمضان .

قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال : نعم . قال ، صدقت » [1] .

أشهر الحج :

يقول الإمام البخارى :

باب قول الله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِ ﴾ [2] .

وقا ابن عمرو رضى الله عنهما : أشهر الحج : شوال : وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من السنة أن لا يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج .

فريضة الحج مرة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس ، إن الله قد فرض عليكم الحج ، فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ، فقال رسول الله ﷺ لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم ، ثم قال : ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » [3] .

---

(١) رواه ابن خزيمة فى صحيحه ، وهو فى الصحيحين ، وغيرهما بغير هذا السياق .

(٢) البقرة : ١٨٩ . (٣) رواه مسلم .

الحج يغفر الذنوب :

عن ابن شماسة رضى الله عنه قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت ، فبكى طويلا وقال : فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، ابسط يمينك لأبايعك ، فبسط يده ، فقبضت يدى ، فقال: مالك يا عمرو ؟ قلت : أردت أن أشترط. قال : تشترط ماذا ؟ قلت : أن يغفر لى.

قال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ؟

وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ [(١)] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

رواه البخارى ومسلم والنسائى ، وابن ماجه والترمذى إلا أنه قال : « غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وقال الزهرى : الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة .

وقال الحافظ : الرفث يطلق ويراد به الجماع ، ويطلق ويراد به الفحش ، ويطلق ويراد به خطاب الرجل المرأة ، فيما يتعلق بالجماع ، وقد نقل فى معنى الحديث كل واحد من هذه الثلاثة عن جماعة من العلماء .

وعن عبد الله بن جراد الصحابى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« حجوا فإن الحج يغسل الذنوب ، كما يغسل الماء الدرن » [(٢)] .

وعن عبد الله- يعنى ابن مسعود- رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

« تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة » [(٣)] .

رواه ابن ماجه والبيهقى من حديث عمر ، وليس عندهما : والذهب إلى آخره .

---

(١) رواه ابن خزيمة فى صحيحه ، هكذا مختصرا ، ورواه مسلم وغيره أطول منه .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٣) رواه الترمذى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما . وقال الترمذى حديث حسن صحيح .

وعن البيهقى :

« فإن متابعة بينهما يزيدان فى الأجل ، وينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير الخبث » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»

رواه مالك والبخارى ومسلم، والترمذى والنسائى ، وابن ماجه ، والأصبهانى، وزاد :

وما سبح الحاج من تسبيحة ، ولا هلل من تهليلة ، ولا كبر من تكبيرة إلا بشر بها تبشيرة .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » قيل : وما بره ؟ قال :

« إطعام الطعام ، وطيب الكلام » (١) .

وفى رواية لأحمد والبيهقى : « إطعام الطعام ، وإفشاء السلام » .

أفضل الأعمال :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سئل رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال :

« إيمان بالله ورسوله » قيل : ثم ماذا ؟ قال :

« الجهاد فى سبيل الله » قيل : ثم ماذا ؟ قال :

« حج مبرور » (٢) .

ورواه ابن حبان فى صحيحه ، ولفظه قال رسول الله ﷺ :

أفضل الأعمال عند الله تعالى : إيمان لا شك فيه ، وغزو لا غلول فيه ، وحج مبرور » .

---

(١) رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن ، وابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٢) رواه مسلم .

« المبرور » قيل هو الذى لا يقع فيه معصية .

وفد الله :

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال :

« الغازى فى سبيل الله ، والحاج والمعتمر ، وفد الله : دعاهم فأجابوه ، وسألوه فأعطاهم »[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« الحجاج والعمار وفد الله ، إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروا غفر لهم »[2].

العـــمرة:

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : أتى النبى ﷺ ، أعرابى فقال : يا رسول الله ، أخبرنى عن العمرة أواجبة هى ؟ فقال : « لا وأن تعتمر خير لك »[3] .

عمرة فى رمضان :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أراد النبى ﷺ الحج ، فقالت امرأة لزوجها :

أحججنى مع رسول الله ﷺ ، فقال : ما عندى ما أحجك عليه ، فقالت :

أحججنى على جملك فلان ؟ قال :

ذاك حبيس فى سبيل الله عز وجل . فأتى رسول الله ﷺ فقال :

إن امرأتى تقرأ عليك السلام والرحمة ، وإنها سألتنى الحج معك ، فقلت : ما عندى ما أحجك عليه ، قالت : أحججنى على جملك فلان ، فقلت : ذاك حبيس فى سبيل الله عز وجل فقال :

« أما إنك لو أحججتها عليه كان فى سبيل الله » قال :

---

(١) رواه ابن ماجه واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه ، كلاهما من رواية عمر بن عيينة ، عن عطاء بن السائب .

(٢) رواه النسائى ، وابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما ، ولفظهما قال : « وفد الله ثلاثة : الحاج ، والمعتمر ، والغازى » ، وقدم ابن خزيمة « الغازى » .

(٣) الحديث رواه أحمد والترمذى .

وإنها أمرتنى أن أسألك ما يعدل حجة معك ؟ قال رسول الله ﷺ :

« أقرئها السلام ورحمة الله وبركاته ، وأخبرها أنها تعدل حجة معى ، عمرة فى رمضان » (١) .

ورواه البخارى وابن ماجه ، والنسائى مختصرا :

عمرة فى رمضان تعدل حجة .

ومسلم ولفظه قال : قال رسول الله ﷺ ، لامرأة من الأنصار يقال لها أم سنان :

ما منعك أن تحجى معنا ؟ قالت :

لم يكن لنا إلا ناضحان ، فحج أبو ولدها وابنها على ناضح ، وترك لنا ناضحا ننضح عليه . قال :

فإذا جاء رمضان فاعتمري، فإن عمرة فى رمضان تعدل حجة. وفى رواية له

« تعدل حجة أو حجة معى » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : جاءت أم سليم إلى رسول الله ، ﷺ ، فقالت :

حج أبو طلحة وابنه وتركانى ، فقال :

« يا أم سليم ، عمرة فى رمضان تعدل حجة معى » (٢) .

أنواع الإهلال :

حدثنى يحيى بسنده عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت :

خرجنا مع رسول الله ﷺ ، عام حجة الوداع فمنا من أهل بعمرة ، ومنا من أهل بالحج ، وأهل رسول الله ﷺ بالحج .

« فأما من أهل بعمرة ، فحل ، وأما من أهل بحج ، أو جمع الحج والعمرة ، فلم يحلوا حتى كان يوم النحر » (٣) .

---

(١) رواه أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه . كلاهما بالقصة ، واللفظ لأبى داود وأجره عندهما سواء .

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم .

وحدثنى يحيى بسنده عن عائشة أم المؤمنين ، أن رسول الله ﷺ ، أفرد الحج [١] .

التجرد والاغتسال :

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، تجرد لإهلاله واغتسل[٢].

وعن عائشة رضى الله عنها قالت :

كنت أطيب رسول الله ﷺ ، لإحرامه قبل أن يحرم ، ولحله قبل أن يطوف بالبيت [٣] .

رفع الصوت بالإهلال :

عن خلاد بن السائب عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« أتانى جبريل فأمرنى أن آمر أصحابى أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال » [٤].

من الدعاء فى الحج :

عن خزيمة بن ثابت رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ ، كان إذا فرغ من تلبيته فى حج أو عمرة سأل الله رضوانه والجنة ، واستعاذ برحمته من النار » .

باب مالا يلبس المحرم من الثياب :

يقول الإمام البخارى :

حدثنا عبد الله بن يوسف بسنده ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلا قال :

يا رسول الله ، ما يلبس المحرم من الثياب ؟ قال رسول الله ﷺ :

« لا يلبس القمص ، ولا العمائم ، ولا السراويلات ، ولا البرانس ، ولا الخفاف إلا أحد لا يجد نعليه فيلبس خفين ، وليقطعهما أسفل من الكعبين ، ولا تلبسوا من الثياب شيئا مسه الزعفران أو ورس » [٥] .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) رواه الترمذى وحسنة .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه الخمسة وصححه الترمذى وابن حبان .

(٥) رواه الإمام البخارى .

غسل الطيب ثلاث مرات من الثياب :

روى البخارى بسنده : أن صفوان بن يعلى أخبره ، أن يعلى قال لعمر رضى الله عنه :

أرنى النبى ﷺ ، حين يوحى إليه ، قال :

فبينما النبى ﷺ بالجعرانة ومعه نفر من أصحابه جاءه رجل فقال :

يا رسول الله ، كيف ترى فى رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب ؟

فسكت النبى ﷺ ساعة ، فجاءه الوحى ، فأشار عمر رضى الله عنه إلى يعلى ، فجاءه يعلى ، وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أظل به ، فأدخل رأسه فإذا رسول الله ﷺ محمر الوجه ، وهو يغط ، ثم سرى عنه فقال :

« أين الذى سأل عن العمرة ؟ » فأتى برجل ، فقال :

« اغسل الطيب الذى بك ثلاث مرات ، وانزع عنك الجبة ، واصنع فى عمرتك ، كما تصنع فى حجتك » .

قلت لعطاء : أراد الإنقاء حين أمره أن يغسل ثلاث مرات ؟

قال : نعم (١) .

الطواف :

روى الإمام البخارى بسنده :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ « كان إذا طاف فى الحج أو العمرة ، أول ما يقدم سعى ثلاثة أطواف ، ومشى أربعة ، ثم سجد سجدتين ، ثم يطوف بين الصفا والمروة » (٢) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

« لم أر رسول الله ﷺ ، يستلم من البيت غير الركنين اليمانيين » (٣) .

---

(١) رواه الإمام البخارى .

(٢) رواه الإمام البخارى .

(٣) رواه الإمام مسلم .

فضل يوم عرفة :

عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال :

« ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار ، من يوم عرفة »[1].

الحج عرفة :

عن عروة بن مضرس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« من شهد صلاتنا هذه - يعنى بالمزدلفة - فوقف معنا حتى ندفع وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلا أو نهارا فقد تم حجه وقضى تفثه »[2] .

فى رمى الجمار :

عن قدامة بن عبد الله - وهو ابن عمار رضى الله عنه - قال :

« رأيت رسول الله ﷺ ، يرمى الجمرة يوم النحر على ناقة صهباء ، لا ضرب ولا طرد ، ولا إليك إليك »[3] .

وعن ابن عباس وأسامة بن زيد رضى الله عنهما ، قالا :

« لم يزل النبى ﷺ يلبى حتى رمى جمرة العقبة »[4] .

وعن جابر رضى الله عنه قال :

« رمى رسول الله ﷺ الجمرة يوم النحر ضحى ، وأما بعد ذلك فإذا زالت الشمس »[5] .

عرفة كلها موقف ، ومنى كلها منحر :

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« نحرت هاهنا ومنى كلها منحر ، فانحروا فى رحالكم ، ووقفت هاهنا وعرفة كلها موقف ، ووقفت ها هنا وجمع كلها موقف »[6] .

---

(١) رواه الإمام مسلم .

(٢) رواه الخمسة ، وصححه الترمذى وابن خزيمة .

(٣) رواه ابن خزيمة فى صحيحه وغيره .

(٤) رواه البخارى .

(٥) رواه الإمام مسلم .

(٦) رواه الإمام مسلم .

ولا حــرج :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، وقف فى حجة الوداع ، فجعلوا يسألونه ، فقال رجل :

لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح ؟ قال :

اذبح ولا حرج ، وجاء آخر فقال :

لم أشعر ، فنحرت قبل أن أرمى ، قال :

أرم ولا حرج ، فما سئل يومئذ عن شىء قدم ولا أخر إلا قال : « افعل ولا حرج » [1] .

المحلقون والمقصرون :

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال :

« اللهم ارحم المحلقين ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله . قال فى الثالثة : والمقصرين » [2] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال :

« ليس على النساء حلق ، وإنما يقصرن » [3] .

وعن المسور بن مخرمة رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ ، نحر قبل أن يحلق ، وأمر أصحابه بذلك » [4] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« إذا رميتم وحلقتم فقد حل لكم الطيب وكل شىء إلا النساء » [5] .

فى طواف الإفاضة :

عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن النبى ﷺ ، لم يرمل فى السبع الذى أفاض فيه » [6] .

---

(١) متفق عليه . (٢) متفق عليه .

(٣) رواه أبو داود بإسناد حسن .

(٤) رواه الإمام البخارى .

(٥) رواه أبو داود .

(٦) رواه الخمسة إلا الترمذى وصححه الحاكم .

وتزودوا :

قال الإمام البخارى رضى الله عنه :

« باب قول الله تعالى ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ » :

روى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال :

« كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى :

﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ [1] .

مما لا يفعله المحرم :

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينكح المحرم ، ولا ينكح ، ولا يخطب » [2] .

الإنابة فى الحج :

عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة قالت : يا رسول الله ، إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخًا كبيرا ، لا يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم » [3] .

وعن لقيط بن عامر رضى الله عنه ، أنه أتى النبى ﷺ فقال :

إن أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ، ولا الظعن ، قال : « حج عن أبيك واعتمر » [4] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت :

إن أمى نذرت أن تحج ولم تحج ، حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟

---

(١) رواه ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة مرسلا .

(٢) رواه الإمام مسلم .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه أبو داود والترمذى قال : حديث حسن صحيح .

قال :

« نعم حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين اكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله حق بالوفاء » [1] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ ، سمع رجلا يقول :

لبيك من شبرمة ، قال :

من شبرمة ؟ قال :

أخ لى ، أو قريب لى ، فقال :

حججت عن نفسك ؟ قال : لا .

قال :

« حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة » [2] .

إذا بلغ الصبى :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« أيما صبى حج ثم بلغ الحنث فعليه أن يحج حجة أخرى ، وأيما عبد حج ثم أعتق فعليه أن يحج حجة أخرى » [3] .

لا يخلون رجل بامرأة :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ ، يخطب يقول:

« لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعهما ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم » فقام رجل فقال :

يا رسول الله ، إن امرأتى خرجت حاجة ، وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا ، فقال :

« انطلق فحج مع امرأتك » [4] .

---

(١) رواه الإمام البخارى .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان ، والراجح عند أحمد وقفه .

(٣) رواه ابن أبى شيبة والبيهقى ورجاله ثقات .

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم .

دواب يقتلن فى الحل والحرم :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« خمس من الدواب كلهن فواسق يقتلن فى الحل والحرم: العقرب، والحدأة، والغراب ، والفأرة ، والكلب العقور » (١) .

يبعث ملبياً :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته فأقصعته ، فقال رسول الله ﷺ :

« اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه بثوبيه ، ولا تخمروا رأسه ، ولا تحنطوه ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا » (٢) .

وفى رواية للبخارى ومسلم وابن خزيمة ، أن رجلا كان مع النبى ﷺ ، فوقصته (٣) ناقته وهو محرم فمات ، فقال رسول الله ﷺ :

« اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه فى ثوبيه ، ولا تمسوه بطيب ولا تخمروا رأسه ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا » .

وفى رواية لمسلم : « فأمرهم رسول الله ﷺ أن يغسلوه بماء وسدر ، وأن يكشفوا وجهه ، حسبته قال : ورأسه ، فإنه يبعث وهو يهل » .

حرمة مكة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

لما فتح الله تعالى على رسول الله ﷺ ، مكة قام رسول الله ﷺ ، فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن الله قد حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنها لم تحل لأحد كان قبلى ، وإنما أحلت لى ساعة من نهار ، وإنها لن تحل لأحد بعدى ،

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخارى ومسلم وابن خزيمة .

(٣) وقصته ناقته معناه : رمته ناقته فكسرت عنقه ، وكذلك فأقصعته .

فلا ينفر صيدها ، ولا يختلى شوكها ، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد ، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، فقال العباس : إلا الإذخر يا رسول الله ، فإنا نجعله فى قبورنا ، وبيوتنا ، فقال : إلا الإذخر » (١) .

حرمة المدينة :

عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها ، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، وإنى دعوت فى صاعها ومدها ، بمثل ما دعا إبراهيم لأهل مكة » (٢) .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « المدينة حرام ما بين عير إلى ثور » (٣) .

الصلاة فى الحرمين :

عن ابن الزبير رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام(٤) وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة »(٥).

حجة النبى ﷺ (٦)

روى الإمام مسلم بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه ، أنه سأل جابر بن عبد الله قائلا :

أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ ، فقال بيده فعقد تسعا فقال :

إن رسول الله ﷺ ، مكث تسع سنين لم يحج ، ثم أذن فى الناس فى العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ، ويعمل مثل عمله .

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه أحمد وصححه ابن حبان .

(٦) صحيح مسلم .

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة ، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبى بكر فأرسلت إلى رسول الله ﷺ ، كيف أصنع ؟ قال :

اغتسلى ، واستثفرى [1] بثوب وأحرمى .

فصلى رسول الله ﷺ ، فى المسجد ثم ركب القصواء حتى استوت به ناقته على البيداء ، نظرت إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل به من شىء عملنا به. فأهل بالتوحيد[2].

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك » .

وأهل الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يرد رسول الله ﷺ ، عليهم شيئا منه، ولزم رسول الله ﷺ ، تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه ، استلم الركن فرمل [3] ثلاثا، ومشى أربعا ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .

فجعل المقام بينه وبين البيت ، فكان أبى يقول :

« ولا أعلمه ذكره إلا عن النبى ﷺ » كان يقرأ فى الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ، وقل يا أيها الكافرون ﴾ [4] . ثم رجع إلى الركن فاستلمه .

ثم خرج من الباب إلى الصفا ، فلما دنا من الصفا قرأ :

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ .

أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقى عليه ، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال :

---

(١) الاستثفار : أن تشد فى وسطها شيئا وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدم وتشد طرفها من قدامها وورائها .

(٢) أهل بالتوحيد : يعنى قوله : لبيك لا شريك لك .

(٣) الرمل : أسرع من المشى مع تقارب الخطى .

(٤) المعنى أنه قرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة : قل يا أيها الكافرون ، وفى الثانية بعد الفاتحة ، قل هو الله أحد .

«لا إله إلا الله وحـــده لا شـــريك له ، لـه الملك ، وله الحــمــد ، وهـو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده».

ثم دعــا بين ذلك، قـال مـثل هذا ثلاث مــرات ، ثم نـزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى ، حتى إذا صعدنا مشى ، حتى أتى المروة . ففعل على المروة كما فعل على الصفا ، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال :

لو انى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسبق الهدى وجعلتها عمرة فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة .

فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله ، ألعامنا هذا أم لأبد ؟

فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة فى الأخرى، وقال : دخلت العمرة فى الحج - مرتين - لا بل لأبد أبد .

وقدم على من اليمن ببدن النبى ﷺ فوجد فاطمة (رضى الله عنها) ممن أحل ولبست ثيابا صبيغا واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها فقالت : إن أبى أمرنى بهذا ، فقـال : فكان علىٌ يقـول بالعـراق : فـذهبت إلى رسـول الله ﷺ مـحـرشـا [1] على فاطمة للذى صنعت مستفتيا لرسول الله ﷺ ، فيما ذكرت عنه ، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها فقال :

صدقت صدقت ، ماذا قلت حين فرضت الحج ؟

قال : قلت :

اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك .

قال : فإن معى الهدى فلا تحل ، قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به على من اليمن والذى أتى به النبى ﷺ مائة .

قال : فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبى ﷺ ، ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية[2] توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج ، وركب رسول الله ﷺ، فصلى بها الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والفجر ، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة ، فسار رسول الله ﷺ ، ولا

---

(١) التحريش الإغراء ، والمراد هنا أن يذكر لها ما يقتضى عتابها .

(٢) يوم التروية : هو الثامن من ذى الحجة .

تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية .

فأجاز [1] رسول الله ﷺ ، حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء ، فرحلت له ، فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال :

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة ، وأن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل - وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ربا عباس ابن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن [2] فرشكم أحدا تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ، إن اعتصمتم به ، كتاب الله ، وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت : فقال : بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها [3] إلى الناس : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، ثلاث مرات .

ثم أذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئا .

ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل [4] المشاة بين يديه . واستقبل القبلة فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه،

---

(١) اجاز : معناه جاوز المزدلفة .

(٢) المراد بذلك أن لا يستخلين بالرجال .

(٣) ينكتها : يقلبها ويرددها إلى الناس مشيرا لهم .

(٤) حبل المشاة بالحاء مجتمعهم ، وحبل الرمل ما طال منه وضخم ، وبالجيم طريقهم ، وحيث تسلك الرجال .

ورفع رسول الله ﷺ، وقد شنق [١] للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك[٢] رحله ، ويقول بيده اليمنى :

أيها الناس السكينة السكينة .

كلما أتى [٣] حبلا من الحبال أرخى لها قليلا حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين . ولم يسبح بينهما شيئا ، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا فدفع قبل أن تطلع الشمس وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما، فلما رفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن [٤] يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر ، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلا ، ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها ، حصى الخذف رمى من بطن الوادى .

ثم انصرف من المنحر فنحر ثلاثا وستين بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ما غبر وأشركه فى هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت فى قدر وطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم فقال : انزعوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلوا فشرب منه .

---

(١) شنق : ضيق وضم .

(٢) مورك رحله : هو الموضع الذى يثنى الراكب رجله عليه قدام واسطة الرحل .

(٣) حبلا : هو التل اللطيف من الرمل الضخم .

(٤) ظعن : جمع ظعينة ، وهى البعير الذى عليه امرأة تسمى به المرأة مجازا لملامستها البعير .

الحج رحلة الصفاء والمروى

إن كلمة الإسلام التى هى عنوان على دين الله الخالد تشعر - فى وضوح - بالهدف الذى أراده الله سبحانه ، من رسالته التى لم يختلف جوهرها على مر العصور .

هذا الهدف هو إسلام الوجه لله ، والتسليم له ، والدخول فى رحابه ، وذلك - بالنسبة للإنسان - كمال ، وبالنسبة للمجتمع أمن وطمأنينة .

وقد اختلفت وسائل الإسلام فى قيادة الإنسان إلى إسلام الوجه لله ، وتعددت نظرا لاختلاف طبائع الإنسان وتعددها ، وما كانت العبادات فى الإسلام على اختلاف ألوانها إلا وسائل لتزكية النفس ، وكمال الإنسان حتى يستأهل لمرضاة الله تعالى ، وحتى يفلح بالقرب من الله والانتساب إلى عباد الرحمن .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [1] .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [2] .

وإن من هذه العبادات الحج ، إنه وسيلة من أسمى وسائل قيادة الإنسان إلى الله تعالى ، وهو مجموعة رائعة من الرموز الروحية ، التى تنتهى - إذا أقيمت على وضعها الصحيح - بالمسلم إلى الدخول فى المحيط الإلهى .

وتبدأ أعمال الحج - بتوفيق الله تعالى - بالاغتسال الظاهر ، بالنظافة الجسمية ، فإذا ما تم ذلك يتوب المسلم توبة خالصة نصوحا ، نادما على ما فعل من آثام ، مقلعا عن الذنب ، عازما عزما لا يلين على ألأ يعود إلى ذنب أبدا ، متجها بتوبته إلى الله تعالى طالبا منه العون والتوفيق راجيا مرضاته .

وتأكيدا لهذا التطهر الباطن . والتطهر الظاهر يلبس ملابس الإحرام، بيضاء ناصعة ، يلبسها على طبيعتها ، التى نسجت عليها دون أن تدخلها صنعة ، فتغير من معالمها ، أو تبدل من أوضاعها ، إنه يلبسها على الفطرة وعلى النقاء، تاركا ما عساه أن يكون قد تلوث بالأخطاء من ملابسه .

---

(١) الشمس : ٩ .　　　(٢) البقرة : ١٢٩ .

ثم يسجل العزم المصمم على استمرار الطهر ، فيما يستقبل من أيام ، بهذه الكلمات التى تعبر عن الاستجابة الكاملة لله سبحانه وتعالى :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

إن هذه الاستجابة إلى الله سبحانه وتعالى عهد منه إلى الله بالتزام إسلام الوجه له سبحانه ، يكرر هذا العهد فى كل آونة بقوله إذا صعد ، وبقوله إذا نزل ، وبقوله مصبحا ، وبقوله ممسيا ، فيرتسم فى فؤاده بأحرف من نور الإيمان ، ومن سناء الهداية .

حتى إذا ما وصل إلى البيت الحرام ، فإن من السنة أن يبتدئ الدخول فى المسجد الحرام بالتعبير عن الاستجابة إلى الله بصورة أخرى هى :

« بسم الله وبالله ، ومن الله وإلى الله ، وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله ﷺ » .

ويبدأ الطواف ...

يبدؤه ببسم الله والله أكبر .

وما كان البيت - هيكلا وبناء - فى يوم من الأيام المقصد الأخير ، للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وإنما هدفهم الأول والأخير ، رب البيت .

ويستلم الحجر الأسود .

والحجر الأسود إنما هو الحجر الذى بقى يتسم بطابع سيدنا إبراهيم ، عليه السلام ، الذى لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، والذى تضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، أن يبعث فى الجزيرة العربية ، رسولا عربيا هاديا ومزكيا فقال :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وكأن المسلم بذا الاستلام لهذا الأثر الإبراهيمى ، يعاهد الله على أن لا ينحرف عن الملة الحنيفية ، وأن يكون على مر السنين تابعا لهذا الرسول العربى الذى بعثه الله رحمة للعالمين .

إنه يطوف معلقا قلبه وبصره وسمعه وكيانه كله برب البيت .

إنه يطوف لعل الستائر ترتفع ، لعل الحجب تنكشف ، لعل الأقنعة تزول ، لعل الباب يفتح ، لعل رب البيت يتفضل بالقبول ، لعل الله يرضى .

انه يطوف خاشعا خاضعا يدعو ويتضرع ، لعله يشعر بنسمات الرضى ، بنفحات الأنس ، بكأس المحبة ، بسلسبيل المعرفة :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

ويذهب إلى السعى :

يبتدئ من الصفا ، أى من الصفاء ذاهبا إلى المروى ، أى إلى الرى وإلى المرءوة يتزود منهما ، ويكر راجعا إلى الصفاء من جديد ، ليزداد صفاء ، وليزداد نورا ... وهكذا .. من الصفاء إلى الرى ، ومن الرى إلى الصفاء ...

وفيوضات الله لا تنتهى ، ومنحه سبحانه وتعالى لا تحدها حدود .

إنه يسعى وهو متذكر لتلك السيدة الكريمة التى كانت تسعى وكلها رحمة بابنها .

إنه يسعى رحمة بنفسه ، ويسعى ليكون رحمة فى أسرته وفى عشيرته وفى وطنه وفى العالم بأسره .

إنه يسعى ليصير رحمة .

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

ويذهب إلى عرفات ، للتعرف على الله سبحانه وتعالى ، وليقف متلقيا منه سبحانه رحمته .

والحج عرفة ، كما يقول الرسول ﷺ ، إنه تعرف على الله سبحانه وتعالى ، مصدر الخير كل الخير ، ومصدر النعمة كل النعمة ، ومصدر الكمال على المعنى الصحيح للكمال الإنسانى .

إن الذى يتعرف على الله يصبح من الكمال الإنسانى فى الذروة ، وما كانت طريقة التعرف على الله فى يوم من الأيام قراءة آراء الفلاسفة وهى متضاربة متعارضة .

وإنما سبيل التعرف على الله توبة نصوح ، واستجابة مخلصة ، وطواف بالبيت ، وسياحة من الصفاء إلى الرى ، ومن رى يزداد إلى صفاء يصفو .

فإذا ما تزكت النفس بكل ذلك ، يفيض الله سبحانه وتعالى عليها نورا يعرفها به ، فتتعرف عليه ، وتلتزمه وتقف عنده وتنتهى إليه .

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) ﴾ [١] .

وليس هناك منتهى دون الله سبحانه وتعالى ، وكل منتهى دونه هو منتهى مزيف فاسد ، أما المنتهى الحق فهو الله سبحانه وتعالى :

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) ﴾ [٢] .

وتنتهى أعمال الحج بالذهاب إلى منى والمكث فيها لرجم مصدر الشر إبليس مرة ومرة ومرة ...

وما كان رجم إبليس إلا رجما لعامل قوى من عوامل الفساد والمعصية والإثم.

إن المسلم يرجمه مؤكدا بذلك الرجم أنه تخلص إلى الأبد من الشر ، من المعاصى، من كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى ، وذلك هو العيد حقيقة ، والبهجة والسعادة .

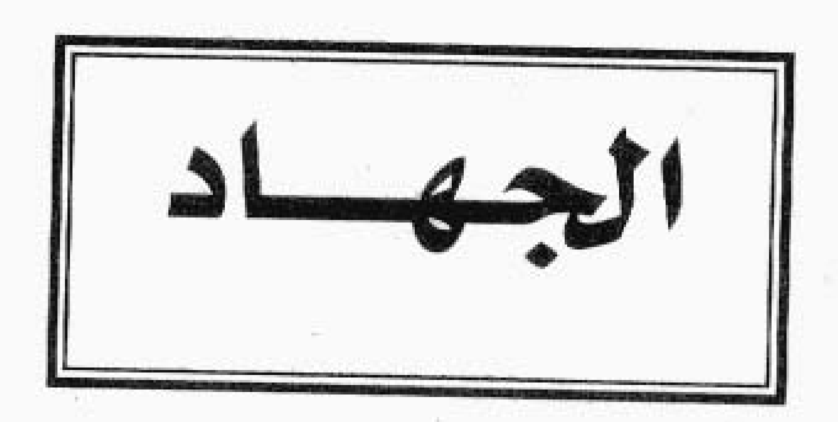
والعيد الإسلامى عقب الحج إنما هو احتفال عام فى الأمة الإسلامية بمن انتهى بهم الحج إلى إسلام الوجه لله .

إن العيد الأكبر إنما هو حفل تكريم لمن استقام أمرهم على الجادة ، لمن دخلوا بالحج فى عباد الرحمن، لمن أسلموا وجههم لله سبحانه وتعالى، لمن أسلموا .

* * *

---

(١) النجم : ٤٢ .   (٢) الممتحنة : ٤ .


الجهاد

الجهاد الإسلامى
جهاد من أجل المبادئ الكريمة

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ [1] .

ويقول عز وجل :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) ﴾ [2] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) ﴾ [3] .

من هذه النصوص القرآنية الكريمة : نتبين أن الجهاد فى الإسلام ، إنما هو جهاد من أجل فكرة ، هذه الفكرة هى ما عبر عنه سبحانه : بسبيل الله ، وسبيل الله هو الخير والعدل والحق ، فالقتال فى الإسلام ، إنما كان من أجل :

١ - أن يكون الدين كله لله .

٢ - وألا تكون فتنة .

٣ - ومن أجل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين لا حول لهم ولا قوة،

---

(١) النساء : ٧٥ - ٧٦ .

(٢) البقرة : ١٩٣ .

(٣) البقرة : ٢٤٤ .

الذين ينالون من عسف الطغاة وبغيهم الشر الكثير فيضرعون إلى الله سبحانه أن ينقذهم من الظلم .

٤ - ثم من أجل هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم ومن أموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

وقد يتساءل إنسان :

ما هو سبيل الله ؟

وكيف يكون الدين كله لله ؟

ومن أجل بيان سبيل الله سبحانه نذكر بعض المبادئ الإسلامية متضمنة فى قصص واقعية تصور طريق الرشاد ، وطريق البغى ، تصور أولياء الله ، وأولياء الشيطان :

(أ) من أولى هذه القصص قصة هؤلاء الذين هاجروا بدينهم إلى الحبشة .

لم تكن هجرتهم هجرة سياحة يستمتعون فيها بشهواتهم ملبين داعى الأهواء، ولم تكن هجرتهم هجرة لدنيا يصيبونها ، أو امرأة ينكحونها ، وإنما هاجروا بدينهم ولدينهم ، لقد هاجروا حتى لا يفتنهم الطغاة الظالمون ، لقد هاجروا لله ، وللخلق الكريم ، وللمثل العليا .

إنهم خرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

فلما سافروا بدينهم إلى الحبشة ، أرسل القرشيون وفدا إلى النجاشى فيه عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص ، لرد المهاجرين إلى مكة ليعذبوهم من جديد ، ولما التقى الوفد بالنجاشى قال له عمرو بن العاص :

إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم : من آبائهم وأعمامهم ، وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلم بهم عينا (أى أبصر بهم) وأعلم بما عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشى كلامهم رأى أن من الحكمة : ألا يسلم إليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم ، وحجتهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم :

ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟

فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال له :

أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف !

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان ..

أمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ... وعدد عليه أمور الإسلام .

فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ..

فعدا علينا قومنا : فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ...

ولما قرأ عليه صدرا من سورة مريم ، بكى النجاشى ثم قال :

إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم التفت إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص فقال لهما :

« انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما » .

لقد علم النجاشى ، فور سماعه ، المبادئ الإسلامية :

أن هذه المبادئ حق ، وأنها آيات بينات لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد ، صلوات الله عليه وسلامه : إنما يصدر من المنبع الذى كانت تصدر عنه رسالة عيسى عليه السلام .

وسبيل الله كما صوره سيدنا جعفر : توحيد الله وعبادته وحده ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء.

وإقامة الصلاة وأداء الزكاة والصيام ..

والابتعاد عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة .

أما سبيل الشيطان فهو :

عبادة الأصنام ، عبادة الشهوة ، والسيطرة ، والاستعلاء ، واستعباد الآخرين، وإخراج الآمنين من ديارهم بغير حق .

وسبيل الشيطان : إتيان الفواحش ، وقطع الأرحام ، وإساءة الجوار ، وأن يأكل القوى الضعيف .

وسبيل الشيطان أيضا : قول الزور ، وإشاعة الأكاذيب ، والغش بكل طرقه وأساليبه ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ،

(ب) وإذا أردنا تصويرا آخر لسبيل الله - فى إجماله وعمومه - حسبما رآه أحد حكماء العرب - ولم يكن قد أسلم - وهو أكثم بن صيفى فإننا - تصويرا للأمر فى واقعه - نذكر القصة التالية :

لما ظهر النبى ﷺ بمكة ، ودعا إلى الإسلام ، بعث أكثم بن صيفى ابنه « حبيشا » فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم ، وقال لهم - فيما قال :

إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره وكتابه : يأمر بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف (عرف) ذوو الرأى منكم : أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ، ترك ما ينهى عنه .

ثم يقول هذه الكلمات الرائعة :

«إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن دينا ، لكان فى أخلاق الناس حسنا».

وسبيل الله كما رآه أكثم :

توحيد الله، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والأخذ بمحاسن الأخلاق.

وكلمة الأخذ بمحاسن الأخلاق ، كلمة جميلة جمعت فاستغرقت ، وشملت فعمت .

أما كلمته الرائعة حقا ، السامية حقا ، العجيبة فى صدقها وإيجازها وفصاحتها فهى قوله :

«إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن دينا ، لكان فى أخلاق الناس حسنا».

(جـ) على أن أبا سفيان قبل إسلامه ، وقد كان عدوا لدودا للإسلام لم يستطع أن ينكر أن محمدا ﷺ ، إنما يدعو إلى :

الصلاة والزكاة والصلة (صلة الأرحام ، وصلة المؤمنين ومودتهم) والعفاف، لقد أعلن أبو سفيان ذلك فى ملأ من الأشهاد ردا على سؤال هرقل كما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه .

(د) وسبيل الله هو ما رسمه الله سبحانه ، وأنزل على رسوله ﷺ ، فكان قرآنا ، وكان سنة .

وسبيل الله بحسب القرآن الكريم والسنة الشريفة يتبلور ويتمركز فى :

١ - التوحيد فى مجال العقيدة .

٢ - الرحمة فى المجال الأخلاقى .

٣ - العدل فى مجال التشريع .

يقول سبحانه وتعالى فى العقيدة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [١] .

ويذكر سبحانه من شواهد ذلك على لسان سيدنا هود :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾ [٢] .

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .   (٢) هود : ٥٠ : ٥٢ .

وعلى لسان سيدنا صالح :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾ (١) .

وعلى لسان سيدنا شعيب :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾ (٢) .

ويقول عز وجل موضحا سبيله أمرا ونهيا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ (٣) .

ويقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ (٤) .

ويقول سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ (٥) .

---

(١) هود : ٦١ .
(٢) هود : ٨٤ .
(٣) النحل : ٩٠ .
(٤) الممتحنة : ١٢ .
(٥) الأنعام : ١٥١ : ١٥٢ .

ويجمل رسول الله ﷺ ، رسالته فى قوله :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وما من شك فى أن مكارم الأخلاق :

فى الاعتقاد : التوحيد .

وفى التشريع : العدل .

وفى الأخلاق : الرحمة .

وحينما يتحدث الرحمن الرحيم ، الودود القريب المجيب ، عن بواعث الرسالة الإسلامية : عن حكمتها ، عن طابعها ، عن سمتها العامة ، عن سماتها الخاصة ، فإنه سبحانه يعلنها : رحمة .

يقول سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾[(١)] .

هذا هو سبيل الله ، وهذا هو : الرسالة ، التى كلفت الأمة الإسلامية بالإيمان بها ، والتبشير بها ، والقيام عليها ، وتدعيمها فى الأنفس والآفاق .

ولو فتحت الأقطار أبوابها للدعوة بها والتبشير بمبادئها ، وهى توحيد وعدل ورحمة .

ولو آمنت بها الجماعات والشعوب ، وهى حق وخير .

ولو اعتنقها الأفراد والأمم وفيها خيرهم وسعادتهم ... لما احتاجت الأمة الإسلامية إلى الجهاد بالسيف ، ولما كان قتال فى سبيل الدعوة .

ولكن الرسول ﷺ ، أخذ يدعو قومه ليلا ونهارا فلم يزدهم دعاؤه إلا إعراضا ، وكان كلما دعاهم إلى سبيل الله جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا ، واستكبروا استكبارا ، لقد دعاهم الرسول ﷺ ، جهارا بعد أن دعاهم سرا قبل أن يؤمر بالدعوة جهرا .

لم يستجب المشركون إلى التوحيد والعدل ، لم يستجيبوا إلى الفضيلة

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

ومكارم الأخلاق . ولم يأخذوا الموقف السلبى من الدعوة فحسب ، وإنما استمروا فى ظلمهم وطغيانهم وجبروتهم ، فعذبوا المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، فنزلت الآية الكريمة :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾[1] .

لقد بغى المشركون ، وأخرجوا النبى ﷺ ، من بين أظهرهم ، وهموا بقتله ، وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة[2]

وأسباب الإذن بالقتال أسباب عامة ، إنها أسباب الجهاد الإسلامى فى سبيل الله ، فى كل زمن ، وفى كل بيئة ، وهى منع الظلم على وجه العموم ، الظلم فى صوره البشعة المتعددة التى منها إخراج الأبرياء الآمنين من ديارهم ، ومن أموالهم ، أو إبقاؤهم فيها على حالة من الذل ، ومن الاستعباد لا ترضى إنسانية ولا خلقا كريما .

وهى أيضًا الانحراف عن الحق ، والخير ، وعن التوحيد والعدل .

وجاء الإذن بالقتال .

وجاء الأمر بالجهاد .

وجاء التشجيع على الجهاد مع الأمر به .

وكان التشجيع على الجهاد يتجه إلى الناحية النفسية البحتة أحيانا .

وأحيانا أخرى كان يتجه إلى الناحية الاجتماعية ، ومكانة الأمة الإسلامية فى الكون .

وكان يتجه فى بعض الأحيان إلى بيان الأسباب والبواعث .

ويتجه أيضا مع كل هذا إلى بيان الثواب والأجر من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) الحج : ٣٩ : ٤٠ .

(٢) ابن كثير فى تفسير آية الأذن بالقتال .

الجهـــــاد

الجهاد فى السلم والحرب :

يقول الله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ (١) .

وروى الإمام مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو : مات على شعبة من النفاق ».

والآية الكريمة يؤيدها آيات كثيرة فى معناها ، والحديث الشريف تعضده أحاديث لا تكاد تعد ، كلها توجب الجهاد فى سبيل الله ، وتفرضه فرضا فى صوره المختلفة المتعددة .

إنه فرض يتسع مداه ويختلف بحسب الظروف والملابسات ، وهو فرض تختلف صوره باختلاف الحاجة إليه فى السلم والحرب ،

والجهاد فى حالة السلم استعداد لا يفتر ، إنه استعداد معنوى يقوى الإيمان، ويثبت الاعتماد على الله ، وهو استعداد مادى لا يقتصر على زاوية واحدة من الزوايا المطلوبة للقوة .

لقد كان رسول الله ﷺ : يشجع على الرماية ، ويسر حينما يرى شباب الإسلام يتعلمها . روى البخارى عن سلمة بن الأكوع ، رضى الله عنه قال : مر النبى ﷺ ، على نفر ينتضلون فقال :

« ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يكره أن يرى الرجل قد تعلم الرمى ثم تركه ، وأهمله .

روى الإمام مسلم عن ابن حماد ، رضى الله عنه ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الآية ٢١٦ : من سورة البقرة .

« من علم الرمى ثم تركه ، فليس منا ، أو فقد عصى » .

ولم ينس صلوات الله وسلامه عليه صناعة الأسهم ، وأجر صانعها ، وأن جزاءه الجنة ما دامت فى سبيل الله ، فعن أبى داود رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال :

« إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانعه يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى به ، ومنبله .

وارموا ، واركبوا ، وإن ترموا أحب لى من أن تركبوا ، ومن ترك الرمى بعدما علمه رغبة عنه ، فإنها نعمة تركها ، أو قال كفرها » .

وحث رسول الله ﷺ ، على تعلم ركوب الخيل ، فروسية وجهادا ، وعلى اقتنائها، وعلى الإنفاق عليها ، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه يحبها ، ويركبها، ويذللها .

فعن ابن يسار رضى الله عنه ، فيما رواه الإمام أحمد والنسائى ، أنه لم يكن شىء أحب إلى رسول الله ، ﷺ ، من الخيل ، وهو صلوات الله وسلامه عليه القائل فيما رواه البخارى ومسلم :

« الخيل معقود فى نواصيها الخير ، والأجر ، والمغنم إلى يوم القيامة » .

وعن هذا الاستعداد المادى ، والمعنوى يقول الله تعالى ، أمرا موجبا : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (١) .

سواء كانت هذه القوة مادية ، أو معنوية ، والاستطاعة فى واقع الأمر لا حدود لها ، وهذا الإعداد إذن لا ينتهى ، ولا يفتر فى أى يوم من الأيام .

على أن الله سبحانه قد ربط الإيمان بالجهاد فى صورة محكمة متماسكة لا انفصام لها ، لقد ربط الله سبحانه الجهاد بالإيمان ربطا بحيث يزول الإيمان عند الفرار من الجهاد وعند النكوص عنه .

إن عقد الإيمان الذى بيننا ، وبين الله سبحانه وتعالى من أهم شروطه أن نبيع - بمقتضى هذا العقد - أنفسنا وأموالنا مجاهدين بذلك فى سبيل الله ، وثمن ذلك إنما هو الجنة ، ويصور الله تعالى ذلك فى هذه الآية الصريحة .

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ (١) .

وحينما نزلت هذه الآية قال الصحابة ، رضوان الله عليهم : ربح البيع لا نقيل ، ولا نستقيل .

والمؤمن إذن مجاهد فى سبيل الله ، فى كل أوقاته ، إنه مجاهد بماله ، ومجاهد بنفسه ، ومجاهد بوقته ، ومجاهد بعمله ، ومجاهد بلسانه ، إن الكيان الإنسانى كله يجب أن يكون جهادا فى كل فترات الحياة ، ومن أجل ذلك كان المسلمون الأول يتسابقون إلى الجهاد ، والله سبحانه يصور شأنهم فيقول :

﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) ﴾ (٢)

أما المنافقون ، وأما الذين لا إيمان لهم ، فإنهم يتمحلون المعاذير فرارا من الجهاد ، ويستأذنون فى النكوص عنه ، ويلجئون إلى الاستنامة عنه ، والفتور ، والله سبحانه يفضحهم مصورا ظاهرهم وباطنهم :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾ (٣) .

وبعد : فإنه من أجل إرضاء الله سبحانه وتعالى ، ومن أجل دخول الجنة ، حيث النظر إلى وجهه الكريم يتسابق المسلمون فى الجهاد ، وروى الإمام مسلم عن أنس ، رضى الله عنه قال :

« انطلق رسول الله ، ﷺ ، وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ :

« لا يقدمن أحد منكم إلى شىء حتى أكون أنا دونه » .

---

(١) التوبة : ١١١.

(٢) التوبة : ٤٤ .

(٣) التوبة : ٤٥ .

فدنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ :

« قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » .

فقال عمير الأنصارى ، رضى الله عنه :

يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض ؟

قال : نعم .

قال : بخ بخ .

فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قول بخ بخ ؟

قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها .

قال : فإنك من أهلها .

فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال :

لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه ، إنها لحياة طويلة .

فرمى بما كان معه من التمرات ، ثم قاتلهم حتى قتل. رواه مسلم .

وأما بعد : فإن رسول الله ﷺ ، وهو المعبر الصادق دائما عن موقف المؤمن، يقول فيما رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه :

« والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

وما ذلك من رسول الله ، ﷺ ، إلا لمعرفته بما ينال الشهيد ، من رضوان الله ، لقد فرض الله سبحانه وتعالى الجهاد على المسلمين ، فى أسلوب لا لبس فيه ولا غموض ، فقال تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ (١) .

ومن المعروف أن هذه الفرضية إنما هى فرضية كفاية إذا لم يكن العدو فى

---

(١) البقرة : ٢١٦ .

داخل بلاد الإسلام ، أما إذا كان العدو فى داخل بلاد الإسلام فإن الجهاد يصبح فرض عين على كل مسلم أينما كان .

إذا كان العدو مثلا بفلسطين كما هو الآن ، فإن الجهاد واجب على مسلمى الباكستان ، وعلى مسلمى الهند ، والجزائر ، وتونس ، إنه واجب على كل مسلم على ظهر المعمورة .

وليس معنى ذلك أن كل شخص مهما كان عمله يجب عليه أن يترك عمله ، ويحمل السلاح ليذهب إلى الميدان ، وإنما معنى ذلك أن الدولة كلها يجب أن تعبأ تعبئة كاملة للحرب ، وأن ينسق العمل بحيث يصبح الجهاد هدفا تسخر كل القوى من أجله ، وبذلك يكون العامل والصانع مجاهدا وإن كان فى معمله ، أو فى مصنعه .

وعلى جميع الدول الإسلامية الآن أن تعبئ قواها لتؤدى فريضة الجهاد فى هذه البقعة التى اغتصبت من أرض الإسلام والعروبة ، وإلا أثم كل فرد ، وأثمت كل دولة .

والموقف الإسلامى الذى لا موقف غيره بالنسبة للجهاد ، إنما هو أن يستعد كل مسلم لأن يصبح جنديا فى سبيل الله بنفسه وبماله ،

لقد مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، ذات يوم بعين من ماء عذبة فأعجبته فأراد أن يقيم بجوارها يعبد الله ، ويعتزل الناس ، أراد أن يعتكف فى الجبل بجوار العين يشرب من مائها ، ويأكل من النباتات التى تنبت حولها ، ويمكث راضى النفس هادئ البال ، ثم قال لنفسه لن أفعل حتى أستأذن رسول الله، وذكر لرسول الله ﷺ ، ما دار بخلده ، فقال له ﷺ :

« لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما .

ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة : اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله ، فواق ناقة وجبت له الجنة » .

إنه فرض على كل مسلم أن يعد نفسه باستمرار على أن يكون جنديا فى سبيل الله ، وفرض عليه أن يتعهد نفسه دائما حتى لا تزول هذه الصفة عنه ، فإن

من تعلم شيئا من الفنون الحربية ثم أهملها غير مبال بالدفاع عن الوطن ، فإن اثمه عند الله كبير .

ومع ذلك فإنه لا بأس من أن ننبه ثانيا إلى : أن الجهاد شرع في الإسلام دفاعا عن النفس ، وردا للظلم ، وتحطيما للطغيان ، وتحريرا للشعوب ، وفتحا لأبواب الدعوة إلى الحق والهداية والخير ، هذه الأبواب التى يحاول دائما غلقها الطغاة من الملوك والجبابرة من الأمراء . وأن أول آية قرآنية نزلت في الجهاد تبين عن سبب مشروعيته .

يقول تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ (٤٠) ﴾ (١) .

وفيما يلى بعض الآيات ، وبعض الأحاديث ، التى تصور تصويرا واضحا موقف الإسلام من الجهاد :

يقول تعالى :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) ﴾ (٣) .

---

(١) الحج : ٣٩ : ٤٠ .

(٢) محمد : ٤ : ٥ .

(٣) التوبة : ١٤ : ١٥ .

وقال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ [١] .

وقال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [٢] .

وقال تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [٣] .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [٤] .

وقال تعالى :

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [٥] .

وقال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ (١٩١) ﴾ [٦].

---

(١) التوبة : ١٦ .

(٢) آل عمران : ١٤٢ .

(٣) محمد : ٣١ .

(٤) النساء : ٧٤ .

(٥) التوبة : ٤١ .

(٦) البقرة : ١٩٠ : ١٩١ .

وقال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) ﴾[١].

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾[٢].

وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾[٣].

وقال تعالى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾[٤].

وقال تعالى :

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[٥].

---

(١) البقرة ١٩٢ .

(٢) الأنفال : ٦٥ : ٦٦ .

(٣) التوبة : ٢٤ .

(٤) الحج : ٧٨ .

(٥) العنكبوت ٦٩ .

أما أحاديثه ﷺ ، فإنها كثيرة مستفيضة نذكر منها ما يلى :

عن أبى ذر رضى الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟

قال : « الإيمان بالله والجهاد فى سبيله » (١) .

وعن أبى داود بإسناد صحيح ، عن أنس رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال :

« جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه - فيما رواه الإمام مسلم - قال : قال رسول الله ﷺ :

« من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق » .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :

« من اغبرت قدماه - فى الجهاد - فى سبيل الله حرم الله سائر جسده على النار » (٣) .

وعن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى » (٤) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

« قيل : يا رسول الله ، أى الناس أفضل ؟

قال : « مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله » (٥) .

وعن سهل بن سعد الساعدى . رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد - فى الجهاد - فى سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما عليها » (٦) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) أخرجه النسائى .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط .

(٤) أخرجه الترمذى .

(٥) أخرجه البخارى .

(٦) أخرجه الشيخان .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: « مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، بشعب فيه عيينة من ماء عذبة ، فأعجبته فقال :

لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب : ولن أفعل حتى استأذن رسول الله، ﷺ .

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، قال :

« لا تفعل ، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا فى سبيل الله، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة : وجبت له الجنة » (١) .

رواه الترمذى وقال : حديث حسن . والفواق : ما بين الحلبتين.

وروى أبو داود بإسناد جيد ، عن أبى أمامة ، رضى الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله ، ائذن لى فى السياحة ، فقال النبى ﷺ :

« إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله عز وجل » .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه ، أنه عليه الصلاة والسلام قال :

« من لم يغز ، ولم يجهز غازيا ، أو يخلف غازيا فى أهله بخير . أصابه الله تعالى بقارعة قبل يوم القيامة » (٢) .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« وإذا تركتم الجهاد سلط عليكم ذلا ، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم » (٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لغدوة أو روحة فى سبيل الله ، خير من الدنيا وما فيها » (٤) .

وعن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال :

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) أخرجه أبو داود .

(٣) أخرجه أبو داود .

(٤) أخرجه البخارى .

« لما قتل عبد الله بن عمرو بن حزام يوم أحد قال رسول الله ﷺ لابنه جابر :

« يا جابر ، ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك » ؟

قلت : بلى .

قال : « ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب ، وكلم أباك كفاحا ، فقال :

يا عبدى ، تمن على أعطك .

قال : يا رب تحيينى فأقتل فيك ثانية.

قال : إنه سبق منى أنهم إليها لا يرجعون .

قال : يا رب فأبلغ من ورائى فأنزل الله عز وجل هذه الآية :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون »[1] .

ويقول رسول الله ﷺ - فيما رواه الإمام مسلم - عن أبى هريرة رضى الله عنه :

« تضمن الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى ، وإيمان بى ، وتصديق برسلى ، فهو ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى منزله الذى خرج بما نال من أجر أو غنيمة.

والذى نفس محمد بيده ما من كلم[2] يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم ، وريحه ريح مسك .

والذى نفس محمد بيده ، لولا أن يشق على المسلمين، ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى .

والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل »[3] .

---

(١) أخرجه البخارى .

(٢) الكلم : الجرح .

(٣) رواه مسلم ، وروى البخارى بعضه .

القادر على الجهاد
المتخلف عنه غير مؤمن

إذا تخلف شخص عن أداء واجبه بالنسبة للجهاد ، فقد خرج على المبدأ الإسلامى الإلهى ، فقد أمر الله بالجهاد وحذر من التخلف، ولقد قال الله تعالى فى من تثاقل عن الجهاد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾[1]

ويبين الله تعالى : أن هؤلاء الذين يتأخرون عن القتال لا إيمان لهم بالله ولا باليوم الآخر ، فيقول سبحانه :

﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾[2] .

وهذا الذى يتخلف إنما يتخلف معتقدا أنه بذلك يبتعد عن مظان القتل ، وقد بينا فيما سبق أن الآجال محدودة .

وهذا سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه ، حينما أوشك على الموت كان جسمه كله ضربات بسيوف ، أو طعنات بخناجر ، ثم هو يموت على فراشه آسفا لأنه كان يتمنى أن يموت فى ساحة الحرب شهيدا .

فالجبن لا يطيل الأجل ، ولا نامت أعين الجبناء ، والشجاعة لا تقصر الآجال ، والله يجزى الشجعان عن الإنسانية وعن الدين كل خير .

بيانات إلهية للمؤمنين
من أجل النصر

١ - حتى لا يكون المسلم جبانا :

إن الإنسانية الساذجة - منذ أن وجدت الإنسانية - تخاف الموت وتخشاه خشية لا تكاد تعدلها خشية .

وكان لذلك نتائج سلوكية كثيرة . من هذه النتائج : الجبن .

وقد أحب الله سبحانه وتعالى ، ألا تقع الأمة الإسلامية فيما يقع فيه غيرها من الجبن خشية الموت ، فبين سبحانه الأمر فى القرآن ، وبينه رسول الله ﷺ ، فى السنة بيانا لا لبس فيه :

إن مالك الملك إنما هو وحده الذى يملك الموت والحياة ، إنه يملك إماتة الطغاة أو تركهم لحكمة يعلمها سبحانه ، وهو الذى قرر الآجال وحددها ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون ، والحرص على الحياة أو الجبن ليس من أسباب إطالة الأجل ، والشجاعة والإقدام ليسا من أسباب تقصير الأجل ، وقد بين الله ذلك فى كتابه الكريم إبانة تامة ، وكما أنه لكل أجل كتابا فإنه لكل أمة أجلا .

أما هؤلاء الذين قالوا :

﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾

فإن الله سبحانه وتعالى يرد عليهم :

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [١].

وهؤلاء الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا :

﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ .

فإن الله سبحانه وتعالى ، يأمر رسول الله ﷺ بأن يرد عليهم قائلا :

---

(١) آل عمران : ١٥٤ .

﴿ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴾ [(١)] .

أما الذين يفرون أمام أعداء الله ، فهؤلاء :

﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ .

إذن المؤمن الصادق الإيمان لا يعرف الجبن ولا يستزله الشيطان موسوسا له بالخوف من غير الله تعالى :

٢ - وحتى لا يكون المسلم جبانا :

وإذا كان خوف الموت هو السبب الأول فى الجبن ، فإن السبب الثانى ما يوسوسه الشيطان للإنسان من جانب الرزق وكيف يتوافر للأولاد والذرية من بنين وبنات وزوجة إذا ذهب للحرب وإذا قدر له الشهادة فيها .

وكما استفاض الله ورسوله ، فى البيان عن تحديد الآجال ، فقد استفاض الله ورسوله فى بيان أن الرزق مقسوم .

وكما حرر الإسلام المجتمع الإسلامى من خوف الموت ، فقد حرره أيضا من هم الرزق بالنسبة للإنسان نفسه الذى يكفل الأسرة ، وبالنسبة للأسرة نفسها فردا فردا ، يستوى فى ذلك حالة السلم وحالة الحرب : ذلك أن الرزق بيد الله .

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [(٢)] .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [(٣)] .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى : أن الرزق فى السماء محدد مقسوم ، وأقسم سبحانه على أن ذلك حق واقع ، لقد أقسم سبحانه لما يعلمه من ضعف الطبيعة البشرية وإشفاقها وقلقها بالنسبة لأمر الرزق ، يقول سبحانه "

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾ [(٤)] .

---

(١) آل عمران : ١٦٨ .

(٢) هود : ٦ .

(٣) فاطر : ٢ . (٤) الذاريات : ٢٢ ، ٢٣ .

على أن صاحب الثراء العريض الذى يعتمد على ثرائه غير ناظر إلى الله تعالى : واهب الرزق والثراء ، قد يخسف الله به وبداره الأرض كما صنع بقارون .

أو يطوف ببساتينه ومزارعه طائف منه سبحانه فتصبح خاوية على عروشها كما فعل سبحانه بأصحاب الجنة التى قص علينا أمرهم فى القرآن الكريم فى سورة القلم .

وما من شك فى أن السعى على الرزق مطلوب : وأن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا السعى على الرزق ، وأن العمل الجاد الكادح ، إنما هو من سمات الإسلام ، كل ذلك حق ، وإذا كان الرزق بيد الله ، وإذا كان العمل مطلوبا فإن ما ينهى عنه الإسلام إنما هو هذه الصورة الجشعة القلقة التى تحاول اقتناص المال من السبل غير المشروعة أو التى ترى أن عبدا من عباد الله بيده الرزق اعطاء ومنعا وبيده الرزق زيادة ونقصا ، أو أخذا وتركا .

وقد حرر الإسلام بموقفه هذا المجتمع الإسلامى من أن يكون هم الرزق سببا فى ضعفه أو ذلته .

٣ - ومن عوامل النصر وحدة الأمة :

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) .

ومما لا شك فيه أن الدعوة إلى وحدة الأمة هى من طبيعة الإسلام ومن مبادئه : ذلك أنها وحدة قائمة على مبادئ ومثل كريمة .

فالإسلام لم يجعل أساس الوحدة لونا من الألوان ، فيفرق بين الأبيض والزنجي ، أو الأصفر والأحمر ، وينكل بأحدهما دون مبرر ويسلبه حقه ظلما وعدوانا .

إن أقطارا على وجه الأرض تزعم لنفسها حضارة ، وتدعى أنها بلغت فى الإنسانية والفكر والثقافة شأوا بعيدا لا يزال يستعبدها اللون ، مجرد اللون، فتنكل بالأبرياء ، لا لمثل عليا ولا لمبادئ أخلاقية ، فعملها مناف للمثل العليا وللمبادئ الأخلاقية .

---

(١) الأنبياء : ٩٢ .

وما الباعث على الظلم والتنكيل ، وعلى الخسف والعدوان سوى مجرد التعصب للون ، مجرد اللون .

ولنا فى مقابل ذلك أن نفخر بالإسلام الذى يؤسس الوحدة بين الأشخاص على مبادئ من الخير ومن الحق .

وفى عصرنا الراهن أقطار لا تزال تفرق فى المجتمع الواحد بين طبقات لا مجال للتفرقة بينها : لأنها نشأت فى مكان واحد ، شربت من مائه ، وتغذت من خيراته ، واستنشقت فى جوه نسيما واحدا . وكان الوضع الطبيعى ألا يكون هناك تفرقة بين أبنائه ، ومع ذلك فإن هذه التفرقة موجودة فعلا فى بعض الأقطار ، لم يثرها مبدأ أخلاقى ، أو هدف سام ، وإنما هى التقاليد والوراثة .

ولنا أن نفخر فى مقابل ذلك بالإسلام الذى لا فضل فيه لعربى على أعجمى ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى .

﴿ إنَّ أكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أتْقَاكُمْ ﴾ (1) .

ووحدة المبادئ إذن تنتج فى الإسلام وحدة الأمة وتضامنها وتكافلها .

فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض .

والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

والمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله .

إن المسلم مرتبط بالمسلم أينما كان ، ونجدته واجبة أينما وجد ، ويذكرنا الله، سبحانه وتعالى : برابطة المبادئ هذه ، وبأنها نعمة من ا لله تعالى فى مقابل ما صنعه البشر من عبث وأهواء تجعل الارتباط يقوم على أساس من اللون أو من الجغرافية أو من غير ذلك مما يخجل الإنسانية حينما تتخلص من أهوائها أن تكون قد جعلت منه أساسا للارتباط وتحديد الأوطان .

ويحثنا الله تعالى على أن نستمسك بالوحدة على أساس من مبادئه السامية.

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنتُمْ أعْدَاءً فَألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ (2) .

---

(1) الحجرات : ١٣ . (2) آل عمران : ١٠٣ .

ورابطة المبادئ فى الآفاق السامية وفى الأنظار العليا أقوى من أية رابطة أخرى وأشد تماسكا من أى ارتباط أيا كان .

وبعد : فإن وحدة الأمة لابد لها - لتستمر - من التعاون المخلص بين أفراد المجتمع .

ولابد من النصيحة والموعظة والضرب على أيدى المفرقين للوحدة .

٤ - حكم الله فى موالاة الأعداء :

إن الأعداء محاربون لله ورسوله ، وكل من والاهم إنما هو محارب لله ورسوله ، لأنه ينصر أعداء الله على أولياء الله ، فهو من الأعداء ومعهم ، إنه بعمله ذلك : محارب لله ومحارب لرسول الله وقد قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) ﴾ [١] .

وقد أراد الإسلام أن يضمن سلامة الداخل ، وأن يقاوم ما استطاع أعداء الخارج ولو كانوا ينتسبون للإسلام فكان لابد من عقاب رادع لهؤلاء وأولئك يتمثل فيما يراه الحاكم الإسلامى مما ذكرته الآية الكريمة من القتل أو الصلب أو قطع الأيدى والأرجل من خلاف أو النفى ، ولقد بين الله سبحانه بالنسبة لهؤلاء وأولئك أنهم خارجون على الإسلام ، وأن الإيمان قد انتفى من قلوبهم يقول سبحانه :

﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [٢] .

وكل من يوالى الأعداء إذن انما هو كائن انتفى من قلبه الإيمان ، والموقف

---

(١) الآية ٣٣ سورة المائدة .

(٢) الآية ٢٢ سورة المجادلة .

الإسلامى إذن هو أن يجد المحاربون لله ورسوله فى المؤمنين غلظة : بذلك أمر الله تعالى فيقول :

﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ (١) .

ولقد اتخذ المسلمون الأول - حكاما ورعية - هذه المواقف الإسلامية بالنسبة للأعداء فها هو المؤمن الصادق عبد الله بن عبد الله بن أبى يعرض على رسول الله ﷺ أن يأتى له برأس أبيه إذا شاء ﷺ ذلك ، فيقول لرسول الله ﷺ:

يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى ، فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى به وأنا أحمل إليك رأسه .

وهذا هو الموقف الإسلامى الصحيح: ألاَّ يوالى المسلم من يحارب المسلمين ولو كانوا آباء أو أبناء أو إخوة أو عشيرة ، وإلا فقد باء بغضب من الله والرسول واستحق العذاب الأليم فى الدنيا قبل الآخرة .

القرآن يرسم طريق النصر

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ (١).

هذا العهد والتعاقد بين الله والمؤمنين إنما هو عهد الإيمان يبيع فيه المؤمن نفسه وماله : يقدمها إلى الله ، فلا يبخل بالمال فى سبيله سبحانه ، ولا يبخل بالنفس حينما تقتضى الظروف البذل والتضحية والفدائية .

والإيمان إذن - ومن شرائطه الجود بالمال والنفس - هو أول خطوة أساسية جوهرية فى طريق النصر، بل هو خطوة بدونها لا يكون هناك قط أساس مستقيم، تعتمد عليه الأمم ، ويعتمد عليه القادة فى سبيل اتخاذ مكان كريم بين الدول .

على أن القرآن لا يعد المؤمن مؤمنا صادقا إلا إذا كان مجاهدا بماله وبنفسه فى سبيل الله .

---

(١) التوبة : ١٢٣ .　　(٢) التوبة : ١١١ .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾ (١) .

أما إذا كان الإيمان ضعفا مزعزعا متأرجحا فإن نتيجة ذلك تكون تباطؤا عن الخروج إلى الجهاد ، بل وتخلفا عنه :

﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾ (٢) .

بل إن وجود العناصر التى لا يملأ الإيمان أفئدتها فى صفوف المجاهدين ضار بهم :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ (٣) .

وضعفاء الإيمان ، ومن لا إيمان عندهم يستخفون حين يبدأ النضال ويتخلفون عن الجهاد فرحين بذلك :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) ﴾ (٤) .

ويأمر القرآن الرسول ﷺ أن يعزل هذه العناصر عن معسكر المؤمنين وألا يأذن لهم بالمشاركة فى الجهاد .

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) ﴾ (٥) .

هذا الإيمان هو إيمان إيجابى : يستعد ويهيئ للأمر عدته ، ولا يدع صغيرة

---

(١) الحجرات : ١٥ .

(٢) التوبة ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) التوبة : ٤٧ .

(٤) التوبة : ٨١ .

(٥) التوبة : ٨٣ .

ولا كبيرة من أمر التعبئة للجهاد إلا ويحكمها ، ومن هنا كانت الخطوة الثانية فى طريق النصر ممثلة فى قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (١) .

وهذه القوة لا تقتصر على القوة المادية ، وإنما تتضمنها وتتسع دائرتها فتشمل التعبئة الروحية .

ومما لا شك فيه أن التعبئة الروحية هى قوة دافعة نحو الثبات فى لقاء العدو والإقدام فى شجاعة نحو تحقيق النصر .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) ﴾(٢).

والتعبئة الروحية إنما تثبت دعائمها ، وتؤتى ثمارها حينما يكون الهدف من الجهاد واضحا سافرا .

ومن هنا كانت الخطوة الثالثة التى رسمها القرآن فى طريق النصر هى وضوح الهدف ، والهدف القرآنى من الجهاد - ولا بأس من ذكره مرة ثانية - ليس عرضا ماديا أو حظًا دنيويا ، وما كانت هجرة المجاهد لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، وإنما هجرته إلى الله ورسوله ، ومعنى ذلك : أن هدف الجهاد إنما هو إعلاء كلمة الله وكلمة الله هى الحق ، وهى العدالة ، وهى الرحمة ، وهى الأخوة ، وهى السلام العالمى ، بالنسبة للفرد فى نفسه ، ودمه ، وماله ، وعرضه ، وبالنسبة للأمة فى كرامتها ، وعزتها ، وكل مقدساتها .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٧٦) ﴾ (٣).

والتعبئة الروحية كفيلة بأن تجعل الأمة فى جهادها كالبنيان المرصوص، ومن هنا كانت الخطوة الرابعة التى رسمها القرآن فى سبيل النصر :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ (٤).

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾ (٥).

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

(٢) الأنفال : ٤٥ .

(٣) النساء : ٧٦ .

(٤) الصف : ٤ .

(٥) الأنفال : ٤٦ .

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿١٠٣﴾ ﴾[١].

فإذا ما وسوس الشيطان بنزاع أو خلاف ، وإذا ما تحدثت النفس بفرقة وشقاق فإن طريقة تسوية ذلك مرسومة واضحة :

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[٢].

إن الأمة التى تنصر الله باتباعها للدين الخالص قد ضمن الله لها النصر ووعدها به ووعد الله لا يتخلف :

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾[٣].

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٤] .

أما الموقف الأخير فهو التفويض لله سبحانه ، والثقة فيه وحده ، والاعتماد عليه لا على النفس أو القوة المادية أو أى شىء آخر .

وقد أعطى الله المسلمين درسا قاسيا حينما اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم ، وعلى أنفسهم وعدتهم وعتادهم وقالوا :

« لن نغلب اليوم من قلة » .

كان ذلك فى غزوة حنين ، ولقد صور الله الموقف تصويرا قويا فقال سبحانه:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[٥].

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) النساء : ٥٩ .

(٣) محمد : ٧.

(٤) الحج : ٤٠ .

(٥) التوبة : ٢٥ : ٢٧ .

عظات ودروس حربية وأخلاقية
من غزوات الرسول ﷺ

ليس من قصدنا أن نؤرخ للغزوات وأن نسير معها سيرا يفصل جزئياتها : يبدأ مع ابتدائها وينتهى بنهايتها ، وإنما هدفنا فى هذه الكلمات عن الغزوات أن نستخرج منها بعض العظات وبعض العبر ، وأن نوضح بعض الجوانب التى قد تمر دون انتباه جدير بها .

غـــزوة بــــدر

غزوة بدر ووحدة الصف وراء القائد :

أتى الخبر إلى رسول الله ﷺ ، أن قريشا تكتلت وبدأت السير لحرب المسلمين ، فجمع رسول الله ، ﷺ ، الناس وأخبرهم عن قريش وسيرها لحرب المسلمين ، وأخذ يستشيرهم فيما ينبغى أن يتخذه المسلمون من موقف ، فأخذ المهاجرون ، رضى الله عنهم يبدون آراءهم .

ولما جاء دور الصحابى الجليل المقداد بن عمرو فى الحديث قال :

يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون .

فوالذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد - وبرك الغماد مكان بأقصى اليمن - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

هذا الموقف من المقداد بن عمرو ، تمنى ابن مسعود ، رضى الله عنه أن يكون صاحبه .

روى عنه أبو نعيم أنه قال فى ذلك : شهدت من المقداد بن عمرو مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به .

ولما قال المقداد ذلك ، قال له رسول الله ، ﷺ ، خيرا ، ودعا له به .

ولم يكن الأنصار قد أبدوا رأيهم بعد ، فقال رسول الله ﷺ ، أشيروا علىّ

أيها الناس ، وإنما يريد الأنصار ؛ وذلك لأنهم هم الأكثر عددا ، ولأنهم من جانب آخر حين بايعوه بالعقبة قالوا :

« يا رسول الله ، إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دورنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا » .

فكان رسول الله ، ﷺ ، يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم .

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ ، قال له سعد بن معاذ :

والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال رسول الله ﷺ : أجل .

قال سعد رضى الله عنه :

قد آمنا بك وصدقناك . وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر ، لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

قال سعد أيضا حسبما رواه ابن كثير :

ولعل أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت .

فسُر رسول الله ، ﷺ ، بقول سعد ، كما سُر من قبل بقول المقداد رضى الله عنهم أجمعين.

وبعد : فما قول المقداد، وما قول سعد إلا شرح للموقف الذى يجب أن يكون عليه المؤمنون جميعاً، وهو الموقف الذى صوره رسول الله ﷺ ، بالبنيان المتماسك، إذ يقول صلوات الله وسلامه عليه:

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

ومثله صلوات الله وسلامه عليه، بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل المؤمنين ، فى توادهم ، وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر »

٢ - مشاورة القائد لأعوانه ونزوله على رأيهم إذا تبين أرجحيته :

لما نزل رسول الله ﷺ ، فى بدر قال له الخباب بن المنذر:

يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القُلب ، ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأى .

فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن معه من الناس ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقُلب فغورت، وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه ، فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية .

٣ - الإعداد الكامل والالتجاء إلى الله :

عدل رسول الله ﷺ ، الصفوف ، ورجع إلى العريش فدخله، ومعه فيه أبو بكر الصديق، ليس معه فيه غيره، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يناشد[١] ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول :

اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد .

وأبو بكر يقول : يا نبى الله : بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ماوعدك.

---

(١) يناشد ربه : يسأله ويرغب إليه .

وقد خفق [1] رسول الله ﷺ ، خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال :

أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع [2].

٤ - دور الإيمان فى المعركة :

(أ) خرج رسول الله ﷺ ، إلى الناس فحرضهم وقال :

والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة.

فقال عمير بن الحمام ، أخو بنى سلمة ، وفى يده تمرات يأكلهن :

بخ بخ ، أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء. ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل .

(ب) قال عوف بن الحارث ، وهو ابن عفراء :

يا رسول الله ، ما يضحك الرب من عبده ؟

قال : غمسه يده فى العدو حاسراً.

فنزع درعا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وقد ذكر ابن جرير أن عميراً قاتل وهو يقول :

ركضا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد

٥ - ابن عمر وغزوة بدر :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

عرضت على رسول الله ﷺ ، يوم بدر فاستصغرنى ، فلم يقبلنى، فما أتت على ليلة قط مثلها من السهر والحزن والبكاء، إذ لم يقبلنى رسول الله ﷺ.

---

(١) خفق : نام نوما يسيرا .

(٢) النقع : الغبار .

فلما كان من العام المقبل عرضت عليه ، فقبلنى ، فحمدت الله على ذلك.

٦ - لو كان غير الجنة :

عن سليمان بن بلال، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، لما خرج إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعا الخروج معه.

فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فأمر أن يخرج أحدهما ، فاستهما ، فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد رضى الله عنهما .

إنه لابد لأحدنا من أن يقيم ، فأقم مع نسائك .

فقال سعد : لو كان غير الجنة لآثرتك به ، إنى أرجو الشهادة فى وجهى هذا، فاستهما ، فخرج سهم سعد ، فخرج مع رسول الله ﷺ ، إلى بدر فاستشهد .

٧ - الشباب فى المعركة :

عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال :

إنى لواقف يوم بدر فى الصف فنظرت عن يمينى وشمالى فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزنى أحدهما فقال :

يا عماه أتعرف أبا جهل ؟

فقلت : نعم وما حاجتك إليه ؟

قال : أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق وجهى وجهه حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك ، فغمزنى الآخر فقال لى أيضا مثلها : فلم يطل الوقت ، حتى نظرت إلى أبى جهل وهو يجول فى الناس فقلت :ألا تريان ، هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه ؟

فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى النبى ﷺ ، فأخبراه فقال :

أيكما قتله ؟

قال كل منهما : أنا قتلته .

قال : هل مسحتما سيفيكما ؟

قالا : لا .

قال : فنظر النبى ﷺ ، فى السيفين فقال : كلاهما قتله ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والآخر معاذ بن عفراء رضى الله عنهما .

٨ - وفى هذه الغزوة نزلت سورة الأنفال :

ويصور الله سبحانه وتعالى ، فى أوائل هذه السورة ، المؤمنين ، الذين يتولاهم الله سبحانه وتعالى ، بعنايته ، ورعايته ، ونصره ، فيقول :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾ [1] .

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى ، رعايته لهؤلاء المؤمنين حينما لجئوا إليه فيقول :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ﴾ [2] .

ويأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين فى هذه السورة الكريمة ألا يفروا يوم الزحف :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) ﴾ [3] .

ويقول الله سبحانه وتعالى للمؤمنين فى هذه السورة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

---

(١) الأنفال : ٢ - ٤ .   (٢) الأنفال : ٩ - ١٣ .   (٣) الأنفال : ١٥ - ١٦ .

يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون (٢٤) واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب (٢٥) واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون (٢٦) يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون (٢٧) ﴾ [١] .

ويقول سبحانه آمرا المؤمنين بالثبات والصبر والاتحاد وعدم التنازع :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (٤٥) وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين (٤٦) ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط (٤٧) ﴾ [٢] .

ويأمرهم سبحانه فى هذه السورة بالإعداد الكامل، والاستعداد التام للمعركة:

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (٦٠) ﴾ [٣] .

ثم يوجه القول إلى الرسول ، ﷺ فى أسلوب رائع جميل :

﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين (٦٢) وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم (٦٣) يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين (٦٤) يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون (٦٥) الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين (٦٦) ﴾ [٤] .

---

(١) الأنفال : ٢٤ - ٢٧ . (٢) الأنفال : ٤٥ - ٤٧ .

(٣) الأنفال : ٦٠ . (٤) الأنفال : ٦٢ - ٦٦ .

٩ - من آثار غزوة بدر :

جلس عمير الجمحى مع صفوان بن أمية فى الحجر بعد مصاب أهل بدر من قريش بيسير ، وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ ، وأصحابه ، ويلقون منه عناء وهو بمكة ، وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر .

قال ابن هشام : أسره رفاعة بن رافع أحد بنى زريق .

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير قال : فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان :

والله ما فى العيش بعدهم خير ، قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دين على ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة : ابنى أسير فى أيديهم ، قال : فاغتنمها صفوان وقال :

علىَّ دينُك ، أنا أقضيه عنك : وعيالك مع عيالى أواسيهم مابقوا ، لا يسعنى شىء ويعجز عنهم .

فقال له عمير :

فاكتم شأنى وشأنك ، قال : أفعل .

قال : ثم أمر عمير بسيفه ، فشحذ له وسُم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف ، فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذى حرش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ ، فقال :

يا نبى الله ، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه . قال :

فأدخله على ، قال : فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله ﷺ ، فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ، ﷺ، وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال:

أرسله يا عمر ، أدن يا عمير . فدنا ثم قال : أنعموا صباحا ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله ﷺ :

قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام :

تحية أهل الجنة ، فقال :

أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد ، قال :

فما جاء بك يا عمير ؟

قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديك فأحسنوا فيه .

قال : فما بال السيف فى عنقك ؟

قال : قبحها الله من سيوف ؟ وهل أغنت عنا شيئًا ؟

قال : أصدقنى ، ما الذى جئت له ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على ، وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمَّل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك.

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق .

فقال رسول الله ﷺ :

فقهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره ، ففعلوا .

ثم قال : يا رسول الله ، إنى كنت جاهدا على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تأذن لى ، فأقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ، ﷺ ، وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم ؟

قال : فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب ، يقول :

أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام ، تنسيكم وقعة بدر .

وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف ألا يكلمه أبدا : ولا ينفعه بنفع أبدا .

قال ابن إسحاق :

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذى شديدا ، فأسلم على يده ناس كثير .

غـــزوة أحـــد

١ - مخالفة الأوامر وعاقبتها :

مضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال : لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال :

وأخذ رسول الله ﷺ يعبئ للقتال .

فأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير ، وكان يومئذ معلما بثياب بيض ، وكان الرماة خمسين رجلا .

وقال له رسول الله ﷺ :

انضح [1] الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت فى مكانك لا تؤتين من قبلك .

لقد كان أمر رسول الله ﷺ صريحا لعبد الله بن جبير أن يثبت فى مكانه على أى وضع كان المسلمون .

وبدأت الحرب ، وحمى وطيسها ، وخاض رجال الله المعركة بقلب ثابت وبشجاعة نادرة ، ومع أنهم كانوا ربع عدد عدوهم تقريبا . فقد أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده فحسوهم [2] بالسيوف - كما يقول ابن هشام - حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها .

يقول الزبير رضى الله عنه :

والله لقد رأيتنى أنظر إلى خِدم هند بنت عتبة ، وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ، ولا كثير .

فلما حصل ذلك مالت الرماة إلى المعسكر حين كشفنا القوم عنه وخلوا ظهورنا للخليل ، فأوتينا من خلفنا .

وانكشف المسلمون .

---

(١) ادفع الخيل عنا بالنبل

(٢) قتلوهم .

فأصاب فيهم العدو .

يقول ابن هشام :

وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ ، فدث [1] بالحجارة حتى وقع لشقه فأصيبت رباعيته ، وشج فى وجهه ، وكلمت شفته .

عن أنس بن مالك قال :

كسرت رباعية النبى ﷺ يوم أحد وشج فى وجهه ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح دمه ويقول :

كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) ﴾ [2] .

لقد كان النصر للمسلمين ، ثم لما خالف الرماة أمر القائد الأعلى : رسول الله ﷺ ، وتركوا أماكنهم مع أمره الصريح لهم بأن يثبتوا فى أماكنهم مهما كانت الظروف ..

لما خالفوا أمر القائد ، أتى المسلمون من خلفهم ، وانكشفوا .

٢ - الشباب فى المعركة :

تدافع الشباب فى سن الخمس عشرة سنة فأكثر على رسول الله ﷺ يريد كل منهم أن يظفر بالإذن له فى المساهمة فى شرف العمل فى سبيل الله .

لقد جاء إليه ﷺ سمرة بن جندب وجاء إليه رافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة فردهما .

فقيل له : يا رسول الله إن رافعا رامٍ ، فأجازه .

فلما أجاز رافعا قيل له :

يا رسول الله إن سمرة يصرع رافعا ، فأجازه .

ولكنه ﷺ رد : أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، أحد

---

(١) فدث : فرمى بالحجارة حتى التوى بعض جسمه .

(٢) آل عمران : ١٢٨ .

بنى مالك بن النجار ، ورد البراء بن عازب ، أحد بنى حارثة ، وعمرو بن حزم ، وأسيد بن ظهير .

رد جميع هؤلاء لصغر سنهم على الرغم من أنهم كانوا فى شوق شديد لخوض المعركة .. معركة الشرف فى سبيل الله .

ولقد بلغت فرحتهم أقصاها حينما أجازهم ﷺ شرف المساهمة فى غزوة الخندق .

أما من كان أكثر من خمس عشرة سنة ، وكان فى حالة تمكنه من الحرب ، فقد أجازه رسول الله ﷺ .

٣ - الشيوخ فى المعركة :

(أ) لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد رفع حسيل بن جابر وهو اليمان : أبو حذيفة بن اليمان ، وثابت بن وقش فى الآطام مع النساء والصبيان ، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران : لا أبالك ، ما تنتظر ؟ فوالله ما بقى لواحد منا من عمره إلا ظمء [١] حمار ، وإنما نحن هامة [٢] اليوم أو غد ، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ ، لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ ؟ فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا فى الناس ولم يعلم بهما . فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون ، وأما حسيل بن جابر ، فاختلفت عليه أسياف المسلمين ، فقتلوه ولا يعرفونه ، فقال حذيفة : أبى : فقالوا : والله أن عرفناه [٣] وصدقوا . قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فأراد رسول الله ﷺ أن يديه ، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين ، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيرا .

(ب) كان عمرو بن الجموح رجلا أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد ، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له : إن الله عز وجل قد عذرك ، فأتى رسول الله ﷺ فقال :

---

(١) الظمء : مقدار ما يكون بين الشربتين ، وأقصر الأظماء ظمء الحمار لأنه لا يقصر عن الماء فضرب مثلا لقرب الأجل .

(٢) الهامة : طائر يخرج من رأس القتيل - فيما تزعم أساطير العرب - إذا قتل فلا يزال يصيح أسقونى أسقونى ! حتى يؤخذ بثأره فضربته العرب مثلا للموت .

(٣) أى : ما عرفناه .

إن بنى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، فوالله لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة .

فقال رسول الله ﷺ : أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك .

وقال لبنيه : ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه فقتل يوم أحد .

٤ - فدائيون فى المعركة :

كان كل هم المشركين أن يقتلوا رسول الله ﷺ ، فلما انكشف المسلمون فى المعركة ، حاول المشركون أن ينتهزوها فرصة ، فتدافعوا نحو الرسول ﷺ فى كثرة كثيرة تريد قتله .

فقام زياد بن السكن فى نفر خمسة من الأنصار ، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ ، رجلا ثم رجلا يقتلون دونه ، حتى كان آخرهم زياد ، فقاتل حتى أثبتته الجراح .

وترّس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه يقع النبل فى ظهره وهو منحن عليه حتى كثر فيه النبل .

وقاتلت دون رسول الله ﷺ ، أم عمارة وهى نسيبة بنت كعب .

تقول أم سعد بنت سعد بن الربيع :

دخلت على أم عمارة فقلت لها :

يا خالة ، أخبرينى خبرك ؟

فقالت : خرجت أول النهار أنظر ماذا يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين [١] . فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلى .

قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور، فقلت: من أصابك بهذا ؟

قالت : ابن قمئة ، أقمأه الله .

---

(١) أى أن النصر لهم .

ثم تابعت حديثها قائلة : لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل بن قمئة يقول : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب ابن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ ، فضربنى هذه الضربة ، ولكن لقد ضربته على ذلك ضربات ، لكن عدو الله كانت عليه درعان .

ثم .. جاء المسلمون فأجلوا المشركين عن رسول الله ﷺ .

ولقد قال رسول الله ﷺ عنها :

ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأراها تقاتل دونى .

٥ - يوم كله لطلحة :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال :

ذاك يوم كله لطلحة رضى الله عنه ، ثم أنشأ يحدث فذكر الحديث ، وفيه فانتيهنا إلى رسول الله ﷺ ، وقد كسرت رباعيته ، وشج فى وجهه ، وقد دخل فى وجنتيه حلقتان من حلق المغفر ، قال رسول الله ﷺ : عليكما صاحبكما .

يريد طلحة رضى الله عنه ، وقد نزف ، فذكر الحديث وفيه: ثم أتينا طلحة رضى الله عنه ، فى بعض تلك الحفار ، فإذا به بضع وسبعون بين طعنة ورمية وضربة ، وإذا قد قطعت أصبعه فأصلحنا شأنه .

٦ - رجال صدقوا :

عن أنس رضى الله قال :

عمى سميت به ولم يشهد مع رسول الله ﷺ ، يوم بدر قال : فشق عليه وقال :

أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، غبت عنه ، والله لئن أرانى الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ، ليرين الله ما أصنع ، قال : فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ ، يوم أحد قال : فاستقبل سعد بن معاذ رضى الله عنه .

فقال له أنس رضى الله عنه :

يا أبا عمرو واها لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قتل، فوجد

فى جسمه بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية، قال : فقالت أخته عمتى الربيع بنت النضر :

فما عرفت أخى إلا ببنانه .

ونزلت هذه الآية :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾ (١) .

٧ - ريح الجنة :

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال :

بعثنى رسول الله ﷺ ، يوم أحد لطلب سعد بن الربيع رضى الله عنه وقال :

إن رأيته فأقرئه منى السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ، كيف تجدك؟

قال : فجعلت أطوف بين القتلى فوجدته وهو فى آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم ، فقلت له :

يا سعد إن رسول الله ﷺ ، يقرأ عليك السلام ويقول لك : أخبرنى كيف تجدك ؟

قال : على رسول الله السلام ، وعليك السلام ، قل له : يا رسول الله أجدنى أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى رسول الله ﷺ شىء يكرهه وفيكم عين تطرف .

٨ - غسلته الملائكة :

دخل حنظلة بن أبى عامر على زوجته أول ما دخل بها فنودى بالجهاد فى غزوة أحد من ليلته .

فخرج مسرعا إلى المعركة وأظهر ضروبا من البسالة والشجاعة حتى أتاه سهم مفاجئ فاستشهد ، وبعد المعركة قال الرسول ﷺ :

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأحزاب .

« لقد رأيت حنظلة بن أبى عامر تغسله الملائكة بماء المزن فى صحاف الفضة بين السماء والأرض » .

فذهب الصحابة إليه وهو فى القتلى فوجدوا شعره يقطر ماء ، فقالوا لرسول الله ﷺ ذلك فقال :

اذهبوا إلى زوجته فاسألوها .

فذهبوا إليها فقالت :

إنى أعرس بى أول ليلة فقط ، ولما سمع الداعى إلى الجهاد خرج مسرعا وهو جنب ، فرجعوا إلى النبى ﷺ فأخبروه فقال :

« من أجل ذلك غسلته الملائكة » .

٩ - دخل الجنة ولم يصل قط :

عن أبى هريرة أنه كان يقول : حدثونى عن رجل دخل الجنة ولم يصل قط ، فإذا لم يعرفه الناس سألوه : من هو ؟ فيقول :

أصيرم من بنى عبد الأشهل ، عمرو بن ثابت بن وقش . قال الحصين : فقلت لمحمد بن أسيد : كيف كان شأن الأصيرم ؟

قال : كان يأبى الإسلام على قومه ، فلما كان يوم خرج رسول الله ﷺ إلى أحد بدا له فى الإسلام فأسلم ، ثم أخذ سيفه ، فعدا حتى دخل فى عرض الناس ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، قال : فبينا رجال من بنى عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم فى المعركة إذا هم به فقالوا : والله إن هذا للأصيرم ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث ، فسألوه ما جاء به ، فقالوا : ما جاء بك يا عمرو ؟ أحدب على قومك أم رغبة فى الإسلام ؟

قال : بل رغبة فى الإسلام ، آمنت بالله وبرسوله وأسلمت ، ثم أخذت سيفى ، فغدوت مع رسول الله ﷺ ، ثم قاتلت حتى أصابنى ما أصابنى ، ثم لم يلبث أن مات فى أيديهم . فذكروه لرسول الله ﷺ فقال :

« إنه لمن أهل الجنة » .

١٠- كل مصيبة بعدك هينة :

عن سعد بن أبى وقاص قال :

مر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار وقد أصيب زوجها وأخوها مع رسول الله ﷺ بأحد ، فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيرا يا أم فلان وهو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ؟

قال : فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت :

كل مصيبة بعدك جلل . تريد صغيرة .

١١- غزوة أحد والثقة فى نصر الله :

شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى ، أن يغلب المسلمون فى أحد ، ولله حكمة فى كل ما يحدث ، وهو سبحانه يبتلى بالسراء كما يبتلى بالضراء ، وكل شىء عنده بمقدار .

وما أن انتهت المعركة وأصاب المشركون من المسلمين ما أصابوا حتى كر أعداء الله راجعين ، وظن المسلمون أنهم إنما رجعوا قاصدين المدينة ليدمروها وينكلوا بمن فيها من الرجال ويأسروا النساء والأولاد ، وشق على المسلمين ذلك ، فلم توهن الهزيمة من عزيمتهم ولم تفت فى عضدهم ، وكان إيمانهم الذى لا يتزعزع ، وثقتهم فى نصر الله ، وتوكلهم عليه سبحانه وتعالى ، كان كل ذلك دافعا لهم إلى أن وطنوا أنفسهم على أن يسبقوهم إلى المدينة ، لينازلوهم فيها ، فقال رسول الله ﷺ لعلى رضى الله عنه :

اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ، ثم لأناجزهم فيها .

قال على : فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، ووجهوا مكة . ولكن المشركين بعد أن ساروا فى طريق مكة تلاوموا فيما بينهم فقال بعضهم : لم تصنعوا شيئا !

أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم وقد بقى منهم رءوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم .

وقال البعض الآخر : لا محمدا قتلتم ، ولا الكواعب أردتم ، بئسما صنعتم ، ارجعوا .

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب المسلمين إلى الذهاب لملاقاتهم والسير وراءهم ليرعبهم ويريهم أن بالمسلمين قوة وجلدا .

وبلغت ثقة رسول الله ﷺ فى نصر الله أن لم يأذن لملاقاة العدو إلا لمن حضر الموقعة فقط اللهم إلا لجابر بن عبد الله الذى قال لرسول الله ﷺ :

« يا رسول الله إنى أحب ألا تشهد مشهدا إلا كنت معك » .

وأجاب المسلمون دعوة رسول الله ﷺ ، ولبوا نداءه وساروا فى طريق القوم حتى بلغوا حمراء الأسد .

ولما علم المشركون بذلك قالوا : نرجع مِنْ قَابلٍ . وساروا فى طريقهم إلى مكة وأنزل الله سبحانه :

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) ﴾ (١) .

وبعد : فإنه إذا كان الإيمان بالله والثقة فيه قد دفعت المسلمين فى أحد إلى هذه المواقف الخالدة فإن مما يزيد ذلك وضوحا ما رواه ابن هشام بخصوص موقف المسلمين فى أحد بعد المعركة ثانى يوم فيها قال :

مر بأبى سفيان - وكان حينئذ قائد المشركين - ركب من عبد القيس ، فقال لهم أبو سفيان : أين تريدون ؟ قال : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة. قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمدا رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكل فى مقابل ذلك زبيبا بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم .

قال : إذا وافيتم محمدا فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . ومر الركب برسول الله ﷺ ، وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه

---

(١) آل عمران : ١٧١ ، ١٧٢ .

بالذى قال أبو سفيان وأصحابه فكان رد الفعل عند رسول الله ﷺ . وأصحابه ما صوره الله تعالى بقوله :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ [١] .

١٢- بعض من أصابهم القرح :

عن أبى السائب رضى الله عنه أن رجلا من بنى عبد الأشهل قال :

شهدت أحدا أنا وأخ لى ، فرجعنا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج فى طلب العدو قلت لأخى أو قال لى :

أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله مالنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ ، وكنت أيسر جرحا منه ، فكان إذا طلب ، حملته مرة ومشى مرة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون .

١٣- آيات نزلت فى غزوة أحد :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾ [٢] .

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [٣] .

---

(١) آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢) آل عمران : ١٢١ ، ١٢٣ .

(٣) آل عمران : ١٣٩ - ١٤٢ .

﴿ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) ﴾[١].

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) ﴾[٢].

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴾[٣].

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ

---

(١) آل عمران : ١٤٥ ، ١٤٨ .

(٢) آل عمران : ١٥٢ : ١٥٥ .

(٣) آل عمران : ١٦٠ .

استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم (١٧٢) الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١٧٣) فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم (١٧٤) ﴾ (١).

غـــزوة الأحـــزاب

١ - التفاؤل والثقة فى الله :

يقول الله تعالى :

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما (٢٢) ﴾ (٢) .

قال المسلمون ذلك فى غزوة الأحزاب ، وسبب هذه الغزوة أن اليهود لما رأوا انتشار الإسلام فى المدينة بصورة سريعة ، رأوا أن قوة المسلمين تزداد كل يوم ، وأن إخاءهم وتعاونهم يقوى على مر الزمن ؛ أرادوا الكيد للإسلام والقضاء عليه ، فذهب وفد من يهود بنى النضير ويهود بني وائل إلى القبائل فى الجزيرة العربية وعلى رأس هذا الوفد اليهودى سلام بن أبى الحقيق النضرى ، وحيى بن أخطب ، وكنانة بن أبى الحقيق ، وهود الوائلى ، وهذا الوفد هو الذى حزّب الأحزاب ضد رسول الله ﷺ والمسلمين .

خرج هؤلاء اليهود حتى قدموا على قريش فى مكة فأخذوا يزينون لهم إثارة الحرب ضد المسلمين والقيام بعمل جماعى يقضى عليهم وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، أديننا خير أم دين محمد ؟ ولم يتورع اليهود عن القول أن دين الأصنام والشرك خير من دين التوحيد والعدل، فقالوا لهم: بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ، فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى :

---

(١) آل عمران : ١٦٩ - ١٧٤ .

(٢) الأحزاب : ٢٢ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) ﴾ (١) .

لقد لعن الله اليهود بسبب كذبهم ، وكم لعنهم الله لأسباب شتى من الخبث والبهتان ، وسر قريشا قول اليهود ونشطوا للحرب والقتال .

ثم خرج الوفد اليهودى إلى قبيلة غطفان فدعوهم إلى ما دعوا قريشا إليه وأعطوهم العهد والمواثيق أنهم سيكونون معهم ، وأخبروهم أن قريشا قد تابعوهم على ذلك .

وأخذ هذا الوفد يحزب الأحزاب ويجمع القبائل على حرب رسول الله ﷺ ، واستعمل فى سبيل ذلك كل ما استطاع من وسائل خسيسة ، فلما انتهى من مهمته رجع إلى المدينة يظهر المودة للمسلمين .

وخرجت قبيلة أشجع ، وخرج غير هؤلاء فى جيوش جرارة .

وخرجت قريش ، وخرجت غطفان ، وخرج بنو مرة .

وعلم المسلمون بالأمر فلم يفت ذلك فى عضدهم ، ولم يوهن من قوتهم ، فقد جمعهم رسول الله ﷺ ، وشاورهم فى الأمر ، واستقر رأيهم على ما أشار به سيدنا سلمان الفارسى رضى الله عنه ، من حفر الخندق ، وأخذ المسلمون يعملون والرسول صلوات الله وسلامه عليه يعمل بينهم كأحدهم ، وكان الجو مليئا بالشعور الواضح السافر بأن قوى الجزيرة العربية قد تجمعت لتضرب الضربة الحاسمة ، ولتقتل رجالا أن يقولوا : ربنا الله .

وبينما المسلمون يعملون فى هذا الجو إذ بصخرة اشتدت عليهم فلم تعمل فيها معاولهم ولجئوا إلى رسول الله ﷺ ، مستنجدين به فى تفتيت الصخرة ، فأخذ صلوات الله وسلامه عليه المعول وقال :

باسم الله ، وضرب ضربة فكسر جزءا من الصخرة ، فكبر صلوات الله عليه وسلامه وقال : أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا .

---

(١) النساء ٥١ - ٥٢ .

ثم قال باسم الله وضرب ضربة ثانية ، فكسر جزءا آخر ، فكبر صلوات الله عليه وسلامه ، وقال : أعطيت مفاتيح الشام . والله لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا .

ثم قال : باسم الله وضرب الثالثة ، ثم كبر ، وقال : أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، ثم قال صلوات الله وسلامه عليه لسلمان الفارسى :

هذه فتوح يفتحها الله بعدى يا سلمان .

وسرت بشريات رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، هذه بين المسلمين فازدادوا إيمانا على إيمانهم وتفاؤلا على تفاؤلهم وثقة بالله عز وجل على ثقتهم به سبحانه .

وحينما سمع المنافقون ذلك ورأوا استبشار المسلمين وتفاؤلهم ونظرتهم الباسمة إلى المستقبل الملىء بالفوز والنصر أخذوا ينفثون سمومهم ويقولون : ألا تعجبون من محمد يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر قصور الشام واليمن وفارس وأنتم إنما تحفرون الخندق من شدة الخوف ؟ واستعمل اليهود أسلوب الدعاية الكاذبة الرخيصة متحدثين عن ثورة المشركين يريدون نشر الرعب فى قلوب المسلمين ، وتوهين عزائمهم ولم تجد دعايتهم إلا آذانا صما وقلوبا قد أشربت الإيمان واليقين والثقة كل الثقة فى الله تعالى ، وجاء الرد من قبل الله القوى العزيز على هؤلاء المنافقين قويا حاسما :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ (١) .

هذا الموقف المتفائل الواثق بالله سبحانه وتعالى كل الثقة كان شعار رسول الله صلوات الله عليه وسلامه طيلة حياته ، إنه شعار يتمثل فى جميع مواقفه ﷺ ، ولكنه شعار يتزايد قوة ووضوحا كلما ازدادت المواقف حرجا وشدة.

ومن أمثلته البينة : ما قاله صلوات الله وسلامه عليه لأبى بكر وهما فى الغار عند هجرتهما إلى المدينة : لقد كان سيدنا أبو بكر حزينا خوفا على الرسول

---

(١) آل عمران : ٢٦ .

صلوات الله وسلامه عليه ، فجاء النداء الإلهى على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، يملؤه ثقة وتفاؤلا : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (١) .

ولما سمع سيدنا أبو بكر خفق نعال المشركين أمام الغار وأصواتهم الصاخبة التى تعلن عن سخطهم وغيظهم المكبوت قال :

لو نظر أحدهم إلى موقع قدميه لأبصرنا .

ويبتسم رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ويقول :

« ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

هذا الروح المحمدى فى التفاؤل ، والثقة بالله تعالى سرى إلى أصحابه رضوان الله عليهم فكان سيدنا أبو بكر مثلا عاليا من أمثلة التفاؤل والثقة : فبعد أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى أشار كثيرون عليه ألا ينفذ بعث أسامة : ذلك الجيش الذى كان رسول الله ﷺ قد أمر بإرساله للجهاد فى سبيل الله ، لقد أشاروا عليه بذلك؛ لأنهم كانوا يخشون أن تثور الجزيرة العربية بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه وأن ينقض من لم يتمكن الإيمان من قلوبهم عهودهم ومواثيقهم ، فإذا ما فعلوا ذلك كان الجيش حاضرا على أهبة الاستعداد لصدهم وتأديبهم ، ولكن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه أبى إلا أن يتم ما أراد صلوات الله وسلامه عليه وما أمر به : ثقة بالله وطاعة لرسوله ﷺ .

وموقف سيدنا أبو بكر من أمر المرتدين معروف مشهور. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال فيما رواه البخارى ومسلم :

لما توفى رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضى الله عنه وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر رضى الله عنه :

كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله !

فقال أبو بكر رضى الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه .

قال عمر رضى الله عنه : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق .

---

(١) التوبة : ٤٠ .

وبعد ، فإنه مما لا مرية فيه : أن هذا التفاؤل وهذه الثقة كان يصحبها الاستقرار الكامل والتدبير المحكم والملاحظة الدقيقة لكل صغيرة وكبيرة ، حتى إذا ما انتهت التدابير إلى غاياتها وأعدت العدة على أكملها فوض المؤمن من بعد ذلك الأمر إلى الله سبحانه وتعالى واعتمد عليه .

٢ - وإن كان عَمْرا :

عن كعب بن مالك الأنصارى رضى الله عنه قال :

لما كان يوم الخندق خرج عمرو بن عبد ود معلما ليرى مشهده ، وهو مقنع بالحديد ، فنادى : من يبارز ؟

فقام على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : أنا لها يا نبى الله ﷺ .

فقال : إنه عمرو ، اجلس .

ثم نادى عمرو : ألا رجل يبارز ؟ فجعل يؤنبهم ، ويقول : أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم دخلها ؟ أفلا تبرزون إلىَّ رجلا ؟

فقام على رضى الله عنه فقال : أنا يا رسول الله .

فقال : إنه عمرو اجلس .

ثم نادى الثالثة .

فقام على رضى الله عنه فقال : يا رسول الله أنا .

فقال : إنه عمرو .

فقال : وإن كان عَمْرا .

فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه وهو يقول :

إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

فقال له عمرو : من أنت ؟

قال : أنا على .

قال : ابن عبد مناف ؟

قال : أنا على بن أبى طالب .

فقال: يا ابن أخى، من أعمامك من هو أسن منك ، فإنى أكره أن أهرق دمك.

فقال على رضى الله عنه : ولكنى والله لا أكره أن أهرق دمك .

فغضب ، فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار ، ثم أقبل نحو على رضى الله عنه مغضبا ، واستقبله على بحربته ، فضربه عمرو فى حربته فقدها ، وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجه وضربه على رضى الله عنه على حبل عاتقه فسقط، وسمع رسول الله ﷺ التكبير ، ثم أقبل على رضى الله عنه نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل .

فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه : هلا استلبت درعه ؟ فإنه ليس للعرب درع خير منها .

قال : ضربته فاتقانى بسوءته ، فاستحييت أن أسلبه .

٣ - إنها عمة الرسول ﷺ :

عن عباد قال :

كانت صفية بنت عبد المطلب فى حصن ، قالت : فمر رجل من اليهود ، فجعل يطوف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين الرسول ﷺ من عهود ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ وأصحابه فى نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت .

فلما رأت اليهودى يطوف بالحصن ، قالت :

إنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه .

قالت : فأخذت عمودا ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغت منه عادت إلى الحصن ، ولم تأخذ من سلبه شيئا ، وقالت :

لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل .

٤ - آيات نزلت فى غزوة الأحزاب :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾ (١).

---

(١) الأحزاب : ٩ - ٢٥ .

فتح مكة

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) ﴾[1] .

إن آيات الفتح هذه ، نزلت فى أثناء عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، بعد عهد الحديبية .

نزلت تسلية للمسلمين ، وقد حزنوا على عدم دخول مكة حاجين ومعتمرين، مع أنهم كانوا على أبوابها ، ومع أنهم كانوا فى قوة ومنعة تمكنهم من دخولها عنوة محاربين .

وقد نزلت تشير إلى فتح وتبشير به .

ولقد أوحاها الله إلى رسوله ليلا ، فلما أصبح صلوات الله عليه وسلامه قال :

لقد نزلت على الليلة سورة ، هى أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ .

وهذه الآيات الكريمة لا تكاد تبين عن فتح مادى حربى ، وإنما هى تشير على الخصوص إلى الآفاق العليا من الرضوان الإلهى . إنها وثيقة تسجل الثقة المطلقة التى شملت الماضى ، والحاضر والمستقبل ، والتى سمت بالرسول ، صلوات الله عليه وسلامه إلى مستوى الرضا عن كل ما يأتى وما يدع .

إنها بشرى من الله بفتح مبين ، وغفران شامل ، وإتمام كامل للنعمة ، وهداية وقيادة دائمة مستمرة ، ونصر عزيز ، وهذه منح إلهية عامة ، لا تفسر بالماديات وحسب، وإنما تفسر أيضا ومن - باب أولى - بالمعانى الروحية فى أسمى صور التجليات الإلهية - اللهم لك الحمد والشكر - ولذلك فإننا حينما نتحدث عن فتح مكة ، لا تحتل المسائل الحربية المكانة الأولى من الموضوع ، وإنما يحتل ذلك المثل العليا من الصور الأخلاقية النبوية - باعتبارها نتيجة وأهدافا لفترة من الجهاد طويلة - ويحتل ذلك السمو النفسانى الممثل فى الرحمة المهداة - باعتبارها

---

(١) الفتح : ١ - ٣ .

ثمرة حان قطافها من الله إلى الإنسانية ، أى فى سيدنا رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه .

ومهما يكن من شىء ، فإن قريشا ، نقضت عهد الحديبية ، الذى كان بين رسول الله ﷺ ، وبينها ، والذى كان يفرض الهدنة بينها وبين رسول الله صلوات الله عليه وسلامه .

وخلاصة الأمر ، أنه كان فى مواد هذا العهد ، أنه من شاء أن يدخل فى عهد محمد وعقده دخل ، ومن شاء أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل : فسارعت قبيلة خزاعة وأعلنت أنها تدخل فى عقد محمد وعهده ، وسارع بنو بكر، وقالوا : نحن ندخل فى عقد قريش وعهدهم .

ومكث الفريقان فى هدنة تامة نحو الثمانية عشر شهرا .

ثم إن بنى بكر -حلفاء قريش- وثبوا ليلا على خزاعة، حلفاء رسول الله ﷺ، على غفلة منهم ، خارجين بذلك على العهد وعلى العقد .

لقد وثبوا على خزاعة دون ما سبب ، ووثبوا عليها فى جنح من الليل غدرا وخيانة ، وساعدت قريش حلفاءها سرا فأعانوهم بالسلاح والرقيق ، بل وحاربوا معهم مستخفين على اعتقاد أن الرسول ﷺ ، سوف لا يعلم بذلك .

وكانت هذه الموقعة عند ماء لخزاعة يسمى بالوثير ، فأسرع خزاعى - وهو عمرو بن سالم - وركب حتى قدم على رسول الله ﷺ يخبره الخبر ، وقال قصيدة من الشعر يصف بها الأمر وفى نهايتها :

هم بيَّتونا بالوثير هجدا   وقتلونا ركعا وسجدا

فقال له رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو .

ثم أمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاد دفاعا عن الحق ، ونصرا للضعفاء ، وضربا على أيدى الخونة ، وعقابا على موقف الغدر .

وكانت مناسبة مواتية ، لأن يركز الله تفكير رسوله فى أمر قريش :

أما آن لقريش ، أن تسلم وجهها لله ، وأن توحده ولا تشرك به شيئًا ؟

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [١] .

---

(١) لقمان : ١٣ .

أما آن لقلوبهم ، أن تخشع لذكر الله وما نزل من الحق ؟

لقد دعا سيدنا إبراهيم - فى رحاب مكة - ربه مبتهلا ضارعا قائلا :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ (١) .

وها هو ذا الرسول قد بعثه الله إليهم بالهدى السماوى ، فهلا استجابت قريش لهدى السماء .

وهذا البيت العتيق ، الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ، عليهما وعلى رسولنا أفضل الصلاة وأزكى السلام ، قائلين :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

هذا البيت ، الذى عهد الله لإبراهيم وإسماعيل ، أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود .

هذا البيت ؟؟

لقد احتلته الأصنام والتفت حوله ، وارتفعت على جوانبه ، معلنة - فى وقاحة سافرة - الشرك بالله .

لابد من تحطيم الأصنام ، وتطهير البيت ، لابد من أن تسلم قريش وجهها إلى الله .

وصمم رسول الله فى عزم لا يلين ، أن يزلزل قواعد الشرك فى معقله الحصين . أعنى مكة ، وأن يطهر البيت من جديد للطائفين والعاكفين والركع السجود .

وعبثا حاول أبو سفيان - الذى أرسلته قريش سفيرا بينه وبين الرسول - أن يجدد العهد الذى نقضته قريش ، ولم يجد أبو سفيان - رغم دهائه ولباقته - عونا من أحد حتى ولا من ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله ، التى بلغ بها النفور من الشرك ، أن طوت فراش رسول الله ﷺ ، حتى لا يجلس عليه أبوها ، فلما سألها مستفسرا : أرغبت به عن الفراش ، أم رغبت بالفراش عنه .

---

(١) البقرة : ١٢٩ .   (٢) البقرة : ١٢٧ .

قالت : هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس .

فانصرف عنها مغضبا قائلا :

« والله لقد أصابك من بعدى شر » .

وأخطأ أبو سفيان فما أصابها شر ، ولكنها كراهية الشرك ، ولكنها المحبة القوية العميقة لرسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه .

وخرج رسول الله ، ﷺ ، يوم الأربعاء بعد العصر ، لعشر ليال خلون من شهر رمضان ، سنة ثمان من الهجرة ، حتى إذا كان بالكديد واجتمع الناس إليه أخذ إناء فشرب منه ثم قال :

« أيها الناس من قبل الرخصة ، فإن رسول الله ﷺ ، قبلها ، ومن صام فإن رسول الله ، ﷺ ، قد صام » .

حتى إذا بلغ صلوات الله عليه وسلامه « مر الظهران » - وهو مكان بالقرب من مكة - أمر الجيش بالإفطار ، لأنه ، فيما يبدو ، يوشك أن يخوض المعركة الفاصلة بين الشرك والإيمان .

وعسكر الجيش فى مر الظهران ، ولما مر الجيش بأبى سفيان بعد أن أمنه العباس ، رضى الله عنه ، قال ، بعقليته الجاهلية ، للعباس :

يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما .

فقال العباس بعقليته الإسلامية :

ويحك إنه ليس بملك ، ولكنها نبوة .

قال أبو سفيان : نعم .

وتوجه رسول الله ﷺ ، نحو مكة محذرا من إراقة الدماء ، ولما قال سعد بن عبادة ، وهو أحد قادة الجيش حينئذ :

اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة :

عزله النبي ﷺ ، فقد كان رسول الله صلوات الله عليه وسلامه يريد أن يكون ، اليوم ، يوم المرحمة .

ودخل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مكة دون مشقة ، وكان أول ما فعل ، أن طاف بالبيت سبعا ، ولما دخل البيت ، فرأى فيه صور الملائكة بهيئة النساء ، ورأى إبراهيم عليه السلام مصورا فى يده الأزلام يستقسم بها ، قال :

« قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن إبراهيم والأزلام ؟

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ (١) .

وأمر بطمس الصور كلها ، واتجه إلى الأصنام فحطمها مرددا قوله تعالى :

﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ (٢) .

وإذا كان رسول الله ﷺ ، قد حطم الأصنام المادية ، فإنه من قبل ذلك ومن بعد ذلك قد حطم كل صنم يعبد من دون الله ، وبين أن الرياء شرك ، والهوى شرك ، والخضوع للشهوات شرك ، وكل عمل لا يقصد الإنسان به وجه الله ، فإنما هو من أعمال الشرك .

وحينما اجتمعت قريش إليه نظر إليهم وقال :

« يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ »

فقالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم !

فقال : وهو يبكى « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أقول لكم ما قاله أخى يوسف لإخوته :

﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾ (٣) .

غـــزوة تبــوك

١ - الإنفاق فى سبيل الله :

أمر رسول الله ﷺ ، أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك فى زمان عسرة الناس ، وشدة من الحر وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه .

---

(١) آل عمران : ٦٧ .   (٢) الإسراء : ٨١ .   (٣) يوسف : ٩٢ .

وكان رسول الله ﷺ ، قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له ، ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم (١) .

ولأن هذا كان فى جدب من البلاد ولم يكن - لذلك - من السهل تجهيز الجيش سمى هذا الجيش : جيش العسرة .

وحض رسول الله ﷺ أهل الغنى على النفقة فى سبيل الله ، وأعلن رسول الله ﷺ ، أن من جهز جيش العسرة ، فله الجنة ، فتسابق المسلمون رجالا ونساء فى التبرع بحليهن وبمالهن ، والرجال بما يستطيعون : ها هو ذا أبو بكر الصديق يأتى بكل ماله ، وكان أربعة آلاف درهم ، ويسأله رسول الله ، ﷺ : هل أبقيت لأهلك شيئًا ؟ فيقول رضى الله عنه :

أبقيت لهم الله ورسوله .

ويجىء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية من الذهب الخالص .

ويجىء سيدنا عثمان بثلاثمائة بعير وبألف دينار ويضع الدنانير فى حجر رسول الله ﷺ ، فيسر الرسول بها ويدخل يده فيها يقلبها ويقول : اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض ، ويقول : ما على عثمان ما عمل بعد اليوم .

وتتوالى التبرعات من الرجال والنساء ، حتى تنتهى بتجهيز الجيش وقيامه بالمهمة التى أرادها الله ورسوله .

وللإنفاق فى سبيل الله منزلة كبيرة فى الإسلام .

يقول الله تعالى : فى الإنفاق فى سبيله :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ (٢) .

وحينما فسر مكحول ، رضى الله عنه ، هذه الآية الكريمة قال : يعنى بها الإنفاق فى الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك .

---

(١) ابن هشام .　　(٢) البقرة : ٢٦١ .

ومما روى عن رسول الله ﷺ فى ذلك قوله : « من أرسل بنفقة فى سبيل الله ، وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم يوم القيامة ، وقوله ﷺ ، وأقام فى بيته ، أى لعذر ، كالمرض مثلا .

ثم يكمل رسول الله ﷺ فيقول :

« ومن غزا فى سبيل الله وأنفق فى جهة ذلك ، فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم ».

ثم تلا صلوات الله وسلامه عليه هذه الآية :

﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء ﴾ .

وذات يوم جاء رجل بناقة مخطومة فقال : يا رسول الله ، هذه فى سبيل الله .

فقال رسول الله ﷺ ، على ما رواه الإمام مسلم : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة .

فالإسلام يحث ويشجع على الإنفاق فى سبيل الله فى الحالات التى لا يكون فيها العدو داخل حدود الإسلام ، أما إذا اقتحم العدو الحدود ، فإن الإسلام كما يوجب الجهاد بالنفس إيجابا فإنه يوجب البذل والإنفاق إيجابا أيضا كل بقدر ما يستطيع .

٢ - غزوة تبوك والبكاءون الذين يبكون شوقا إلى الجهاد :

قال ابن إسحاق : فبلغنى أن ابن ياسين بن عمير بن كعب النضرى لقى أبا ليلى وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان فقال :

ما يبكيكما ؟

قالا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه .

فأعطاهما ناضحا فارتحلاه ، وزودهما شيئا من تمر ، فخرجا مع النبى ﷺ.

زاد يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال :

وأما علبة بن زيد فخرج من الليل فصلى من ليلته ما شاء الله ثم بكى وقال:

اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها مال أو جسد أو عرض .

ثم أصبح مع الناس فقال رسول الله ﷺ : وأين المتصدق هذه الليلة ؟ فلم يقم أحد ، ثم قال « أين المتصدق فليقم » فقام إليه فأخبره فقال رسول الله ﷺ : « أبشر فوالذى نفسى بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة » .

٣ - توبة عن التخلف ، أو كعب بن مالك وغزوة تبوك :

إنها لوحة فنية دقيقة صادقة رائعة تصور ما دار فى نفس كعب بن مالك عندما تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

عن عبد الله بن كعب بن مالك ، وكان قائد كعب رضى الله عنه من بنيه حين عمى قال :

سمعت كعب بن مالك رضى الله عنه يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنه إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها .

وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، واستقبل عددا كبيرا ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذى يريد ، المسلمون مع رسول الله كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان - قال كعب فقلَّ رجل يريد أن يتغيب

إلا ظن أن ذلك سيخفى به مالم ينزل فيه وحى من الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معه فأرجع ، ولم أقض شيئًا وأقول فى نفسى أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتنى فعلت ثم لم يقدر ذلك لى .

فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك :

ما فعل كعب بن مالك ؟

فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه .

فقال له معاذ بن جبل رضى الله عنه : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا .

فسكت رسول الله ﷺ ، فبينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب فقال رسول الله ﷺ :

كن أبا خيثمة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى ، وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون .

قال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ : قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل أن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لم أنج منه بشىء أبدا ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادما ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعا وثمانين رجلا ، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعال .

فجئت أمشى إليه حتى جلست بين يديه فقال لى :

ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ قال قلت :

يا رسول الله إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلا ، ولكننى والله قد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله بسخطك على ، وإن حدثتك حديث صدق تجد على فيه إنى لأرجو فيه عقبى الله عز وجل ، والله ما كان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله ﷺ :

أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك .

وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ، لقد عجزت فى أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك .

قال فوالله ما زال يؤنبنى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسى .

ثم قلت لهم :

هل لقى هذا معى من أحد ؟

قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهم مثل ما قيل لك .

قال قلت : من هما ؟

قالوا : مرارة بن ربيعة العامرى وهلال بن أمية الواقفى .

قال فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، قال فمضيت حين ذكروهما لى ، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل

حزك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت له :

يا أبا قتادة ، أنشدك الله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ﷺ .

فسكت ، فعدت فناشدته ، فسكت ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار .

فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق يشيرون له إلى حتى جاءنى فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا فقرأته فإذا فيه:

أما بعد : فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من البلاء ، فيممت بها التنور فسجرتها ، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين ، واستلبث الوحى ، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى فقال :

إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟

فقال : لا ، اعتزلها فلا تقربنها .

وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك، فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله من هذا الأمر. فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له :

يا رسول الله : إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال :

لا ، ولكن لا يقربنك . فقالت :

إنه والله ما به من حركة إلى شئ . ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى :

لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟ فقلت :

لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدرينى ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ، فلبثت بذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا .

ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا قد ضاقت على نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر. فخررت ساجدا وعرفت أنه قد جاء الفرج ، فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قبل صاحبى مبشرون وركض إلى رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم قبلى ، أوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه بشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئونى بالتوبة ، ويقولون لى : لتهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام طلحة بن عبيد رضى الله عنه يهرول حتى صافحنى وهنأنى . والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ، فكان كعب لا ينساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور .

أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك .

فقلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟

قال : لا بل من عند الله عز وجل .

وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر . وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت :

يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله.

فقال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك .

فقلت إنى أمسك سهمى الذى بخيبر ، وقلت يا رسول الله ، إن الله تعالى إنما أنجانى بالصدق وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت. فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله تعالى فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله تعالى فيما بقى، قال: فأنزل الله تعالى :

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ حتى بلغ ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ [١] .

قال كعب : والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد إذ هدانى الله للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد فقال الله تعالى :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ [٢] . .

قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه بذلك قال الله تعالى : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ .

وليس الذى ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه « متفق عليه » .

وفى رواية : أن النبى ﷺ خرج فى غزوة تبوك يوم الخميس وكان يحب أن يخرج يوم الخميس .

وفى رواية : وكان لا يقدم من سفر إلا نهارا فى الضحى ، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه » ا هـ .

---

(١) التوبة : ١١٧ - ١١٩ .

(٢) التوبة : ٩٥ - ٩٦ .

اليهـــود

١ - اليهود ... لعنوا :

لقد لعنوا على لسان داود ، ولعنوا على لسان عيسى .

يقول الله تعالى :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا (٨٢) ﴾ (١) .

ولعنوا لأن فى فطرتهم الخبيثة نقض المواثيق .

يقول تعالى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ (١٣) ﴾ (٢) .

٢ - عودة إلى حكمة الجهاد :

يقول الله تعالى :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) ﴾ (٣) .

إن هذه الآيات الكريمة من سورة النساء كأنها نزلت اليوم تصف حالة إخوان لنا من المؤمنين المستضعفين رجالا ونساء وولدانا فى فلسطين يلجئون إلى الله ويضرعون إليه قائلين : ربنا أخرجنا من هذه القرية التى ظلمنا فيها اليهود ،

---

(١) سورة المائدة ٧٨ - ٨٢ . (٢) المائدة ١٣ .

(٣) النساء : ٧٤ - ٧٥ .

يذيقوننا من الذل ألوانا ومن العذاب أصنافا ، ربنا واجعل لنا من لدنك وليا ، ينقذنا من هؤلاء بإخراجهم من الأماكن التى اغتصبوها ، واجعل لنا من لدنك نصيرا ينصرنا على من ظلمنا .

وكما بدأ الله سبحانه هذه الآيات بالأمر الجازم الذى يبين أن الذين يقاتلون فى سبيل الله إنما هم الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومعنى ذلك أن من لم يقاتل فى سبيل الله إنما هو الذى لا يشرى الحياة الدنيا بالآخرة ، أى الذى ليس له فى الإيمان نصيب ، نقول إنه كما بدأ الله هذه الآيات بذلك فإنه سبحانه بين أن الذين آمنوا لهم فى حربهم هدف هو الحق والعدل ، ورد الظلم والعدوان ، فهم يقاتلون فى سبيل الله ، أما الذين يحاربونهم فإنهم يحاربون الحق والعدل ، ورد الظلم والعدوان ، فهم يقاتلون فى سبيل الشيطان ، ويأمر الله المسلمين بأن يقاتلوا أولياء الشيطان أينما وجدوا .

ومن أولياء الشيطان ، بل على رأس أولياء الشيطان فى عصرنا الحاضر اليهود .

لقد وضعوا منهجا لإفساد الإنسانية من حيث الدين .

ولإفساد الإنسانية من حيث الخلق .

وأخذوا يعملون على تنفيذه بمالهم ، وصحافتهم ، ودعايتهم ، لقد زيفوا العلم، وسخروا الأقلام ، واستأجروا الضمائر فى سبيل إفساد الإنسانية وتحللها .

وذلك من أجل أن يصلوا عن طريق ذلك إلى السيطرة والاستعلاء والتملك والتحكم .

ولكن الله سبحانه سيحطم بنيانهم الذى بنوا ، وسيذهب كيدهم ومكرهم ، لأن الله سبحانه يتولى دائما الصالحين من عباده الذين يعملون على سيادة الحق والعدل .

٣ - من مؤامراتهم ضد الوحدة العربية :

مر شاس بن قيس ، بالأوس والخزرج في مجلس جمعهم فغاظه صلاح ذات بينهم وقال فى نفسه :

قد اجتمع ملأ بنى قيلة فى هذه البلاد ، وما لنا معهم إذا اجتمع ملؤها بها من قرار ،

وأمر فتى شابا من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصة يذكرهم فيها بيوم بعاث ذلك اليوم الذى انتصر فيه الأوس على الخزرج .

وتكلم الغلام وأنشدهم ما قيل فى ذلك اليوم من أشعار ، فذكر القوم ذلك اليوم ، وتنازعوا وتفاخروا واختصموا ، وقال بعضهم لبعض :

إن شئتم عدنا إلى مثلها .

وبلغ رسول الله ﷺ ذلك الأمر ، فخرج إليهم فيمن معه من الأنصار والمهاجرين فذكرهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم إخوانا متحابين وكان مما قال :

« أدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية » ؟.

وما زال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضا ، واستغفروا الله جميعهم فما رؤى يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم .

وما كانت هذه هى المؤامرة الأولى أو الأخيرة من مؤامرات اليهود ضد الوحدة العربية .

ولقد تغلب عليها العرب بمبدأ الوحدة التى غرسها الإسلام فيهم .

وإذا كان هذا المبدأ - مبدأ الوحدة - قد نجح فى الماضى فهو لا محالة ناجح فى العصر الحاضر .

ومما لا شك فيه أن الصهيونية تعمل جاهدة على غرس بذور العداوة بين الدول العربية فى العصر الحاضر حتى يفشلوا وتذهب ريحهم ، ولكن السلاح الوحيد الذى يجب أن نتحصن به دائما لرد باطلهم الخبيث إنما هو التمسك بالوحدة .

على أن الوحدة إنما تنشأ وتثبت وتستمر إذا اتحدت المثل والأهداف .

وكانت هناك العوامل التى تحفظ هذه الوحدة وتشدها برباط محكم وثيق .
وكل ذلك قد نظمه الإسلام وأحكمه .

وأحب هنا أن أشير إلى عامل واحد فقط من العوامل التى تخلق الوحدة وتنميها ، وتقوى فى المجتمع أواصرها المقدسة ، ذلك هو عامل اللغة وهو من الأهمية بحيث جعله الرسول ﷺ مناط التمييز بين العربى وغيره ، فقال تلك الكلمات العميقة الملهمة « من تكلم بالعربية فهو عربى » ، وكان من توفيق الله أن نزول القرآن بلسان عربى مبين ، قد حفظ على اللغة العربية وحدتها وثباتها ، فلم تتشعب إلى لغات كما حدث للغة اللاتينية ، أو اللغة اليونانية ، وبقيت إذن اللغة العربية مصدر تقريب وتفاهم وأخوة بين الناطقين بها .

ومن أجل ذلك فإن كل دعوة للعامية ، إنما هى دعوة للتفرق والتفكك والانفصال ، وهى إذن دعوة خبيثة يجب أن تقاوم كما يقاوم الميكروب الخبيث .

يجب علينا أن نتنبه لكل مؤامرات الصهيونية التى تحيكها من أجل إيجاد التفرقة فى الوحدة العربية ، وأن نتمسك بالأمر الإلهى الكريم .

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (١) .

٤ - ومن مؤامراتهم للقضاء على الإسلام :

إن أول من فكر فى جمع المشركين وتوحيد كلمتهم ضد الإسلام ، إنما هم اليهود ، فقد روى الزهرى ، وعبد الله بن كعب بن مالك وغيرهم : أن نفرا من اليهود من بنى النضير وغيرهم خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا لهم : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

وسأل المشركون اليهود قائلين : أديننا خير أم دين محمد ؟ فقال اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوا إليه من حرب رسول الله ﷺ، ثم سار اليهود حتى جاءوا إلى غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك .

وهكذا أخذوا يؤلبون الجزيرة العربية حتى كانت النتيجة غزوة الأحزاب التى رد الله فيها الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا .

---

(١) الأنفال : ٤٦ .

٥ - الرسول ﷺ ، ويهود بنى قينقاع :

جمعهم رسول الله ﷺ فى سوقهم بالمدينة ثم قال :

يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .

فقالوا : يا محمد إنك ترى أنا قومك ؟! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحروب فأصبت [1] منهم فرصة ، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

ونزل بمناسبة قولهم هذا ما أوحاه الله تعالى فى سورة آل عمران من قوله:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴾ [2] .

يعنى أصحاب بدر من أصحاب رسول الله ﷺ وقريش .

﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾ [3] .

وكان من أمرهم أيضا ، كما يذكر ابن إسحاق [4] : أنهم كانوا أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأحد . على أن الذى أثار حمية المسلمين هو ما ذكره عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبى عون ، قال : كان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ هناك منهم ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده ، إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فأغضب المسلمين ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

---

(١) يعنى غزوة بدر .
(٢) آل عمران : ١٢ .
(٣) سورة آل عمران : ١٣ .
(٤) السيرة النبوية لابن كثير .

فلما كان كل ذلك منهم - تحدى الرسول ، ونقض العهود ، والاعتداء على العرض - حاصرهم ، رسول الله ﷺ ، حتى نزلوا على حكمه ، فلما أمكن الله تعالى ، رسول الله ﷺ ، منهم قام إليه عبد الله بن أبى بن سلول المنافق الأكبر يشفع فيهم ويشير من طرف خفى إلى فتنة تحدث فى المدينة لو لم يشفعه رسول الله فيهم .

أما عبادة بن الصامت رضى الله عنه فقد اتخذ موقفا يناقض موقف عبد الله بن أبى بن سلول وخشى رسول الله ﷺ أن يجر الأمر إلى فتنة ، فقال لعبد الله بن أبى :

« هم لك » .

وانتهى الأمر بأن خرجوا من المدينة فلم يصبحوا شوكة فى ظهر المسلمين.

وفى عبد الله بن أبى لعنه الله ، وفى عبادة بن الصامت رضى الله عنه نزلت الآيات التالية من سورة المائدة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ۝٥٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۝٥٦ ﴾ (١) .

٦ - بنو النضير يتآمرون على قتل رسول الله ﷺ :

وغزوة بنى النضير التى أنزل الله تعالى فيها سورة الحشر .

---

(١) سورة المائدة ٥١ - ٥٦ .

وكان ابن عباس رضى الله عنه يسمى سورة الحشر - كما يقول البخارى فى صحيحه - سورة بنى النضير .

لقد كان بين بنى النضير وبين بنى عامر عهد وحلف ، وذهب رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر ، فلما أتاهم ﷺ قالوا :

نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا :

إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال :

أنا لذلك .

فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى ، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة .

فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلا المدينة .

فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به .

قال الواقدى : فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده .

فبعث إليهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام ويعدونهم النصر فقويت عند ذلك نفوسهم ، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ : أنهم لا يخرجون ، ونابذوه بنقض العهود .

فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم .

وحاصرهم المسلمون خمس عشرة ليلة .

وانتـهت المحـاصـرة بأن طلبـوا إلى رسـول الله ﷺ أن يجليـهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح .

وفيهم يقول الله تعالى فى سورة الحشر :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) ﴾ .

ويقول الله تعالى فيها مبينا موقف المنافقين منهم فى أسلوب لاذع عنيف :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١٢) لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٣) لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾

وتنتهى سورة الحشر بنصيحة سامية للمؤمنين من الله العزيز الحكيم ، وبأمر كريم من رب كريم ، وبوصف لله سبحانه وتعالى يتضمن الجمال والجلال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ

الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾

٧ - بنو قريظة :

نقض بنو قريظة اليهود عهدهم مع رسول الله ﷺ ، حينما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة ، وانضم بنو قريظة إلى الأحزاب ضد رسول الله ﷺ وقويت بهم شوكة الأحزاب ، وزاد الخطر بالنسبة للمسلمين زيادة قوية .

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فساءه وشق عليه وعلى المسلمين جدا ، فلما رد الله الذين كفروا بغيظهم . وضع الناس السلاح . فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة فى بيت أم سلمة رضى الله عنها إذا بجبريل عليه السلام تراءى له فقال :

أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟

قال ﷺ : « نعم » .

قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ، انهض إلى هؤلاء .

قال ﷺ : « من » ؟

قال عليه السلام : بنو قريظة .

فنهض رسول الله ﷺ ، من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة وكانت على أميال من المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال ﷺ :

« لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » .

يقول ابن كثير :

فسار الناس فأدركتهم الصلاة فى الطريق ، فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير، وقال آخرون: لا نصليها إلا فى بنى قريظة ، فلم يعنف واحدا من الفريقين، وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف

على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه ، وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضى الله عنه ، لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك كما فعل عبد الله ابن أبى بن سلول فى مواليه بنى قينقاع حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعدا رضى الله عنه ، كان قد أصابه سهم فى أكحله أيام الخندق فكواه رسول الله ﷺ فى أكحله وأنزله فى قبة المسجد ليعوده من قريب ، وقال سعد رضى الله عنه فيما دعا به : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة ، واستجاب الله تعالى دعاءه ، وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون ويقولون : يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم ، ويرققونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم ، فلما أكثروا عليه ، قال رضى الله عنه : لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم ، فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله ﷺ ، قال صلوات الله عليه وسلامه :

« قوموا إلى سيدكم » .

فقام إليه المسلمون ، فأنزلوه إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم .

فلما جلس قال له رسول الله ﷺ :

«إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت».

فقال رضى الله عنه : وحكمى عليهم نافذ ؟

قال ﷺ : « نعم » .

قال : وعلى من فى هذه الخيمة ؟

قال ﷺ : « نعم » .

قال رضى الله عنه : وعلى من هاهنا ؟ وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله ﷺ ، وهو معرض بوجهه عن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، إجلالا وإكراما وإعظاما ، فقال له رسول الله ، ﷺ : « نعم » .

فقال رضى الله عنه : إنى أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وأموالهم .

فقال له ﷺ : « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة » وفى رواية « لقد حكمت بحكم الملك » .

ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم ﴾ : أى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ « من أهل الكتاب » يعنى بنى قريظة من اليهود من بعض أسباط بنى إسرائيل ، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما طمعا فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[1] فعليهم لعنة الله. وقوله تعالى ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعنى حصونهم.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾[2] وهو الخوف لأنهم كانوا قد مالئوا المشركين على حرب النبى ﷺ ، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، وأخافوا المسلمين وراموا ليغزوهم فى الدنيا فانعكس عليهم الحال وانقلب إليهم المقال وانشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون ، فكما راموا العز ذلوا ، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة ، فصارت الجملة أن هذه هى الصفقة الخاسرة ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصغر ، والنساء .

٨ - غزوة خيبر :

«لئن كانت المدينة قد تطهرت من اليهود وغدرهم فهاهى خيبر[1] لا تزال حصنا حصينا لليهود من أهلها ومن نزح إليها من يهود بنى النضير الذين يحملون الحقد والضغن على الإسلام والمسلمين ، وغير بعيد عنا ما قام به زعماء بنى النضير الذين اتخذوا خيبر مقاما لهم من تأليب العرب على المسلمين فى الخندق

---

(١) البقرة : ٨٩ .　　　(٢) الأحزاب : ٢٦ .

(٣) قرية فى شمال المدينة بينها وبين الشام .

وحملهم بنى قريظة على نقض العهود التى كانت بينهم وبين الرسول، ومن ثم نجد أن خيبر أصبحت مركزا لتجمعات اليهود يقومون منها بما يريدون من غدر ومكايد، ولئن كان المسلمون بعد فتح الحديبية قد أمنوا قريشا والجنوب لكنهم لم يأمنوا ناحية الشمال ولا سيما أهل خيبر الذين لا ينسون ما فعل بإخوانهم اليهود، وليس ببعيد أن يستعين بهم هرقل أو كسرى فى النيل من المسلمين، وما كان رسول الله ﷺ وهو السياسى المحنك ليخفى عليه شىء من هذا، لذلك لم يكد يرجع من الحديبية ويستريح بالمدينة شهرا أو نحوه حتى أمر بالتجهيز للخروج إلى خيبر[1]» ا هـ .

وبقضاء الرسول ﷺ ، على يهود خيبر قضى على أخطر جرثومة من جراثيم الشر وعلى أكبر وكر من أوكار الخطر ، وانتهى أمر اليهود كقوة من القوى التى تعارض الإسلام فى الجزيرة العربية .

٩ - آيات من القرآن فى اليهود :

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[2] .

ويقول تعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[3] .

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ

---

(١) من كتاب السيرة لفضيلة الدكتور محمد أبو شهبة .

(٢) سورة المائدة : ٧٠ و ٧١ .

(٣) سورة المائدة : ٦٤ .

الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ... (٤٢) ﴾ (١) .

وقال تعالى :

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) ﴾ (٣) .

وقال تعالى :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ (٤) .

وحديث نبوى يبشر المسلمين :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر للمسلم : يا عبد الله هذا يهودى خلفى تعال فاقتله » (٥) .

---

(١) المائدة ٤١ ، ٤٢ .
(٢) آل عمران ١١١ و ١١٢ .
(٣) الاعراف ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٤) المائدة ٢٢ ، ٢٣ و ٢٤ .
(٥) أخرجه البخارى ومسلم .

الشهيــد

مكانة الشهيد عند الله :

إن مكانة الشهيد عند الله عظيمة جدا، تصورها الأحاديث والآيات القرآنية الكثيرة :

فمن ذلك أن حارثة بن سراقة كان قد استشهد فى غزوة بدر فأتت أمه - وهى بنت البراء - رسول الله ﷺ فقالت :

يا رسول الله ألا تحدثنى عن حارثة ؟ فإن كان فى الجنة صبرت وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء .

فقال ﷺ :

يا أم حارثة إنها جنان فى الجنة . وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى .

وروى الإمام مسلم والإمام البخارى عن أنس ، رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :

« ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد : يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة »

وفى رواية « لما يرى من فضل الشهادة » .

عن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنهما ، قال :

جىء بأبى إلى رسول الله ﷺ قد مثل به ، فوضع بين يديه فذهبت أكشف عن وجهه فنهانى قومى ، فسمعت صوت صائحة ، فقيل : ابنة عمرو - أو أخت عمرو - فقال - لم تبكى ؟ أو لا تبكى - ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها (1) .

« وروى مسلم عن جابر ، رضى الله عنه ، قال : قال رجل : أين أنا يا رسول الله إن قتلت ؟

قال ﷺ : « فى الجنة » فألقى بتمرات كن فى يده ، ثم قاتل حتى قتل .

---

(1) رواه البخارى ومسلم .

ويقول الله تعالى :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [1] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [2].

الشهيد سعيد باستشهاده :

يحدث ابن كثير أن رسول الله ﷺ لما رأى جابر بن عبد الله مهتما لاستشهاد أبيه في غزوة أحد قال له مطمئنا ومبشرا : « ألا أخبرك ما قال الله لأبيك ؟ فقال جابر : بلى :

قال ﷺ: « ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحًا » (والكفاح المواجهة) .

قال : سلني أعطك .

قال : أسألك أن أردَّ إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية .

فقال الرب عز وجل .

إنه قد سبق مني القول : بأنهم إليها لا يرجعون .

قال : أي رب فأبلغ من ورائي : (أي أبلغهم بهذه النعمة الكبرى في الجنة التي يتقلب فيها الشهيد) .

فأنزل الله تعالى :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [3] .

رواه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه بإسناد حسن أيضا والحاكم .

وقال صحيح الإسناد ، فالشهيد سعيد باستشهاده ، ويتمنى أن لو أعيد إلى الدنيا مرة أخرى ليكون شهيدا من جديد .

---

(١) من الآية ٧٤ من سورة النساء .

(٢) من الآية ١٥٤ من سورة البقرة . (٣) آل عمران : ١٧١ .

دعـــاء

كان رسول الله ﷺ يحكم أمر الجهاد من الناحية المادية إحكاما دقيقا ، ثم يأخذ هو والمحاربون فى الدعاء والتضرع ، واستنجاز الله وعده ، ونحن هنا نثبت بعض ما كان ﷺ يدعو به ويعلمه للصحابة ، فيدعون به قبل القتال وفى أثنائه .

ونحن فى هذا الفصل إنما نرجع إلى ما ذكره الإمام النووى من ذلك فى كتابه المبارك « الأذكار » .

قال الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ (١) .

قال العلماء : هذه الآية الكريمة أجمع شىء فى آداب القتال .

وروينا فى صحيح البخارى ومسلم عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ وهو فى قبته :

« اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك إن شئت لم تعبد بعد اليوم ».

فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده فقال : حسبك يا رسول الله ، فقد ألححت على ربك ، فخرج وهو يقول :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾(٢)

وفى رواية : كان ذلك يوم بدر ، هذا لفظ رواية البخارى ، وأما لفظ مسلم فقد استقبل نبى الله ﷺ القبلة ثم مد يده فجعل يهتف بربه ويقول :

« اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آتنى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض ».

فما زال يهتف بربه مادا يديه حتى سقط رداؤه .

قلت : يهتف - بفتح أوله وكسر ثالثه - ومعناه يرفع صوته بالدعاء .

---

(١) الأنفال : ٤٥ - ٤٧ .

(٢) القمر : ٤٥ - ٤٦ .

وروينا فى صحيحيهما عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو ، انتظر حتى مالت الشمس ، ثم قام فى الناس فقال :

« يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال :

« اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » .

وفى رواية : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزمهم وزلزلهم » .

وروينا فى صحيحيهما عن أنس رضى الله عنه ، قال : « صبح النبى ﷺ خيبر ، فلما رأوه قالوا : محمد والخميس ، فلجأوا إلى الحصن فرفع النبى ﷺ يده فقال : الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة القوم فساء صباح المنذرين . وروينا بالإسناد الصحيح فى سنن أبى داود عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « ثنتان لا تردان أو قلما تردان : الدعاء عند النداء ، وعند البأس ، حين يلحم بعضهم بعضا » .

قلت : فى بعض النسخ المعتمدة يلحم بالحاء ، وفى بعضها بالجيم وكلاهما ظاهر .

وروينا فى سنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا غزا قال :

« اللهم أنت عضدى ونصيرى بك أحول وبك أصول وبك أقاتل » .

قال الترمذى : حديث حسن .

قلت : معنى عضدى عونى .

قال الخطابى : معنى أحول أحتال . قال : وفيه وجه آخر ، وهو أن يكون معناه المنع والدفع من قولهم حال بين الشيئين إذا منع أحدهم الآخر ، فمعناه لا أمنع ولا أدفع إلا بك .

وروينا بالإسناد الصحيح فى سنن أبى داود والنسائى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : أن النبى ﷺ كان إذا خاف قوما قال :

« اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » .

وروينا فى كتاب ابن السنى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم حنين : « لا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم ، فإذا لقيتموهم فقولوا : « اللهم أنت ربنا وربهم ، وقلوبنا وقلوبهم بيدك ، وإنما يغلبهم أنت » .

وروينا فى الحديث الذى قدمناه عن كتاب ابن السنى عن أنس رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى غزوة فلقى العدو ، فسمعته يقول : « يا مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين » ، فلقد رأيت الرجال تصرع تضربها الملائكة من بين أيديها ومن خلفها .

وروى الإمام الشافعى رحمه الله فى الأم بإسناد مرسل عن النبى ﷺ قال : « اطلبوا استجابة الدعاء عند التقاء الجيوش ، وإقامة الصلاة ، ونزول الغيث » .

قلت : ويستحب استحبابا متأكدا أن يقرأ ما تيسر له من القرآن وأن يقول دعاء الكرب الذى قدمنا ذكره ، وأنه فى الصحيحين : لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » .

ويقول ما قدمناه هناك فى الحديث الآخر : لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم . لا إله إلا أنت عز جارك وجل ثناؤك .

ويقول ما قدمناه فى الحديث الآخر : حسبنا الله ونعم الوكيل .

ويقول لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، اعتصمنا بالله ، استعنا بالله ، توكلنا على الله .

ويقول : حصنتنا كلنا أجمعين بالحى القيوم الذى لا يموت أبدا ، ودفعت عنا السوء بلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ويقول : اللهم يا قديم الإحسان يا من إحسانه فوق كل إحسان يا مالك الدنيا والآخرة ، يا حى يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام يا من لا يعجزه شىء ولا يتعاظمه، انصرنا على أعدائنا ، هؤلاء وغيرهم وأظهرنا عليهم فى عافية وسلامة عامة عاجلا .

فكل هذه المذكورات جاء فيها حث أكيد ، وهى مجربة .

وذلك هو الفوز العظيم

ولقد صور الله سبحانه ، الجهاد فى سبيل الحق والعدل ، أى الجهاد فى سبيل الله بأنه تجارة رابحة مع الله سبحانه فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ (١) .

يشرح صاحب الكشاف هذه الآية الكريمة ، فيقول :

ولا ترى ترغيبا فى الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية .

لأنه أبرزه فى صورة عقد عاقده رب العزة .

وثمنه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط ، بل إذا كانوا قاتلين أيضا لإعلاء كلمته ونصر دينه .

وجعله مسجلا فى الكتب السماوية وناهيك به من صدقه .

وجعل وعده حقا ، ولا أحد أوفى من وعده ، فنسيئه أقوى من نقد غيره .

وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم ، وهو استعارة تمثيلية ، صور جهاد المؤمنين وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابة الله لهم على ذلك الجنة بالبيع والشراء .

وأتى بقوله (يقاتلون ....) إلخ بيانا لمكان التسليم وهو المعركة ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « الجنة تحت ظلال السيوف » (١) .

ثم أمضاه بقوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

هذا وبالله التوفيق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله أولا وآخرا .

---

(١) الصف : ١٠ - ١٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٥٦ الجهاد ، ٢٢ - باب الجنة تحت بارقة السيوف .

خاتمتان :

- الاجتهاد والثبات فى الشريعة

- الدين والحضارة

الاجتهاد والثبات فى الشريعة الإسلامية [1]

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

أيها الإخوة المؤمنون ، منذ زمن بعيد وأنا أتمنى أن ألقى هذا الموضوع فى أحد النوادى الخاصة بالقضاء ثم أتيحت هذه الفرصة فكنت سعيدا بها ولكننى بعد أن ذكرت العنوان أقول لكم بصراحة ترددت كثيرا وخيل إلى أنها مغامرة ولكن هذا التردد زال عندما فكرت فى بعض الأمور .

فكرت أولا فى أنى مهما كانت محاضرتى مغامرة فما هى نتيجتها : سأفترض أن الذى يوافقنى على الرأى واحد أو اثنان يكفينى هذا ، لست طموحا إلى أكثر من ذلك ، يكفينى أن أجتذب من هذا المجتمع الكريم شخصا أو شخصين إلى هذا الفكر .

أما المنطلق الثانى الذى بعث فى نفسى الهدوء التام فهو أننى أبتدئ بقضية مسلَّمة عند الجميع لا يشك فيها مؤمن ولا يرتاب فيها مسلم .

القضية هى أن الدين نزل هاديا للعقل ، إننا جميعا نؤمن بهذه القضية . الدين نزل هاديا للعقل . لكن حينما نقول الدين نزل هاديا للعقل يتساءل كثير من الناس: فى أى المجالات؟ ونحن لا نريد أن نقول نزل هاديا للعقل فى مجال الماديات، فالدين أطلق للعقل الحرية الكاملة فيما يتعلق بالبحث والكشف فى مجال الماديات، فى السماء وفى الأرض . وقيده ، فقط ، بأن يكون ذلك فى خير الإنسانية ، أنه

---

(١) محاضرة ألقيت بنادى محامى الحكومة يوم السبت الموافق ٢٣ نوفمبر ١٩٧٤ .

ما دام الأمر فيما يتعلق بمجال الماديات ، والبحث فيها والكشف فيها فى خير الإنسانية فللعقل الحرية الكاملة فى هذا ، بل إن أسلافنا رضوان الله عليهم كانوا يسمون هذه العلوم المادية : الطبيعة والكيمياء والفلك ، والأحياء ، كانوا يسمونها : علوم الكشف عن سنن الله الكونية . وما دامت كشفا عن سنن الله الكونية فهى كشف عن بعض صفات الله سبحانه وتعالى ، وما دام الأمر كذلك فهى عبادة . من هذا الجانب العلم بالماديات ، الكشف عن سنن الله الكونية فى الماديات : زيادة إيضاح لصفات الله تعالى فهو عبادة . لكن الأمر فيما يتعلق بـ « نزل الدين هاديا للعقل » إنما هو فى أمور المجتمع ومجالاته ، العقيدة نزل الدين هاديا فيها ، الأخلاق نزل الدين هاديا فيها ، نظام المجتمع نزل الدين هاديا فيه ، التشريع أيضا نزل الدين هاديا فيه .

هذه الهداية فيما يتعلق بالتشريع أحيانا تكون مفصلة تفصيلا دقيقا كالميراث مثلا وككتابة الدين وأحيانا تكون كليات تضم تحتها جزئيات كثيرة . ولا ريب فى أنه نزل الدين هاديا للعقل فى جميع مبادئ التشريع ، لكن فى وسائل التشريع أحيانا يكون الدين مفصلا لها ، إن وسائل المبادئ ، أحيانا يكون الدين مفصلا لها وأحيانا يتركها للعقل الإنسانى يتصرف فيها بحسب الظروف . مثلا الشورى : مبدأ من المبادئ التى أقرها الإسلام ، وسيلة الشورى تركها الإسلام للعقل الإنسانى يحددها بحسب ظروفه وبحسب أمكنته وأزمنته . أما المبدأ : الشورى فهو مبدأ لا يتغير .

وحينما نقول نزل الدين هاديا للعقل فإنما نعنى بذلك أن العقل لا يتحكم فى الدين إنما يهتدى به .

ومعنى أيضا نزل الدين هاديا للعقل : أن العقل يفهمه ، ويتقبله ، ولا يتعارض مع العقل ، ولا يتناقض مع العقل ، لأنه نزل هاديا له .

ولأنه نزل هاديا له ، ولأننا نؤمن بأن الدين من قبل الله سبحانه وتعالى ، فهناك القضية التى تتلو ذلك وهى أن هذه الهداية معصومة : لأنها من قبل الله ، ومادامت معصومة لأنها من قبل الله فلابد من اتباعها ، لا مناص من اتباعها .

من أجل ذلك كانت الآيات التى تدل على وجوب الاتباع فى غاية الصرامة ، أو فى غاية القوة .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

ويقول ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣) .

ويقول أيضا ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٤) .

هذه الصرامة لماذا ؟

لماذا هذا التحديد وهذه الدقة فيما يتعلق بضرورة وجوب اتباع هذه المبادئ التى نزلت من السماء ؟

أما عن ضرورة ذلك فإن كل من درس تاريخ الفكر البشري منذ أن كتب هذا الفكر فى الأزمنة القديمة إلى الآن ، كل من درسه تتبين له قضية فى غاية السهولة ، هذه القضية التى فى غاية السهولة هى أن هذا الفكر البشرى على تتابع الأزمنة ، بل فى الزمن الواحد ، وفى العصرالواحد ، وفي القرن الواحد ، وفى الأمة الواحدة، هذا الفكر البشرى متعارض ، متضارب ، متناقض ، مختلف .

أين هو الحق فيما يتعلق بهذا التضارب ، وهذا التعارض وهذا الاختلاف : الاختلاف والتعارض والتضارب فى جميع المجالات الفكرية البحتة ؟

لسنا بصدد المجالات المادية ، لأن المجالات المادية تحكمها التجرية، فالتجربة فيصل ، ولكننا بصدد المجالات النظرية : التشريع ، الأخلاق ، العقيدة ، نظام المجتمع .

أين هو الحق وأين هو الباطل فى الآراء البشرية الخاصة بهذه الموضوعات؟.

ليس هناك مقياس للحق وللباطل ، كل المقاييس التى حاولت الإنسانية أن تخترعها منذ الأزمنة القديمة ، كل هذه المقاييس أثبتت فشلها وبطلانها .

من أوائل هذه المقاييس مثلا الفصل بين الحق والباطل ، فيما يتعلق بالآراء

---

(١) المائدة : ٤٥ .
(٢) المائدة : ٤٧ .
(٣) المائدة : ٤٤ .
(٤) النساء : ٦٥ .

النظرية ومنها التشريع بطبيعة الحال ، من أوائل هذه المقاييس منطق أرسطو ، لقد أخفق إخفاقا كاملا فى تمييز الحق عن الباطل .

ومنها مقياس ديكارت ، إنه أخفق إخفاقا كاملا أيضا فيما يتعلق بالتمييز بين الحق والباطل ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ما دام لا سبيل إلى القطع بأن هذا الرأى حق وهذا الرأى باطل كان هناك المجال المتسع الكبير لتزييف الآراء. تزييف الآراء أو صناعة الآراء.

وفى علم الاجتماع وفى علم النفس كثير من المباحث التى تتحدث عن صناعة الرأى العام .

الرأى العام يصنع عن طريق الصحف ، ويصنع عن طريق الإذاعة ، ويصنع عن طريق التكرار . يصنع بوسائل مختلفة ، ويصنع تزييفا أو إحقاقا . الرأى العام يصنع . وما دام الرأى العام يصنع فهناك هذه الوسائل التى تصنع الرأى العام .

هذه الوسائل التى تصنع الرأى العام هناك كثير من الناس استخدموها ، ولكن الذين استخدموها فى قوة هم اليهود : استخدموا صناعة الرأى العام فى قوة بالنسبة لأغراضهم ، وهم يقولون مثلا فى تكييفهم الرأى العام بالنسبة لشخصيات معينة : « نحن الذين رتبنا نجاح كارل ماركس » يقولون هذا فى كتبهم ، ويقولون هذا فى كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ، لقد رتبوا نجاحه ونجاح آخرين ؟ لماذا رتبوا نجاحهم ؟ لأنه هدم لكل الأفكار الروحية ، وهم يريدون ألا تسود الأفكار الروحية فى الإنسانية .

ويقولون أيضا فى البروتوكولات : نحن الذين رتبنا نجاح دارون صاحب نظرية التطور ، ونحن الذين رتبنا نجاح نيتشه صاحب نظرية الأخلاق : إنه يرى أن ليس هناك فضيلة ، ولا شجاعة أو عفة أو كرم أو ما شاكل ذلك ، كل هذه ألفاظ اخترعتها الإنسانية من أجل حماية الضعفاء فقط ، وليس الأمر أكثر من ذلك ، أو اخترعها الضعفاء وتشبثوا بها من أجل حماية أنفسهم » .

أراد اليهود أن تسود هذه الفكرة فى العالم لتتحلل الأخلاق ، ولينتهوا من تحلل الأخلاق إلى السيادة فى العالم .

نعود فنقول : « هناك صناعة الآراء » ما هو المقياس الذى نفصل به بين الحق والباطل ؟.

ليس هناك هذا المقياس . ولقد حاول - فى مواجهة الوحى الإلهى وفى مواجهة التشريع الإلهى - حاول بعض الناس عمل نظم اجتماعية : حاول مثلا افلاطون أن يكونٌ جمهورية على ما ينبغى بأدق ما يمكن أن يكون من تفكير فلسفى ، وألف أفلاطون جمهوريته : كتبها ، ونسقها ، ودرسها ، وعقد فيها ندوات كثيرة . ودعا أفلاطون لتحقيق جمهوريته فى جمهورية صغيرة ، وذهب أفلاطون إلى هذه الجمهورية ، وقيل له : إنك مفوض تفويضا مطلقا فى تحقيق جمهوريتك، وحاول أفلاطون أن يحقق جمهوريته ، فأخفق إخفاقا كاملا وبعد ٢٠ سنة ، بعد فترة من النضج دعا مرة أخرى ليحقق جمهوريته مرة أخرى ، بعد التجربة ، وبعد هذا الإخفاق الذى ناله ، وبعد أن اكتسب معرفة وخبرة ، فأخفق إخفاقا كاملا مرة أخرى .. أما الإسلام فقد طبق . طبق فى جمهورية ، أو فى دولة ، أو فى أمة ، إن هذه الألفاظ ، اللفظ المستعمل فيها إسلاميا هو كلمة أمة .

إن هذه أمتكم أمة واحدة :

طبق الإسلام فى أمة وانتهى هذا التطبيق بأن انتقل الإسلام من النظرية إلى الواقع . لقد أصبح واقعا وأصبح واقعا فى أمة تمتد من كذا إلى كذا : لا تكاد تغرب الشمس عنها . طبق بالفعل ، وانتقل من النظرية إلى الواقع . لكن كل الآراء التى قيلت فيما يتعلق بالأنظمة التى اخترعت ، وابتدعتها البشرية كلها ، عرضت وأخفقت وعليها النقد ، وتتعارض مع بعضها البعض.

ولتوضيح ذلك نقول : النظام الرأسمالى اختراع بشرى فى أمريكا يتعارض تعارضا كاملا مع النظام الشيوعى الذى هو اختراع بشرى فيما يتعلق بروسيا ، ولكن أى هذين النظامين حق ، لا سبيل مطلقا إلى تثبت أن هذا أحق من هذا نظريا بالدليل والبرهان ، وكل ما يقام من أدلة أو براهين فى أمريكا تنقده روسيا ، وكل ما يقام من أدلة أو براهين فى روسيا تنقده أمريكا .

إذن من هنا كانت الصرامة فيما يتعلق بالدعوة إلى اتخاذ الإسلام أساسا ، ومن هنا كانت هذه الآيات التى تتحدث عمن لا يحكم بما أنزل الله ، بالظلم مرة ، وبالفسق مرة ، وبالكفر مرة ثالثة .

ونزل الدين كما قلنا هداية للعقل ، هذه الهداية للعقل ليست قاصرة على زمن دون زمن ، ولا على مكان دون مكان .

إنها فى الوضع الدينى الإلهى لكل المؤمنين تتبلور فى قضية تتحدث عنها فى كل وقت وفى كل آن ، هذه القضية هى أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وهذا هو منطق الدين . وخصوصا حينما يكون هذا الدين هو آخر الأديان بإعلانه سبحانه وتعالى عن ذلك .

هى إذن صالحة لكل زمان ومكان . هذه الكلمة أو هذه القضية « صالحة لكل زمان ومكان » إذا كانت فى معناها السطحى أو الشكلى أو معناها اللغوى واضحة ، فإن بعض الناس قد اتخذها أساسا لتفسير منحرف كل الانحراف . من هؤلاء مثلا من قال إنها صالحة لكل زمان ومكان لأنها تتكيف بحسب الزمان والمكان ، ثم انتقل نقلة أخرى فقال : إنها صالحة لكل زمان ومكان لأننا نكيفها بحسب الزمان والمكان .

كيف يكون التكييف ؟

قال بعضهم – وعمل على ذلك جاهدا – نحن الآن فى بعض الأقطار نعمل فى بناء الدولة . وبناء الدولة جهاد أكبر ، وإذا كان الجهاد الأصغر يبيح الإفطار فى رمضان فالجهاد الأكبر وهو بناء الدولة من باب أولى يبيح الإفطار فى رمضان .

وحاول أن يطبق الإفطار فى رمضان على الدولة فأخفق وأخفق ، لأن الناس كان شعورهم إيمانيا دينيا ، فلم ينصاعوا . ولكنه حاول وبذل وجند الشرطة وجند البوليس وجند كل شىء فيما يتعلق بتطبيق الإفطار فى رمضان فكان يقدم مثلا للمدارس الداخلية وللجامعات والجيش ونحوها الوجبات العادية فى شهر رمضان بدلا من الإفطار والسحور ، ولكنه فى النهاية رغم كل ما بذله من جهد أخفق .

ونعود فنقول ، نكيفها بحسب الزمان والمكان ، كيف ؟ نمنع تعدد الزوجات ؟

منع تعدد الزوجات ، وحصلت حادثة أمام سمعه وبصره ، حصلت حادثة : هذه الحادثة أن شخصا من الأشخاص متزوج وعنده أولاد من زوجته ، ثم أصبحت زوجته فى وضع غير صالح لاستمرار الزوجية من الناحية الجنسية ، فكان هو بين أمرين إما أن يزنى ، وإما أن يتزوج ، والتعدد ممنوع . فماذا يصنع ؟ امرأته القديمة لم تزن . ليست مسئولة عما حدث لها . هذا قضاء الله بالنسبة لها . فما ذنبها لتطلق ، ولم يطلقها ؟ إنها لم تسئ إليه ... ولم يطلق . وإنما ذهب وعقد عقدا شرعيا على امرأة وتزوجها بحسب الشرع وأسكنها فى مسكن . وكان يذهب

إليها ويبيت عندها . وبلغ عنه أنه تزوج امرأة أخرى ، والقانون فى هذه الناحية لا يتساهل، وذهبت الشرطة وضبطوه متلبسا بالجريمة ، جريمة الزواج بامرأة أخرى، وأتى به للتحقيق ، وقالوا له : هل تزوجت امرأة أخرى ؟ فقال : كلا .. فقيل : له.. ولكنك كنت عندها ..

قال : نعم ...

وتنفق عليها ...

نعم :

وقد استأجرت لها هذا المسكن ..

نعم ...

وتبيت عندها ...

وأبيت عندها ...

ماذا تكون إذن ؟ إنها عشيقة ..

فقيل له : تفضل اذهب لا ملام عليك ، لا لوم عليك ..

حرموها زوجة ، وأباحوها عشيقة بقانونهم .

حدث هذا بالفعل والتحقيق ، تحقيق البوليس .. ويأتى أيضا فيما يتعلق بالتعدد أن « أتيين دينييه » مستشرق فرنساوى كان قد ذهب إلى الجزائر فى عهد الفرنسيين ، وهو فرنساوى ، وأقام فى الجزائر فى بلدة اسمها بوسعادة ، استراح إلى الجو ، واستراح إلى الناس ، واستراح إلى الخلق .. وكلها أغرته : الجو ، الطبيعة ، الصحراء ، الناس ، كلها أغرته بأن يقيم فى الجزائر فأقام . أقام فى عهدين : عهد كان فيه التعدد مسموحا به ، وعهد حدث فيه عدم التعدد ، أو الدعوة إلى عدم التعدد ، أو الإقلال من التعدد .

وبعد ذلك لاحظ ثلاث ملاحظات كتبها باللغة الفرنسية فى أحد الكتب . كتب يقول : حينما منع التعدد والطلاق وجدت ظواهر لم تكن موجودة أيام كانت إباحة التعدد والطلاق .

ما هى هذه الظواهر ؟ هذه الظواهر التى وجدت عندما منع ذلك :

أولا : كثرة العوانس ، هذا أمر .

الأمر الثانى : كثرة اللقطاء .

الأمر الثالث : كثرة الأمراض السرية .

هذه المسائل الثلاث حدثت بعد أن منع التعدد ، وبعد أن منع الطلاق ، وليس معنى إباحة التعدد أنه مفروض . وليس معنى ذلك أنه لابد من التعدد ..

كلا . وأنتم تعلمون أنه مع إباحة التعدد الآن فى القاهرة يمكن نصف فى الألف هم الذين يعددون الزوجات ، وإذا ارتفعت عن أكثر من الاثنين يمكن أن تجد ربعًا فى الألف ، وهكذا ، الأمر يعنى يكاد يكون التعدد مع إباحته معدوما .

ولكن من الوجهة النظرية ، لو فرضنا أن شخصا من الأشخاص إما أن يتزوج وإما أن يزنى فيباح له أن يتزوج . هذا رأى الكاتب الفرنساوى الذى يقول ويشاهد بالتعداد وبالتجربة ماذا حدث وماذا كان . لكن نتساءل الآن ما هو إذن المعنى الصحيح للقضية : « الشريعة صالحة لكل زمان ومكان » ؟ إن الشريعة أنزلت للإنسان من حيث هو إنسان ، لا للإنسان من حيث هو مصرى ، أو من حيث هو فرنسى ، أو من حيث هو كذا أو كذا .. فيما يتعلق بالوطن .

إنها أنزلت للإنسان من حيث هو إنسان . وما دامت قد أنزلت للإنسان من حيث هو إنسان فإنها صالحة لكل زمان ومكان ، لا تتغير ، لأن الإنسان هو هو أينما كان . الإنسان هو الإنسان : فى عواطفه ، وفى انفعالاته ، وفى سلوكه ، فى تصرفه وفى عقله ، فى ذكائه ، فى إحساسه . وأنزلت الشريعة إذن للإنسان من حيث هو إنسان فهى إذن صالحة لكل زمان ومكان . صالحة مبادئ ، وصالحة وسائل ، إلا إذا حددت ، وكل خروج عليها إنما يكون انحرافا .

لكن ماذا حدث عندنا نحن فى مصر ؟ الذى حدث عندنا نحن فى مصر أننا كنا نطبق نظام الشريعة الإسلامية ، ثم جاء الاستعمار ونسف الشريعة الإسلامية من القطر المصرى ، وأحل محلها القانون الوضعى ، واستقدموا قضاة ومستشارين من الأقطار العربية . ثم كان أن وجد أن هذا النظام لا يتأتى أن يستمر كثيرا ، فأنشأ مدرسة الحقوق ، وكانت تسمى مدرسة قبل أن تكون كلية ، فأنشأ مدرسة الحقوق لتخريج قضاة أو محامين أو مستشارين إلى آخره ليحكموا بالقانون الوضعى ، وكان لابد أن يكون المنهج والبرنامج هو القانون الوضعى .. وأزال الاستعمار، وحاولنا أن نتخلص من كل آثار الاستعمار . ولكننا ألفنا كليات الحقوق، وألفنا مدرسة الحقوق ، فخيل إلينا أن الأمر عادى . ولكن الأمر فى حقيقته ليس

بعادى ، إنه فى غاية الغرابة أن نقيم نحن ، فى بلدنا ، فى قطرنا كليات للغزو الفكرى لتتابع آثار الاستعمار ، ننفق عليها ، ونربى فيها أبناءنا ، ونضع أبناءنا فى جو : ليغزوهم هذا الجو فكريا وليكونوا أوربيين أكثر منهم مسلمين ، أو أكثر منهم وطنيين ، لأن الوطنية تقتضى أيضا أن نتخلص من الغزو الفكرى ومن آثار الاستعمار . ولكننا ألفنا الأمر . ذهبت إلى كلية حقوق عين شمس لإلقاء محاضرة وسألت كم عدد المحاضرات فى الكلية فى الأسبوع ؟ فقيل ٢٢ محاضرة .

كم منها للشريعة الإسلامية ؟ درسان فى الأسبوع ، وعشرون درسا للقوانين الوضعية .

لو كانت هذه الكلية فى فرنسا ما كانت تزيد على ذلك ، أو لو كانت فى إنجلترا ما كانت تزيد على ذلك .

وأحب أن أقول : إنه لو كانت فى إسرائيل أيضا ما كانت تزيد على ذلك .

محاضرتان للشريعة الإسلامية فى بلد إسلامى ، فى وطن إسلامى ، محاضرتان فقط فى مقابل ٢٠ محاضرة لاستمرار الاستعمار ، أو لاستمرار آثار الاستعمار ، أو للغزو الفكرى فيما يتعلق بالاستعمار .

هذا لا يتأتى أن يستمر طويلا ، ولكننا لأننا ألفنا ، ولأننا لم نفكر فى الوضع ، ولأننا ألفناه كما ألف ناس التعارض والتناقض الفكرى ، ولكنهم ألفوه ، واستمروا عليه ، ولم يفكر فيه أحد .

من أجل ذلك كانت الأمانة الآن موضوعة فى أعناقكم أنتم . إننى تحدثت عنها ، ولكن الحديث عنها كان فى مجالات ربما لا تتصل كثيرا بمجالات القانون ، ولكن مجالات القانون حينما نفكر فى الأمر ، وحينما نتبصر فى هذا الموضوع فإنه تصبح مسئوليتنا كبيرة ، خصوصا حينما نقرأ - ونحن من المؤمنين - ومن غير ما شك هنا مجموعة كبيرة إن لم يكن الكل من الصالحين المؤمنين .

وكيف يتأتى أن يسكت الصالحون المؤمنون وهم يسمعون :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك - يحكموك فى حياتك ، ويحكموك بعد مماتك بسنتك - حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم ، فى صدورهم فى قلوبهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما .

يسلموا تسليما بحكم الله ، بتشريع الله .

تقول : أين القانون الذى « نحكم به ؟ » وهذا سؤال من أسخف الأسئلة. كيف وأنت مسلم وتتحدث اللغة العربية تقول : أين القانون ؟ القانون أمامك فى الكتب موجود . فى كتب الفقه وكتب التشريع الإسلامى .

هل يتأتى أن يكون شخص تخصص فى التشريع ثم لا يفهم كتابا فى التشريع باللغة العربية ، ليس بلغة لاتينية ولا أعجمية أو شىء من هذا القبيل، إنما هو باللغة العربية ، ليس فى ذلك حجة ، ليس فى ذلك مطلقا أى مستند للتقاعس عن تطبيق التشريع الإسلامى .

ومع ذلك ، فهناك هذه المقومات الكثيرة التى كتبت فيما يتعلق بالموضوع والتى تيسر كثيرا فيما يتعلق بالموضوع . وأحب أن أقول : إن مجمع البحوث الإسلامية قنن القانون المدنى كله على مذاهب مختلفة وقننه وكان فى لجانه المختلفة مستشارون من القانونيين ، وفيه علماء وفقهاء فى كل مذهب من المذاهب، وهو الآن بصدد تقنين القانون الجنائى ، لكن ذلك أنا أعتقد أنه عمل ما كان ينبغى أن يكون مع أنى أنا شخصيا الذى بدأت به والذي شرعت فيه . لكن الآن ما كان ينبغى أن يكون لأنه ما دامت كتب التشريع باللغة العربية ، وما دامت هى فى التشريع ، وما دامت فيها الفصول والأبواب والفقرات ، فعلماء التشريع ، المشرعون، المستشارون ، القضاة من السهل عليهم جدا أن يستخرجوها من هذه الكتب التى باللغة العربية .

نعود فنقول : إن الدين نزل هداية للعقل .

نعود فنقول : إن الآيات فيما يتعلق بهذا الموضوع صارمة .

قد يتساءل إنسان : ما هو موقع الاجتهاد فيما يتعلق بهذا الموضوع ؟ أليس الاجتهاد فتحا لباب التصرف عقليا فيما يتعلق بالتشريع ؟ وعن هذه النقطة أتحدث الآن .

أولا : فيما يتعلق بالاجتهاد هناك فكرة - فى الواقع - خاطئة عند الكثيرين حتى عند كبار المثقفين ، إن الاجتهاد إما أن يكون فى أمر سبق فى عهد

الرسول ﷺ وإما أن يكون فى أمر استحدث من بعده ، حدث فى العصر الحاضر .

ومعنى الاجتهاد أن الأمور التى كانت فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ينبغى أن يبذل الإنسان جهده وطاقته فى البحث ليصل عن طريق المراجع والكتب والسيرة والتاريخ والأحاديث النبوية وتفاسير القرآن إلى ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام. ليس فى ذلك ابتداع ، ولا اختراع ولا تصرف عقلى، ولا شىء من هذا القبيل وإنما هو يبحث ليصل إلى الحقيقة .

ومعنى الحقيقة عنده فيما بحثه أن يصل إلى ما كان عليه الرسول ﷺ ، فإذا ما وصل إلى ما كان عليه الرسول ﷺ ، فقد انتهى البحث ، وسلم الأمر .

أما الاجتهاد فيما يتعلق بالمسائل التى ما كانت فى عهد الرسول وإنما حدثت فى العصر الحاضر فليس معناه مطلقا ابتداعا أو اختراعا أيضا ، وإنما معناه بذل الجهد لوضع هذا النمط الحديث أو المشكلة الحديثة أو المسألة الحديثة ، وضعها تحت قاعدة كلية من القواعد القرآنية أو النبوية تحريما أو تحليلا .

يعنى مثلا مسألة الحشيش . لم يكن موجودا الحكم فيه . والمجتهد فيما يتعلق بأمر الحشيش يبذل جهده ليضع الحشيش تحت قاعدة كلية من قواعد الدين : إما تحريما وإما تحليلا . لأنه فى المبدأ لا يدرى إن كان هذا الأمر محرما أو حلالا . فيبذل جهده ليضع هذا الأمر تحت قاعدة كلية .

البيرة مثلا لم تكن موجودة وكل هذه الأنواع من الخمور ، ويسكى وغيره لم يكن موجودا ، ما هو موقف المجتهد فيما يتعلق بالحكم فى هذه المسألة أو تلك ؟

موقفه هو أن يبذل جهده ، مع التقوى ، مع الإخلاص ، مع النزاهة الكاملة ، يبذل جهده مع عدم التحيز ، يبذل جهده ليضع هذه المسألة أو تلك تحت القاعدة الكلية المحرمة أو المحللة ، فإذا أدى به اجتهاده إلى أنها توضع فى قاعدة كلية تحرم يصبح الحكم حراما . وإذا أدى به اجتهاده ، مع الإخلاص ، مع التقوى ، مع النزاهة ، إلى أن هذه المسألة تدخل فى قضية محللة تدخل تحت التحليل أو الحل، هذا هو الاجتهاد .

ولكن هذا الاجتهاد أيضا له مقدمات . وله وسائل ، هذه المقدمات بديهية ، ليس فيها شىء من التعقيد : معرفة اللغة العربية : إن من أوائل الشروط فيما يتعلق بالمجتهد معرفة اللغة العربية معرفة تمكنه أو تصل به إلى مستوى فهم القرآن ، فهم القرآن العربى المبين .

معرفة الأحاديث النبوية : ولابد من معرفة الأحاديث من الإلمام بالأحاديث إلماما يجعله على معرفة فيما يتعلق بجو الأحاديث النبوية . لأنه يجوز أن يفتى ويكون هناك حديث من الأحاديث معارض أو مخالف لفتواه .

معرفة السيرة النبوية لمعرفة الواقع الذى كان عليه الرسول ﷺ ، ومادام الدين قد طبق عمليا ، طبق فى فترة طويلة من الزمن . طبقه الرسول ﷺ . وطبقه الصحابة رضوان الله عليهم فى عهد الخلفاء الراشدين ، وتحدث عنه الصحابة ، وتحدث عنه الرسول : مادام قد طبق . فإننا إذا اختلفنا فى أمر من الأمور لا نلجأ إلا إلى التطبيق .

ما هو الواقع الذى كان فى عهد الرسول ﷺ ؟ ماذا كان ؟.

النتيجة التى أريد أن أنتهى إليها وبها تكون الخاتمة : ما هو الموقف ؟

الموقف لخصه أحد الصحابة فى كلمة تشبه أن تكون إعجازا ، يقول : « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » فقد كفيتم ، هذا برهان كامل على اتبعوا ، وهى أيضا برهان كامل على ولا تبتدعوا . اتبعوا فقد كفيتم ، ولا تبتدعوا فقد كفيتم . لأن من يبتدع إنما هو الشخص الذى لا يكون عنده الكفاية ، ونحن عندنا الكفاية منذ « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ».

عندنا الكفاية ، إذن الخاتمة أو النتيجة التى نحب أن ننتهى إليها هى : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم .

إذا اتبعنا ولم نبتدع ما هى النتيجة ؟

النتيجة هى ما تحدث الله سبحانه وتعالى عنه وضمنه لمن اتبع شريعته : ضمن له السعادة فى الدنيا والآخرة ، وضمن له الفوز ، وضمن له النصر ، وضمن له سعة الرزق ، وضمن له كفالته وعنايته سبحانه ورعايته . ضمن له كل هذه النواحى ، ووعد الله سبحانه وتعالى لا يتخلف .

وأريد أن أختتم بكلمة حدثت فى هذه الأيام الأخيرة : حدث فى هذه الأيام الأخيرة أن وفدا من أوروبا ، من كبار علماء أوروبا : من فرنسا ، وفيه واحد من إيطاليا ، وواحد من إنجلترا ، وفدا على مستوى رفيع جدا ذهب إلى السعودية، ذهب بالفعل ، وقبل أن يذهب تكاتب وتراسل مع وزير العدل السعودى : وزير العدل السعودى رجل نابه ، متطور ، متفتح الأفق : تراسلوا معه ، واتفقوا على أن هذا الوفد الأوروبى يذهب إلى السعودية ليتحدث مع علماء السعودية فيما يتعلق

بحقوق الإنسان فى الإسلام ، وذهب الوفد والتقى بالوفد العربى : كان وزير العدل، وكان مستشار الملك معروف الدواليبى ، وكان محمد بن مبارك من سوريا ، وكان بعض علماء السعودية .. وأخذوا يتحدثون فيما يتعلق بحقوق الإنسان في الإسلام، وانبهر الوفد الأوربى ، وما كان متصورا مطلقا أن هذا الذى يقال هو حقوق الإنسان فى الإسلام . وصل الإسلام بحقوق الإنسان إلى ما لم تصل إليه أوربا ، فى نهاية الجلسة - الجلسة التى تعددت طبعا عدة مرات ، وفى نهاية الأبحاث سأل الوفد الأوربى : ولكن ماذا عن قطع يد السارق ؟ وأجاب معروف الدواليبى الذى كان رئيس الوزارة سابقا فى سوريا وهو الآن مستشار جلالة الملك فيصل وكانوا فى الرياض . قال له : انظر إلى الصحراء ، يمكن إذا اتجهت فى الوسط ، إذا كنت فى الوسط واتجهت يمينا تجد ألف كيلو متر ، ويسارا ألف كيلو متر ، وأمامك ألف كيلو متر ، وخلفك ألف كيلو متر ، وتصور أن سيارة قامت من الرياض وهذه السيارة محملة بالذهب والفضة ، قامت من الرياض لتذهب إلى مكان على بعد ٢٠ كيلو متر . لا يتأتى مطلقا أن يتعرض لها متعرض فى هذه الصحراء التى لا بلدة فيها ولا شرطة ولا حرس ولا بوليس ولا شيء من هذا القبيل ، فى هذه الصحراء الشاسعة تقوم سيارة محملة بالذهب وبالفضة لتذهب من الرياض إلى هذه المدينة الأخرى لا يتعرض لها متعرض ، لماذا ؟ لأننا نطبق الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بقطع يد السارق . لكن انظر الآن إلى بلد مثل نيويورك التى يقولون عنها أنها وصلت قمة الحضارة ، كم فيها من القتلى فى ساعة واحدة من أجل السرقة ؟ وكم فيها من القتلى فى اليوم الواحد ؟ فى أربع وعشرين ساعة بسبب السرقة قتلى وجرحى، وقطع أكباد ، وقطع أمعاء بالسكاكين، وضرب بالنار وبكل شيء. فى أربع وعشرين ساعة. ثم تعال إلى المملكة العربية السعودية بأكملها كم قطعنا من يد فيها فى مدة ٢٠ سنة .

قطعنا أيديا تعد على أصابع اليد الواحدة ، وتقول بعد ذلك أن الإسلام قاس فيما يتعلق بقطع يد السارق ، هناك القتل والذبح والسحل وكل ما يتأتى أن يكون من أجل السرقة ، وهنا لا شيء . قطع يد سارق أو عدد من السارقين فى مدى ٢٠ سنة ، وأجمع الوفد الأوروبى أن هذا أحكم نظام فيما يتعلق بمنع السرقة وقالوا : لو طبقناه لكان الأمن على كل حال . وفى نهاية كلمتى أقول كما قلت فى المبدأ : لو كان هناك شخص أو اثنان أو ثلاثة يوافقوننى على الفكرة فأنا أعتبر أن المحاضرة قد نجحت ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الـــدين والحضــارة

الحـمـد لله رب العـالمين ، والصــلاة والسـلام على سـيـدنا مـحـمـد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فإننا حقيقة لسعداء فى هذه الليلة المباركة ، بهذا الاتفاق الذى انتهى به جهاد الجزائر .

ونحن سعداء أيضا بحضور السيد الفضل بن عاشور عميد الكلية الزيتونية بيننا الآن .

اعترافات :

أما فيما يتعلق بموضوع المحاضرة وهو: (الدين والحضارة) فإنى مضطر أن أقدم بين يدى الموضوع بعض الاعترافات :

أعترف أولا : أن هذا الموضوع ضخم ، وإنه ليس بطبيعى أن تكفى فيه محاضرة لتحيط بجميع أطرافه ، لأنه يحتاج إلى محاضرات عدة ، وإلى كتب مستفيضة ، وبالفعل قد كتبت فيه الكتب ، والأبحاث الطويلة ، ومع ذلك فما كان من مفر من أن يكون هذا هو العنوان .

وإذا كان هذا هو العنوان ، وكان الموضوع بهذه الضخامة ، فإننى مضطر إلى أن أوضح ما أريد فيما يتعلق بهذا الموضوع : إننى أريد صلة الدين بالحضارة : أينسجم الدين مع الحضارة ؟ أم لا ينسجم ؟ أيختلف معها أم لا يختلف ؟ أيتفق أم لا يتفق ؟.

وكلمة الحضارة التى أرددها ، لا أعنى بها مطلق حضارة ، إننى لا أريد الحضارة القديمة مثلا ، وإنما أريد الحضارة الحديثة . وسأقتصر فى حديثى إذن على هذه الحضارة الحديثة . وسأقتصر فى حديثى عن الدين الإسلامى ، كمثل أعلى متكامل للدين على وجه العموم .

أما الاعتراف الثانى : فإنى أعترف بأن الموضوع جاف ، إن هناك موضوعات عاطفية تستثير عادة التصفيق الحاد !! ولكن أنا مستعد لأن أصفق لكم أنتم ، حينما تنتظرون معى إلى النهاية .

---

(١) محاضرة ألقيت بقاعة الإمام محمد عبده فى ٢٧ مارس ١٩٦٢ .

والاعتراف الثالث : يختص بإحاطتى أنا بالموضوع ، وأعترف لكم أنه مع هذا التحديد المحدد ، فإننى لا أحيط بالموضوع علما من جميع أطرافه ، ولا أزال ينقصنى فيه الكثير . ومع هذا ، فإن هذا الذى أريد أن ألقيه الآن ، أنا على يقين منه ، ولا ينتابنى مطلقا الشك فيما أقول وفيما أتحدث به .

وموضوع الدين والحضارة يستدعينى أن أقول فى المبدأ : إننى مهما تحدثت عن الحضارة بإجلال أو بتحقير ، ومهما تكلمت عنها بنقد أو تحليل ، فإن الدين على وجه العموم لا يعارض قط التقدم العلمى لإسعاد الإنسانية . لا يعارض التقدم الصناعى لإسعاد الإنسانية . لا يعارض فى الناحية العلمية على أية صورة كانت ما دام الأمر ، أمر إسعاد الإنسانية ، وإذا كانت هذه قضية مفروغا منها ، فإننى أتجه إذن لتصوير نشأة الحضارة .

الحضارة :

الحضارة نشأت فى فترة معينة من التاريخ ، وفى زمن محدد نعلم ابتداءه ، ونعلم العوامل التى أنشأتها ، والتى كانت الأساس فى هذه النشأة .

وكلنا يعلم أنه فى فترة من الفترات ، كانت الكنيسة مسيطرة على العالم الأوربى سيطرة تامة : ما كان هناك شىء يفعل ، أو شىء ينتهى فيه الأمر ، ولا شىء يقام أو يهدم ، وما كان إنسان يقدم على أمر ، وما كان إنسان يحجم عن أمر، إلا باستئذان الكنيسة ، وباستئذان رجال الدين . ولكن الكنيسة ورجال الدين تعسفوا فى استعمال سلطتهم ، حتى لقد أنشأوا محاكم التفتيش .

وقد كتب الأوربيون والمسيحيون عن محاكم التفتيش كثيرا ، وصوروها فى أبشع مظاهرها ، وفى أسوأ صورها : كتب الكاثوليك ، والبروتستانت ، وكتب الفرنسيون ، وكتب الإنجليز .. كتب كل هؤلاء - وهم رجال المسيحية - فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولقد وضحوا وبينوا أن الكبت ، الذى كان يغمر أوربا فى ذلك العصر ولَّد الانفجار ، واتخذ الانفجار اتجاها معينا : اتخذ الاتجاه الإنسانى .

وأخذ قادة الحضارة - مبتدئين من هذا الاتجاه الإنسانى - يقررون أن الإنسان له كيانه ، له شخصيته ، له ذاتيته ، له حدوده ، له تقديراته ، له مكانته التى يجب أن يحتلها ، يجب أن يحتل الإنسان المكانة التى تليق به :

ومن هنا كـانت كلمـة الإنسـانيـة التى تطلق - كـرمـز مميـز - على هذه الحضارة ، ومن هنا كان تمجيد الإنسانية .

ولكن حينما بدأوا يتحدثون عن الإنسان ، فى ثورة عـواطفهم القـوية ، وفى غمرة نفورهم الشديد من رجال الدين ، كانت كلمة الإنسانية توحى - عند قادتهم - بانفصال الإنسانية عن الإلهية ، أو انفصال الإنسانية عن الكنيسة ، أو انفصال الإنسان عن الدين ، أو بالتعبير الحديث انفصال الدين عن الدولة .

يجب أن يكون للإنسان مكانته ، يجب أن يكون له موقفه أمام الدين وتجاه الألوهية ، تجاه النص المقدس ، تجاه الكنيسة. ويجب أن يخضع كل ذلك للإنسان.

فالإنسـان له عقله ، له منطقه ، ويجب أن يسـيـر بهذا العـقل وبهذا التفكيـر وبهذا المنطق .

وتصوروا جماعـة من الجماعات ، كانت السيوف مصلتة عليهـا من جميع النواحى- ثم انفجرت هذه الجماعة فقضت على السلاح الموجه إلى نحرها ... ماذا يكون تفكيرها بالنسبـة لهذا السلاح ، وبالنسبـة لحامليه ، بالنسبـة لهـذا المصدر الذى كان للكبت. إن تفكيرها فى أهدأ حالاته يكون معارضا منتقدا ، ومتحمسا فى معارضته، وفى انتقاده، ولكن يشعر أحيانا بشعور السفاك النهم لإسالة الدماء !!

هكذا كان الأمـر فى بدء الحضـارة الحديثة : لقد أراد زعماؤها أن يتخلصوا من الدين ومن رجال الدين ، لتحتل الإنسانية مكانتها دون معارضة لها أو كبت أو تنكيل .

وحينما أقول « الإنسانية » : يختلط الأمر نوعا مـا ، إذ إن معنى هذه الكلمة اكتسب من الآلام التى نزلت بالإنسانيـة فى كثيـر من فتـرات التـاريخ - نوعـا من التـقـديس وكـثـيـرا من التـمـجـيـد والعطف ، ولذلك فـإنى دون إخـلال بالمعنى ، سأستعمل كلمة « البشرية » ، وإذا استعملت كلمة البشرية كان المعنى الذى أريده أدق فيما يتعلق بصلة الثورة الأوربية ، أو الحضارة الأوربية فى بدء نشأتها ، وفى ثورتها ضد رجال الكنيسة .

كـان هناك إذن الدين من جـانب ، وكـانت هناك البـشـرية من جـانب آخـر ، وأرادت هذه البـشـرية أن تقف فى وجـه الدين ، وأن تسـتـقل بنفـسـهـا فى وضع

أصولها ، وقواعدها ، ونظمها ، وأن تنتهى فى النهاية إلى أن تكون مستقلة كل الاستقلال عن جميع النواحى التى تتعلق بهذا الجانب الروحى .

● ● ●

وتلفتت الحضارة أو ممثلو الحضارة ، أو الذين يقومون على الحضارة - تلفتوا يمينًا وشمالا على الأصول والقواعد التى يمكنهم أن يقيموا عليها نظمهم البشرية ، وتساءلوا : ماذا يمكن أن يحل محل الدين ؟.

إن الدين نظام اجتماعى ، وتشريعى وأخلاقى ، فما الذى يمكن أن يحل محل هذه النظم ؟ إذا أردنا أن نتخلص من هذه النظم لأنها نظم دينية يقوم عليها رجال الكنيسة ، رجال محاكم التفتيش ، فما هى المصادر والمنابع التى نستقى منها ، إذا أردنا أن يسود الاطمئنان فى المجتمع ؟.

أما المصادر فما كان يمكن ، وما كان يتأتى ، إلا أن تكون مصدرين :

١ - العقل فى ناحية ما وراء الطبيعة .

٢ - والضمير فى ناحية الأخلاق .

وإذا لجأت الحضارة الحديثة فيما وراء الطبيعة إلى العقل ، ولجأت فى الأخلاق إلى الضمير : فالعقل هو الذى يؤسس ما وراء الطبيعة ، والضمير هو الذى نرجع إليه فى الأخلاق .

ولكن .. تخبط العقل : لأنه يختلف من إنسان لآخر ، ومن بيئة لأخرى ، ومن زمن لزمن ، ومن مكان لمكان ، ومن ثقافة لأخرى .

وأخذ الضمير من جانبه أيضا يوحى بإيحاءات مختلفة : فالضمير ليس إلا أثرا للبيئة ، وللثقافة ، وللوسط الذى نعيش فيه . ليس الضمير معصوما قط . وإنها لفكرة خرافية كون الضمير معصوما . والضمير إذا تخلص من سيطرة الدين فإنه قد يوحى بالفساد ، كما يوحى بالصلاح ، لأنه ابن البيئة ، فإذا كانت البيئة إجرامية فالضمير إجرامى ، وإذا كانت البيئة صالحة فالضمير صالح ، وإذا كانت البيئة أوربية فالضمير أوربى ، وإذا كانت البيئة شرقية فالضمير شرقى ..

ومن الواضح ، أن ضمير الأوربيين لا يؤنبهم قط على السفك الذى

يستبيحونه فى كل قطر يسيطرون عليه ، إنه يبيح إذن - لو اتخذناه مقياسا - السفك ، والتنكيل ، والاستعمار .

ليس هناك إذن شىء ثابت مستقر معصوم اسمه الضمير .

وليس هناك قضايا يتفق عليها العقل فيما وراء الطبيعة .

وتخبط العقل ، وتخبط الضمير .

فما المخرج ؟

أسطورة التطور الإنسانى :

رأى رجال الحضارة ، أن يلجأوا إلى شىء يبعد عنهم وصمة العجز ، فلجأوا إلى فكرة التطور : الإنسان متطور ، الأفكار متطورة . وإذن المسألة ليست مسألة خطأ صريح ، وإنما هى مسألة تطور فيما يتعلق بالأفكار ، وفيما يتعلق بالمعانى. وما دام هناك قانون للتطور إذن لا عيب عليهم إذا أخطأوا أو تخبطوا فى كل مرحلة من مراحلهم ، وفى كل فترة من فتراتهم ... ونادى الحضاريون البشريون بفصل الدين عن الدولة . وحينما فصل الدين عن الدولة رأت الدولة نفسها تتخبط حينما تستند إلى العقل فى نظمها الدينية والاجتماعية وحينما تستند إلى الضمير فى نظمها الأخلاقية ، فاخترعت أسطورة التطور الإنسانى فيما يتعلق بالفكر .

وكانت كلمة التطور هى الطلسم السحرى ، الذى يحاولون التعلل به ، لإخفاء عجز العقل والضمير الإنسانى ، لإخفاء هذا العجز المطلق الذى يجعل الإنسان متخبطا بعقله فى أمور ما وراء الطبيعة ، ومتخبطا بضميره فى أمور الأخلاق ! لقد أخفوا كل ذلك بفكرة التطور .

ليس فى الأحكام القاطعة تطور :

ولكن إذا نظرنا إلى فكرة التطور فى الدين والأخلاق فما معناها حقيقة ؟.

ما معنى فكرة التطور ، إذا أدخلناها فى الفكر على وجه العموم ؟

إن فكرة التطور ما هى إلا دعوة إلى السوفسطائية القديمة ، إنها دعوة إلى آراء اليونان القدماء - السوفسطائية منهم - لأن معنى التطور فى الفكر ، أنه ليس هناك قضية ثابتة - وإنما جميع القضايا الفكرية متطورة ، وهذا التطور لا ينتهى إلى حد . وإذن هناك النسبية باستمرار ، هناك النسبية المطلقة ، هناك إذن

الخطأ المستمر ، وهذا الخطأ لا علاج له مادمنا نقول بالتطور ، لأنه ما دمنا نقول بالنسبة وبالتطور فليس هناك الثبات ، وإذن لا يكون هناك ثبات فى الدين ، ولا يكون هناك ثبات فى الأخلاق .

فإذا أدخلنا فكرتهم بالتطور فى الدين فقد قضينا على الدين وإذا أدخلنا فكرة التطور فى الأخلاق فقد قضينا على الأخلاق .

هذه الفكرة التى أتحدث عنها : فكرة إدخال التطور فى الدين فكرة سمعناها من الكثيرين ، لقد ألفنا كلمة التطور ، وألفنا لذلك كلمة إدخال التطور فى الدين إلى درجة أنه يخيل إلى وأنا أتحدث فيها ، أن الأمر غريب على بعض الأذهان التى تتساءل : لم لا يكون فى الدين تطور ؟

ولكن إذا فهمت فكرة التطور على حقيقتها ، وإذا فهمت فكرة الدين على حقيقتها : كان لا مناص من الإقرار ، بأن الدين لا يدخله قط - ولا شروى نقير ، لا ، ولا قلامة ظفر - فكرة التطور .

إن التطور الفكرى تغيير من حال إلى حال ، وهو تغيير مستمر دائم ، إنه تغيير لا ينتابه هدوء ولا سكون ، إنها إذن النسبية ، إنها إذن السوفسطائية القديمة ، إنها عود إلى هذه الفترة القديمة التى لم يكن فيها دين ثابت ، ولم يكن فيها خلق ثابت . فالأمر فيهما حينئذ عند السوفسطائيين ليس أمر ثبات مطلق ، وليس أمر عصمة ، وليس أمر قضايا محققة ، وإنما الأمر أمر تغيير باستمرار وأمر نسبية .

وبذلك يقضى على الدين ، ويقضى على الأخلاق .

وإنه لمن المؤسف حقيقة- أننا نجد فكرة التطور تتسرب إلى الناحية الدينية، وإلى المحيط الدينى فى الأقاليم الإسلامية ، وهذه الفكرة لخطورتها ولأنى أعلق على إزالتها كثيرا من الأهمية : أريد أن أضرب بعض الأمثلة حتى نكون على بينة من الأمر :

قرأت فى بعض المجلات مقالا يقول كاتبه أن فضيلة الشيخ (....) رجل متطور واسع الأفق ، ومن مظاهر تطوره - فى رأى الكاتب - أنه يأبى إلا أن يقيم صلاة الغائب على روح فلان ، وفلان هذا الذى ذكره الكاتب ، لا يدين بدين الإسلام، وما من شك فى أن ذلك لا يجوز « إسلاميا » وما من شك فى أن فضيلة

العالم الكبير ، لا يفعل ذلك ولا يبيحه ، ولكن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على جهل الكاتب بمعنى الحقائق الدينية التى لا تتغير بتغير الأهواء والعواطف ، ويدل من جانب آخر على الخطورة التى يتعرض لها الدين حينما تدخله فكرة التطور ، وحينما تتناوله أقلام الذين لا يعقلون دين الله على الوجه السليم .

ومثل آخر :

إننا جميعا نجل الشيخ محمد عبده ، ونحترمه وندين له بكثير من تخليص الدين عن الخرافات والأساطير، ولكن حينما نقرأ له تفسير قصة آدم فنجده يقول: بأنها تمثيل . نتساءل : لم اتجه الشيخ محمد عبده هذا الاتجاه ؟! لم اتجه فى قصة آدم إلى أنها تمثيل ؟ حينما نتساءل حقيقة عن السر العميق - فى الشعور أو فى اللاشعور - نجد أن الشيخ محمد عبده رأى أن فكرة التطور منتشرة فى جميع أرجاء أوربا ، بل والعالم ، وهى - فيما يرى - تتعارض مع التعاليم التى تنبئ أن آدم هو أول البشر ، وهو الذى خلقه الله وسواه ، وخاطب الملائكة فى شأنه وأمرهم أن يسجدوا له .

رأى الشيخ محمد عبده أن كل ذلك لا يتلاءم كثيرا مع فكرة التطور المزعومة ... فماذا صنع ؟ فقرر بأنها قصة ، وأنها تمثيل ، وبذلك يمكننا أن نؤولها كيفما شئنا .

كما رأى الشيخ محمد عبده أن يفسر اختلاف رسالات الرسل وتعاقبها : موسوية ، وعيسوية وإسلامية ، بتطور الإنسانية : الإنسانية - حسبما يرى - حسية فى زمن موسى ، فكانت رسالة سيدنا موسى حسية . ثم تطورت الإنسانية من الحس إلى العاطفة ، فكانت رسالة سيدنا عيسى عاطفية . ثم تطورت الإنسانية من الحس والعاطفة إلى العقل ، فكانت رسالة سيدنا محمد عقلية .

ورأيى أن الإنسانية لم تتطور هذا التطور . وأن الإنسانية أينما سرنا وعند أى فرد رأينا وفى أى مجتمع شاهدنا ، فإنما يتمثل فيها جوانب ثلاثة :

الحس ، والعاطفة ، والعقل . ولكن فكرة التطور ، وأن الإنسانية متطورة انتهت بأن أصبحت مسيطرة على الكثيرين فانقادوا لها ، وأدخلوها فى المحيط الدينى ، فأفسدت كثيرا من القضايا ، ونعود فنترحم على الشيخ محمد عبده ، وإذا كنا ننتقده ونحن نحاضر فى قاعته ، فذلك أننا نعلم أنه رحمه الله ، كان من

سعة الصدر ، ومن سعة الأفق بحيث لا يضيق بنقد ، ونعتقد أنه لايضيق الآن بنقدنا ، ولا يقلل هذا من عظمة الأستاذ الإمام .

ونأتى إلى شخصية أخرى نمجدها أيضا ونحترمها : شخصية محمد إقبال، وأن جهاده بالنسبة للإسلام ، وجهاده بالنسبة للمسلمين لا ينكر .

ولكنه لم يستطع أن يتخلص من فكرة التطور فى بعض المسائل كما رأى . فليراجعها من شاء فى آرائه وفلسفته .

أيها السادة :

كلكم تعلمون أن الدين عقيدة وأخلاق وشريعة ، وتصوير التطور فى العقيدة، أن نقول مثلا : اليوم ربنا واحد .. أما غدا فإنه - سبحانه وتعالى عن ذلك - يكون اثنين ؟!

وتصوير التطور فى الأخلاق ، أن نقول مثلا : أن الصدق اليوم فضيلة وغدا يكون رذيلة ، أو الصدق فضيلة اليوم وهو غدا ليس بفضيلة ولا رذيلة ؟!

فأنتم ترون أنه لا تطور فى العقيدة ، ولا فى الأخلاق .

لكن الشبه تخلق فى بعض الأذهان حول التطور فى التشريع والذى يوجد الوهم بهذه الشبه هو : باب الاجتهاد . والمنطق يقول : إنه ما دام هناك اجتهاد فى التشريع فسيكون هناك تطور فيه . ولكن الذى يقول هذا الكلام لا يفهم أيضا معنى الاجتهاد . أو هو يفهم معناه ويحاول أن يتجاهله . معنى الاجتهاد وحقيقته ، إنما هو المحاولة الجاهدة المستمرة للوصول إلى ما كان عليه الرسول ﷺ ، من أجل اتباعه ، ومن أجل إدخال المسائل الجديدة تحت القواعد القديمة التى استنتجت من كلام الرسول ومن القرآن . وليس للاجتهاد معنى آخر غير هذا .

وكل المجتهدين : الإمام الشافعى ، أحمد بن حنبل ، أبو حنيفة ، الإمام مالك - كلهم يقولون : إذا صح الحديث فاضرب برأيى عرض الحائط : أى أنه إذا رأى رأيا من الآراء ملتمسا فى هذا الرأى ، أن يكون موافقا لكلام الرسول ، ثم تبين فيما بعد أنه أخطأ ، لأن الحديث يفيد غير ذلك ، فإن كلامه ورأيه لاقيمة لهما ، ويجب أن يطرحا ويهملا وأن يؤخذ بكلام الرسول .

وإذن ليس فى الاجتهاد تطور .

إن التطور العقلى كمنبع لما وراء الطبيعة ، والضمير كمنبع للأخلاق ..

كل هذه هى البشرية فى مقابلة الألوهية ، فى مقابلة النص . واعتمدت إذن الحضارة الحديثة على البشرية فى مبادئها وقواعدها ، فكانت النظم الاجتماعية المختلفة ، والنظم الأخلاقية المختلفة ، وكان الهدم فى كل يوم ، وانتهت فى بعض الميادين الفكرية الاجتماعية إلى ما كان يمكن أو يتصور أن تنتهى إليه :

لقد انتهت بتفسير أو تصوير رائع ، لآية قرآنية كريمة هى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ... ﴾ (١) .

وأريد أن أشرح هذه الآية فى إيجاز : إن آيات الله محيطة بالإنسان من جميع أقطاره ، فالسموات من آيات الله ، والأرض من آيات الله ، والأشجار من آيات الله ، والأنهار والجبال ، والمحيطات والنجوم والكواكب كل ذلك من آيات الله، هذا الإبداع المحكم ، الذى يحيط بالإنسان من جميع أقطاره ، هذه الآيات التى تحيط بالناس ، أينما كانوا والتى تنادى بجلال الله وعظمته .. حاول بعض الناس الانسلاخ منها - فلم يقروا بالألوهية الإقرار السليم ، والتعبير بالانسلاخ من أحكم وأدق وأروع ما يكون .

لقد حاولوا الانسلاخ منها وهى ملتصقة بهم التصاق جلد الإنسان بالإنسان، وانسلخوا منها بعد لأى وعلى خلاف الفطرة ، وعلى وضع لا يتلاءم مع النظام الطبيعى ، وانسلخوا بذلك من محيط الألوهية إنهم خرجوا عن سرادق الألوهية ، وخرجوا عن أن يكونوا من عباد الله ، فتهيأوا بصنيعهم هذا ليكونوا من أتباع الشيطان ، وسهل على الشيطان غزوهم ، فغزاهم بخيله ورجله فكانوا من الغاوين ، ولو شاء الله لرفعهم بآياته ، ولكن العيب جاء منهم هم ، إذ أخلدوا إلى الأرض .

وما من ريب فى أن الإخلاد إلى الأرض فى أبشع صورة هو الشيوعية ..

واتبعوا أهواءهم :

وما من شك فى أن اتباع الهوى فى أسمج صورة هو الوجودية .

وسواء كنا بصدد الشيوعى ، أو بصدد الوجودى فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث .

---

(١) الأعراف : ١٧٥ : ١٧٦ .

ولكن لِمَ يلهث سواء حملت عليه أو تركته ؟

إن الشيوعى ليس همه إلا المادة ، والإخلاد إلى الأرض .

ومهما بسط الله له فى الرزق فهو ضيق بذلك . وإذا ضيق الله عليه فى الرزق ، فهو ضيق بذلك أيضا . إنه لا يطمئن إلى شيء روحى يقنعه ، والمادة - مهما أوتى الإنسان منها - فإنها - مادام جشعا - لا تنتهى إلى إرضائه ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالوجودى .

فإنه وقد آثر اتباع الهوى - وليس الوجودية إلا إيثار اتباع الهوى - فإنه لا يعتمد على هاد يطمئنه ، ولا على اطمئنان يسكنه ، وهو ضيق بالحياة ذرعا ، سواء كان سعيدا أو شقيا ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

انتهت الحضارة إلى أمثال هذه النظم التى لا ترى إلا المادة ، أو لا ترى إلا البشرية الهاوية أو الغاوية ، وانتهى الأمر بالشيوعى والوجودى إلى ما كان لا مفر من أن ينتهى إليه ، وهو انفصال الشيوعى ، وانفصال الوجودى عن المحيط الإلهى ، وعن السرادق الإلهى .

ومما لا شك فيه ، أن هذه النظم التى لا تتصل بالعصمة ، إنما تتخبط وتكون باستمرار متأرجحة متقلبة ، ولا تستقر استقرارا نسبيا إلا بالحديد والنار، وبالسلاح ، وبسفك الدماء ، وبالقتل ، وأن ما وراء الستار الحديدى يمكن أن يكون صورة لكل هذا الانفصال عن الألوهية ، الذى لا يستقر إلا بالحديد والنار .

تلك أسس الحضارة ومنابعها ، ومصادرها : عقل ، فضمير ، فتطور ، فانتهاء إلى أمثال هذه النظم التى خرجت بالإنسان عن الجادة .

والدين إذن لا يعارض التقدم فى سبيل إسعاد البشرية . هذه قضية نحن مسلمون بها .

الإسلام :

نريد أن نتحدث عن الإسلام . وتكفينى كلمة « الإسلام » تكفينى هذه الكلمة ، للدلالة على أن هذا الدين صحيح ، منزل من عند الله ، إن معنى الإسلام، الاستسلام لله فى كل مظهر من المظاهر ، وفى كل حركة من الحركات ، وفى كل أمر من الأمور ، ويصور المعنى لهذا التعبير الرائع الآية القرآنية الكريمة :

﴿ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ (١) .

إن هذا التصوير للإسلام فى هذه الآية الكريمة رائع حقا .

استسلام لله ، أى دخول فى النطاق الإلهى ، ابتعاد عن الهوى والشيطان، إنه إسلام الوجه لله ، فرق كبير بين هذا وبين الخروج عن النطاق الإلهى بالشيوعية أو بالوجودية .

وفيما يتعلق بالإسلام هناك النظم المعصومة : هناك الأخلاق المعصومة والتشريع المعصوم ، هناك إذن العصمة كاملة ، ولكن الاستسلام لله يقتضى شيئا آخر هو الجهاد والكفاح المستمر من أجل الحق والخير وإعلاء كلمة الله . فإذا لم يكن هناك جهاد من أجل الإسلام فلا إسلام . ومن لم يجاهد من أجل إسلامه فليس بمسلم . هناك إذا الجهاد ، وهناك الاتجاه إلى جعل الإنسان ربانيا أو إلهيا .

ولكن ما هى السبيل التى رسمها الإسلام ، لجعل الإنسان ربانيا ؟ لقد :

(١) ضمن الله الرزق .　　　　(٢) وحدد الآجال .

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ .

ولضعفنا وانشغالنا بالرزق والحرص عليه أكد الله ضمانه بقوله تعالى :

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ .

وحدد الآجال وضرب لذلك أوضح الأمثال : فلو فرضنا أن إنسانا فى برج مشيد وكتب عليه القتل ، لخرج من هذا البرج المشيد إلى القتل :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ : ١٦٣ .

فإذن الآجال محددة ، والأرزاق مضمونة ، فماذا بعد ذلك إلا الاتجاه إلى الله كلية ، وبكل ما تملك ، وبكل ما تحس ، وبكل ما تشعر .

وليس الاتجاه إلى الله كسلا ، فالأعمال عبادة ما دمت متجها بها إلى الله . حركاتك وسكناتك وأنفاسك ، إذا اتجهت بها إلى الله فهى عبادة . فالعامل فى معمله إذا اتجه بعمله إلى الله فهو عابد . والصانع فى مصنعه عابد إذا كان متجها بعمله إلى الله . ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله بعمله ، وصناعته ، وحركاته وسكناته ، فهجرته إلى الله ورسوله ، والله يثيبه على فعله .

إذا كان الله قد ضمن الرزق ، وحدد الآجال ، فليس هناك مطلقا عذر من الأعذار للمسلم لأن يتخاذل ، وأن يتكاسل ، وأن يتواكل .

والصورة المثلى فى ذلك إنما هى صورة محمد صلوات الله عليه فى كفاحه الذى لم يفتر ، وجهاده المستمر ، وهى صورة للمتأسين به يجب أن تحتذى .

ولكن لِمَ الجهاد ؟ ولِمَ الكفاح ؟

هناك رسالة إسلامية ونحن مكلفون بها . ونحن لا نقول الأزهر فحسب هو المكلف بها ، وإنما نقول أن كل مسلم مكلف بهذه الرسالة .

وهذه الرسالة الإسلامية تصورها الآية الكريمة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾[1] .

والرحمة بالإنسانية ، إنما هى إخراجها عن دائرة الشيطان إلى دائرة الله سبحانه وتعالى : إخراجها عن التناحر وعن التنازع من أجل المادة . إلى السمو فى آفاق الأخوة ، وفى آفاق الرحمة الشاملة العامة . هذه الرسالة الرحيمة الرحمانية التى حددها الإسلام بنظمه ومبادئه، والتى كلفنا بها، وكنا خير أمة أخرجت للناس من أجلها، إذا لم نقم بها فى وجه الحضارة الحديثة، لا نكون مسلمين، أو على الأقل لا نكون فى عملنا السلبى من الذين يتأسون بصاحب الرسالة الإسلامية، ولن يكون لنا الفخر بأننا من حملة الرسالة الرحمانية ، رسالة الرحمة المهداة .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

اعتزاز المسلم بدينه :

والواقع أن المسلم يجب أن يفخر حقيقة بدينه وبنظمه وبرسوله وبأمته .

ودون أن نريد موازنة فى قليل ولا كثير ، نرى مثلا أن هذا الشيخ الوقور سيدنا نوحا عليه السلام الذى عاش فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى الله ، انتهى به الأمر فى هذه الفترة الطويلة بأن كانت كل الحصيلة مجموعة حملت فى سفينة .

وإذا جئنا إلى سيدنا موسى نجد أنه حين أراد القتال ، قال له قومه :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ .

ومن الصور القرآنية الطريفة جدا ، أن سيدنا موسى بعد أن جاهد فى قومه هذا الجهاد بالدعوة والإرشاد والنصيحة ، تركهم فترة وتقدمهم قليلا ، فخاطبه الله بقوله :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ . فذكر كليم الله ، أن قومه هم أولاء على أثره ولكن الشوق والحب حمله على ذلك : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ . وجميل هذا ، لكن انظروا إلى التربية الحكيمة فى الأسلوب المهذب ، هذا الأسلوب الذى كأنه يقول : إنك لم تحكم أمر الدعوة من ورائك. وإن أحكام أمر الدعوة إنما هو لقاء الله : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ ...

وإذا جئنا إلى سيدنا عيسى ، فإننا نجد أن سيدنا عيسى صلوات الله عليه وسلامه حين رفعه الله إليه ، لم يكن هناك من يقر برسالته ، إلا بضعة أفراد يعدون على الأصابع ، أو يعدون بالعشرات وأكبر تقدير لأتباع سيدنا عيسى ، أنهم كانوا ثلثمائة . أخذ سيدنا موسى قومه ، من مصر فارا بهم ولم يقاتل ولم يجاهد، وحين أدركه فرعون لم يتوجه إلى القتال وإلى الجهاد ، وإنما توجه إلى الله ، فأمره الله بضرب البحر بعصاه فضرب البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، ومر موسى وقومه آمنين دون جهاد ودون كفاح .

وسيدنا عيسى لم يتوجه إلى القتال ولا الكفاح فى سبيل إعلاء كلمة الله التى هى الحق والخير .

ولكن إذا جئنا إلى سيدنا محمد ﷺ : فإننا نجد مباشرة العزم المصمم والإرادة النافذة ..

يجب أن يدين العالم لله ، وأن يسلم وجهه لله ، لتلك الرسالة الإسلامية، ويجب أن يقف محمد صلوات الله عليه ولو بمفرده فى وجه العالم كله ، فى وجه الكون بأكمله ، فى وجه هذه الدنيا .

يجب أن يدين العالم ، يجب أن تدين السماء والأرض ، وأن يدين البشر بأجمعهم لرسالة السماء ، ووقف سيدنا محمد يجاهد ويجالد ويكافح ويتخطى العقبات ، ويتغلب على الصعوبات إلى أن انتهى به الأمر إلى النصر الكامل ، بالكفاح فى سبيل الحق، الكفاح إذن جزء لا يتجزأ من الرسالة الإسلامية . إنه الكفاح من أجل الله ، لا من أجل مادة الشيوعيين . الكفاح من أجل الله لا من أجل أهواء الوجوديين . إن الرسالة الإسلامية رسالة رحمة ورسالة كفاح من أجل الرحمة ، ورسولها خير معبر عنها بسلوكه ومواقفه ، فمن لم يتأس بالرسول ، ومن لم يكافح فى سبيل الإسلام فليس له أن يفخر بأنه مسلم فضلا عن أن يزعم أنه مسلم مثالى .

تغلب محمد رسول الله ﷺ على كل عقبة وزلزل كل صعوبة ، وحطم كل صنم ، وانتهى به الأمر إلى أن شاهد ارتفاع الأذان الإسلامى فوق الكعبة ، فى مكة التى كانت تأبى كل الإباء أن تدين لله ، وأن تسلم وجهها إلى الله وحده .

ومهمتنا جميعا إذًا هى مهمة الرسول : تحطيم الأصنام : تحطيم صنم الشهوة والهوى المتغلغل فى النفس ، وتحطيم صنم المادة ، ونشر رسالة الحق والرحمة حتى ننتهى من كل ذلك بأن يسلم العالم وجهه إلى الله .

فإذا انتهينا إلى ذلك ، أو إذا ما حققناه كنا فى رضوان الله وكنا من هؤلاء الذين رضى الله عنهم ، ورضوا عنه .

وإنى لأرجو فى النهاية – أن يتكاتف المخلصون فى العالم الإسلامى

ويتساندوا ، ليقفوا أمام هذا الزحف المتتابع من المدنية الغربية ، التى تريد أن تطمس الإسلام فى أهدافه وفى نظمه وفى تعاليمه ، وفى أقدس مقدساته .

إذا أمكن أن يتكاتف المخلصون فإن الأمر سينتهى بالنصر . أما إذا لم يتكاتفوا فإن ذلك لا يعفى كل مسلم - منفردا - من العمل الجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، والعمل على سيادة المبادئ الإسلامية ، ففيها سعادة العالم إن شاء الله.

وبالله التوفيق ،،

دكتور عبد الحليم محمود

الفهرس

الموضوع	الصفحة

● الفصل الثالث :

● الفصل الرابع :

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

هذا الكتاب

لقد حاولت أن أجمع فيه بين ناحيتين:

١- الناحية الفقهية التى تتصل بالأحكام.

٢- ناحية الأسرار والحكم.

واعتمدت أولاً وبالذات على الأحاديث النبوية الشريفة. وتعمدت أن أدع الأحاديث نفسها، منسقة مبوبة، هى التى تتكلم بطابعها هذا النورانى وبسمتها النبوى الشريف، وتعمد ذلك لأسباب منها:

١- أن كتب الفقه المتأخرة - على خلاف كتب السلف - إذا تصفحتها لا تكاد تجد حديثاً يذكر، وإنما تجد كلام المؤلف نفسه، متابعاً ومقلداً لآخر على شاكلته، فأردت أن أعود إلى طريقة السلف لأنها أهدى سبيلاً.

٢- والأحاديث النبوية جميلة الأسلوب. سهلة الفهم، عليها نور صاحب الروضة الشريفة، ﷺ ، ولذلك يؤمن بها الأمى، ويقتنع بها المثقف، بل إن المثقف يرضى بهذا النمط من الكتابة أكثر مما يرضى بغيره، وذلك لأنه يعلم مصدر الحكم من الحديث، ويتابع الرسول، ﷺ ، رأساً، وفى ذلك إرضاء لكرامته، باعتباره مثقفاً.

وما توفيقى إلا [illegible] كلت وإليه أنيب

عبد الحليم محمود